٢

هو العليم

سبيل الفلاح

(مباني السير والسلوك إلى الله)

بيانات ألقاها

سماحة العلامة آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

قدس الله نفسه الزكية

على مسامع بعض الأصدقاء

تقديم وتصحيح

سماحة آية الله الحاج السيد محمد محسن الحسيني الطهراني

قدس الله نفسه الزكية

بسم الله الرحمن الرحيم

هو العليم

سبيل الفلاح

(مباني السير والسلوك إلى الله)

بيانات ألقاها

سماحة العلّامة آية الله الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

قدّس الله نفسه الزكيّة

على مسامع بعض الأصدقاء

تقديم وتصحيح

سماحة آية الله الحاجّ السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ

قدّس الله نفسه الزكيّة

سرشناسه : حسینی طهرانی، سیّدمحمّدحسین، ۱۳۴۵ - ۱۴۱۶ ق .
Hoseini Tehrani, Mohammad Hosein
عنوان و نام پدیدآور :سبیل الفلاح: (مبانی السیر والسلوک الی الله) / محاضرات القاها لسماحة السیّدمحمّدالحسین الحسینی الطهرانی؛ تقدیم و تصحیح السیّدمحمّدمحسن الحسینی الطهرانی.
مشخصات نشر: طهران: مکتب وحی، ۱۴۴۵ ق. مشخصات ظاهری : ۱۹۰ ص .
شابک : ۴-۹۵-۶۱۱۲-۶۰۰-۹۷۸ . فروست: دوره علوم و مبانی اسلام و تشیع؛ ۲
یادداشت: زبان: عربی. کتابنامه: ص. ۱۸۷ - ۱۹۰؛ همچنین به صورت زیرنویس.
عنوان دیگر: مبانی السیر والسلوک الی الله.
موضوع : آداب طریقت Customs of the order
شناسه افزوده : حسینی طهرانی، سیدمحمدمحسن، ۱۳۷۴-۱۴۴۰ق.، مقدمه‌نویس، مصحح
رده بندی کنگره : BP ۲۸۸/۳ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۸۴
شماره کتابشناسی ملی : ۹۳۲۲۵۱۸

انتشارات مکتب وحی

دورة علوم ومباني الإسلام والتشيّع (۲)

سَبِيلُ الفَلاح

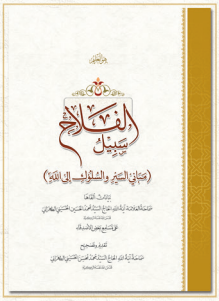

سَماحَةُ العَلّامَة آيةُ اللهِ الحاجُ السَّيِّدُ مُحمّدُ الحُسين الحُسَيْنيّ الطهرانيّ

الناشر: انتشارات مكتب وحی / طهران
ISBN: ٩٧٨-٦٠٠-٦١١٢-٩٥-٤
الطبعة: الأولى / ١٤٤٥ هـ.ق
العدد: ٥٠٠ نسخة

+٩٨-٢٥-٣٧٨٤٢٥٥٥
MadrasatAlwahy.org
التواصل الاجتماعي: @MadrasatAlwahy

حقوق الطبع محفوظة

في الحديث القدسي:

«لَمْ يَسَعْنِيْ أَرْضِيْ وَلا سَمَائِيْ، وَوَسِعَنِيْ قَلْبُ عَبْدِيَ المُؤمِنِ»

بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٠٩

فَهْرَسُ المَوَاضِيْعِ

فهرس المواضيع

العنوان | الصفحة

المقدّمة ١٩

الجَلسَةُ الأُولى: هَدَفُ اللهِ تعالى وَغَايَتُهُ مِنْ خَلْقِ الإنْسَان

الصفحات ٢٩ ـ ٥٦

بيانٌ إجماليٌّ للغاية والهدف من خلق الإنسان ٢٩

وجوب الحركة على الجميع ٢٩

سبب عدم وصول البعض إلى الكمالات التوحيديّة هو عدم حركتهم ٣٠

يجب أن تكون حركتنا طبقًا للشريعة الإسلاميّة ٣١

الخطوات الأولى بعد اليقظة ٣٢

١- أن نعرف من نكون ٣٢

٢- أن نعرف طريقنا وغايتنا وقيمة هذا الطريق ٣٣

نتائج السير والسلوك والحركة ٣٤

١- الوصول ٣٤

٢- نزع الغلّ والكدورة الباطنيّة وحلول الرحمة ٣٥

الدنيا هي دار الحركة والمعين على الحركة هو الله دون النفس ٣٧

الاعتماد على النفس في قبال الاعتماد على الله، اعتمادٌ على الصنم ٣٨

بعض موانع الحركة ٤٠
سجن أبناء الدنيا في التوهّمات والتخيّلات الفاسدة والباطلة ٤٠
عند الوصول نشاهد نتائج سيرنا وحركتنا ٤١
عالم الآخر حقيقة لا خيال ٤١
الجهود العظيمة التي بذلها الأنبياء والأئمّة ليبيّنوا لنا الحقيقة ٤٢
معركة بدر نموذجًا ٤٢
بعض أسباب الضلال عن الطريق ٤٥
بعض ضروريّات السير والحركة في هذا الطريق ٤٦
١- الحركة تكون عن اختيار لا عن إجبار ٤٦
٢- لا بدّ من قيام الليل ٤٦
٣- العمل بالتكليف وبمقتضى العبوديّة والتوحيد الخالص ٤٧
بعض التكاليف ومقتضيات العبوديّة والتوحيد الخالص ٤٨
١- الالتجاء إلى الله لأنّه المؤثّر الوحيد ٤٨
٢- إقرار السالك أنّه لا يملك شيئًا ولا يملك تأثيرًا ٤٩
٣- الطلب من الله أن يوصل الاستعدادات إلى الفعليّة ٥٢
نتائج وصول السالك إلى اللـه ٥٣

الجَلسَةُ الثَّانِيَةُ: ضَرُورَةُ عَدَمِ الالتِفَاتِ إِلَى مَا سِوَى اللهِ مِنْ أَجْلِ الوُصُولِ إِلَى اللهِ

الصفحات ٥٧ ـ ٨٤

سبب صعوبة الطريق إلى الله وسبب سهولته ٥٧
ما يحتاج إليه السالك لطيّ الطريق ٥٨
الأمر الأوّل: الهمّة العالية ٥٨
معنى الهمّة العالية: طلب الله وحسب ٥٨
طلب المكاشفة والكرامات طلبٌ للدنيا لا طلبٌ لله ٥٩
قصّة المُرتاض الهندي مع الإمام الصادق عليه السلام ٦٠
على السالك أن يجعل اختياره بيد الله وأن يعمل لله ٦١
كلام أمير المؤمنين عليه السلام في تقسيم عبادة العبّاد إلى ثلاثة أقسام ٦٢

قصّة المرحوم القاضي والميرزا إبراهيم عرب بجانب الشطّ ٦٤
علامة القرب وعلامة البُعد ٦٦
علامة صحّة الطريق ٦٧
الأمر الثاني: الاستقامة والتحمّل والصبر أمام العقبات ٦٩
هل العقبات والموانع في السير والسلوك أكثر منها في الطرق العادية؟ ٦٩
أنواع الموانع والحُجب في السير والسلوك ٧٠
١- الحجب الظلمانيّة ٧٠
٢- الحجب النورانيّة ٧٠
قصّة العلامة الطباطبائي مع الحور العين في مسجد الكوفة ٧١
كيفيّة تجاوز العقبات السلوكيّة ٧٣
نماذج من العقبات التي تحتاج إلى الصبر ٧٣
لا ينبغي للسالك أن يُقارع العوام أو يُجادلهم ٧٥
المؤمن كالجبل الراسخ لا تُحرّكه العواصف ٧٧
تشبيه السالكين بالطيور في كتاب منطق الطير ٧٨

الجَلسَةُ الثَالِثَةُ: ضَرُورَةُ كِتْمَانِ الأَسْرَارِ الإلَهِيَّةِ وَالآثَارِ السَيِّئَةِ لِكَشْفِ السِرِّ

الصفحات ٨٥ ـ ١٠٨

الأمر الثالث من الأمور المهمّة في السير والسلوك: كتمان السرّ ٨٥
مفهوم السرّ ومراتبه ٨٥
السبب في خطورة كشف السرّ أنّ الطريق طريق عشق ٨٦
نتائج إفشاء السرّ ٨٧
أ. الاستدراج ٨٧
حالات السالك ومُدركاته مصداقٌ للأسرار الإلهيّة ٨٨
ب. قطع الطريق على الآخرين ٨٩
ج. العُجب بالنفس ٩١
الأئمّة عليهم السلام لم يُصابوا بالعجب رغم مقاماتهم الرفيعة ٩٢
د. عدم الوصول إلى المطلوب ٩٤

كشف السِرّ بخمد الهمّة ٩٥
مواطن كتمان السرّ ٩٦
أوّلًا: كتمان الحالات المعنويّة ٩٦
على الإنسان أن يتعامل مع الخَلْق بالطرق الطبيعيّة ٩٩
وجوب عرض جميع الرؤى والمكاشفات على الأستاذ ٩٩
ثانيًا: إخفاء الأستاذ وكتمان البرامج والتكاليف السلوكيّة التي يأمر بها ١٠٠
سبب لزوم إخفاء اسم الأستاذ والحالات والبرامج ١٠١

الجَلسَةُ الرَابِعَةُ: ضَرُوْرَةُ الاتّبَاعِ التَامِّ للأُسْتَاذِ فِيْ السَّيْرِ وَالسُّلُوْكِ إِلَى اللهِ

الصفحات ١٠٩ ـ ١٣٦

تلخيصٌ لما تقدّم ١٠٩
الأمر الرابع من الأمور المهمّة في السير والسلوك: إطاعة الأستاذ ١١٠
معنى الطاعة ١١٢
أهميّة الطاعة وضرورتها ١١٢
جريان قاعدة لزوم اتّباع الجاهل للعالم جاريةٌ في جميع المجالات ١١٤
بعض فوائد إرشادات الأستاذ الأخلاقي ١١٦
١- إرشاداته تجعل العبادات مؤثّرةً ١١٦
نموذج: إرشادات الأستاذ في كيفيّة أداء الصلاة ١١٧
بعض أساتذة الأخلاق والعرفان من المُجتهدين الكبار ١٢١
٢- الأستاذ الأخلاقي يُعلّم السالك كيف يزيل الحجب وكيفيّة المراقبة ١٢٢
العرفان لا يختصّ بالسجّادة والمناجاة في منتصف الليالي ١٢٣
نموذج من سيرة النبيّ الأكرم والأئمّة عليهم السلام ومنهجهم في التعامل ١٢٤
قصّة النبيّ مع المرأة العجوز ١٢٤
بيان معنى العبد ١٢٦
نتيجة الطاعة ١٢٧
نتيجة ترك الطاعة ١٣١

الجَلسَةُ الخَامِسَةُ: أَرْكَانُ المُرَاقَبَةِ الخَمْسَةِ

الصفحات ١٣٧ ـ ١٦٤

الركن الأوّل: الصمت والسكوت ١٣٧
علاقة الكلام بالقلب ١٣٨
السكوت يحتاج إلى تدريب وتمرين ١٣٩
تشبيه جميل للمرحوم القاضي يُبيّن فيه تأثير الكلام على القلب ١٤٠
السكوت يُؤدّي إلى تحجّر شيطان الإنسان ١٤١
تجلّيات اللـه لا تحصل إلّا في ظل هدوء النفس ١٤١
مراتب السكوت ١٤٢
السكوت يشمل التكلّم والسماع ١٤٣
نماذج من الكلام الذي يُعدّ زائدًا والذي لا يُعدّ زائدًا ١٤٤
الركن الثاني: المحافظة على الصّحة وسلامة المزاج ١٤٦
الركن الثالث: اعتزال أبناء الدنيا ومعاشرة الأولياء الإلهيّين ١٤٧
قاعدة سلوكيّة مهمّة: النفوس كالأوعية المتّصلة ١٤٨
أهل الدنيا يجذبون الإنسان باتّجاه الدنيا ١٤٩
كيف يختار الإنسان الرفيق والمعاشر ١٥٠
معنى العزلة في السلوك إلى اللَه ١٥٠
الارتباط بالصلحاء والأولياء الإلهيّين أمرٌ مهمٌ للسالك ١٥١
الركن الرابع: الاستيقاظ عند السحر ١٥٢
الركن الخامس: المداومة على ذكر اللـه ١٥٣
معنى ديمومة الذكر وأهميّة ذلك ١٥٤
قصّة الحطّاب الذي طلب المحبّة الخالصة من اللَه ١٥٤
ينبغي أن يرتقي الإنسان في السير والسلوك بالتدريج ١٥٦
أهميّة الذكر في السير والسلوك ١٥٧
مزيدٌ من التوضيح والبيان لمعنى مراعاة المزاج ١٥٨
قاعدة سلوكيّة مهمّة: خير الأمور أوسطها ١٥٩
الرحمة واللطف الإلهيّان هما علّة دخول السالك في السير والسلوك إلى اللَه ١٦٠

الجَلسَةُ السَادِسَةُ: المُرَاقَبَةُ وَالتَزْكِيَةُ وَالمُواظَبَةُ فِيْ السَيْرِ وَالسُلُوكِ

الصفحات ١٦٥ ـ ١٨٨

تمهيد ١٦٥
حقيقة السلوك إلى اللَه وما ينبغي للسالك عمله ١٦٦
أوّلًا: العمل ١٦٦
ثانيًا: الرياضة الروحيّة ١٦٧
ثالثاً: الصمت ١٦٨
رابعًا: حضور القلب في الصلاة ١٧١
بيان العلامة الطباطبائي للشرط الأساسي في تأثير الأعمال ١٧١
معنى المراقبة ١٧١
أهمّيّة المراقبة ١٧٢
أهميّة الالتزام برواية عنوان البصري في السلوك ١٧٦
الخسران هو عاقبة ترك العمل ١٧٧
نجاح مدرسة السيّد عليّ القاضي في الترقّي السلوكي ١٧٨
لزوم العزلة والخلوة في الطريق إلى اللـه ١٧٩
نصائح عامّة للسير والسلوك إلى اللَه ١٨٠
التسمّي باسم السالك لا يداوي وجعًا ١٨٠
إنّ اللَه يحاسب حتّى أولياءه المقربين أيضًا ١٨١
كيفيّة زيارة الإمام المعصوم والمشاهد المشرّفة ١٨١
يجب أن يكون نفس عمل السالك سلوكًا ١٨٢
على السالك أن لا يحتسب الأعمال التي يؤديها للأصدقاء في اللَه ١٨٢
أوّل دستورٍ من دساتير الأولياء الإلهيّين لتلاميذهم هو صلاة الليل ١٨٣
لزوم زيارة الأولياء الإلهيّين والتوسل بهم والجديّة في العمل ١٨٤

فِهْرِسُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ ١٨٧

* * *

بسم اللـه الرحمن الرحيم

وبعد، فإنّ كتاب **سبيل الفلاح (مباني السير والسلوك إلى اللّه)**، يُعدّ من الآثار القيّمة لسماحة العلّامة آية اللّه الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ رضوان اللّه عليه، حيث قدّم فيه المباني الأساسيّة للسير والسلوك بطريقةٍ سهلةٍ وواضحةٍ ومُتسلسلةٍ، ويُمكن عدّ هذا الأثر واحدًا من أهمّ الآثار في مضمار العرفان والسير والسلوك.

ومن هنا، فقد بادرت لجنة ترجمة وتحقيق «**دورة علوم ومباني الإسلام والتشيّع**» بتعريب هذا الكتاب وتقديمه للقارئ العربي لتعمّ الفائدة منه.

وهنا نودّ أن نلفت عناية القارئ الكريم إلى بعض الملاحظات والتنبيهات حول عمل اللجنة في هذا الكتاب:

أوّلًا: إنّ أصل هذا الكتاب عبارةٌ عن تسجيلات صوتيّة باللغة الفارسيّة، تمّ تفريغها كنصٍّ مكتوبٍ، ثمّ قام نجل العلّامة سماحة آية اللّه السيّد محمّد محسن الطهراني رضوان اللّه عليه بمراجعة النصّ وتصحيحه وكتابة مقدّمة ليُطبع على هيئة كتابٍ مستقلٍّ تحت اسم «آيين رستگارى» واختار له اسم «سبيل الفلاح» بالعربيّة.

ثانيًا: إنّ جميع العناوين الموجودة داخل الكتاب هي من وضع اللجنة، وليست من قبل المؤلّف المحترم.

ثالثًا: بما أنّ أصل هذا الأثر تسجيلات صوتيّة، لذا فإنّ جميع التخريجات والإرجاعات إلى مصادر التحقيق هي من إعداد لجنة الترجمة والتحقيق بقسميها الفارسي والعربي.

رابعًا: عمدت اللجنة إلى إضافة بعض التوضيحات في الهامش في بعض المواطن التي تساعد القارئ الكريم على فهم المراد من النصّ، وقد أشـرنا إليها بالرمز (م).

وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

لجنة ترجمة وتحقيق
«دورة علوم ومباني الإسلام والتشيّع»

المُقَدِّمَةُ

بِسْمِ اللـهِ الرَحْمَنِ الرَحِيم

حمدًا وشكرًا مختصًّا بذات الحيّ الودود، الذي جعل كمال معرفة ذاته، غايةَ التكوين الآدمي، وشرّع المباني والأحكام على أساس تكوّن هذه الغاية، وصلاةً دائمةً أزليّةً على محمّدٍ المصطفى صلّى اللَه عليه وآله، وأهل بيته الطاهرين حاملي لواء هذا المذهب والمنهج والقادة نحو وادي التجرّد المقدّس وطور سيناءِ المعرفة، وعلى أوليائه وخواصِّ عتباته الذين كانوا على الدوام مشعلًا لمعرفة الحقّ والعرفان الإلهيّ من خلال استمرارهم في العمل بتعاليم الوحي المنيرة وإبرازهم لها وثباتهم عليها، والذين وضعوا على عاتقهم الأخذ بأيدي عباد اللَه وإرشادهم في عرصات الجهل والظلمة، وتحمّلوا أعباء رسالة التوحيد في مواجهة المنكرين والمعاندين وشياطين الإنس والجنّ، طلبًا لرضى المعبود.

حركة الإنسان من التعلّقات إلى عالم النور لا تتيسّر إلّا بوجود المُربّي

لمّا كانت حركة الإنسان مِن عالم التعلّقات ووساوس النفس وغلبة الأوهام والتخيّلات نحو عالم النور والبهاء والوحدة غير ميسّـرةٍ إلّا بتربية النفس وتهذيب الباطن والقلب؛ أرسل اللَه تعالى الرُسل وأنزل الكُتب على بني آدم، وإلّا فكيف يُمكن للإنسان المنغمس في الشهوات والكثرات المنطمس في الظلمة والجهالة والحيرة أن ينقل مقرّه من هذا المنزل إلى قصر النور والبهاء الذي يقع في النقطة المقابلة لحاله

وهواه؛ وكيف يمكنه أن يسحب نفسه مِن مخالب الظلمات والأوهام بيده هو، فيجعلها تتحرّك نحو عالم التوحيد بفكره المضطرب وعقله الناقص وقلبه المريض؟! هيهات!

ومع الالتفات لذلك، يحكم العقل بأنّ إطاعتهم ومتابعة أوامرهم ودساتيرهم، ليست فقط لا تجعلنا تحت سلطتهم وحكومتهم [بالإجبار والقهر]، بل لن يكون هناك أيّ تنافٍ أو تعارضٍ في ذلك مع الاختيار والحريّة أبدًا، ولا مع اختيار البشر لمسيرهم، وإذا ما أخذ الإنسان بعين الاعتبار موقعيّته ومستقبله الذي سيُقبِل عليه، وضعفه في المعرفة وفي تشخيص الواقع، وفي تحديد مصالحه، فإنّه سيبادر للقيام بهذا الأمر الخطير والحياتي الذي تتوقّف سعادة الإنسان وخسرانه الأبديان على الإقدام عليه أو الإحجام عنه.

منهج العرفان لا يتنافى مع الحريّة

وبالنظر إلى ما سبق، نقول بضرسٍ قاطعٍ: إنّ منهج العرفان ومعرفة حضرة الحقّ، لا أنّه يحفظ حقّ الاختيار وحَسْب لمَن يتّبع هذا المنهج ويلتزم به، في جميع عرصات الحياة ومراتب السير، بل هو أكثر مدرسةٍ ومنهجٍ يبعث على الطمأنينة، ويمنح السكينة والبهجة والسـرور، من بين المناهج التي يمكن تصوّرها في التعالي والارتقاء الروحي للبشر.

صفات منهج العرفان

إنّه المنهج الذي يخلو من السبّ والشتم، والتوهين والتهمة، والتضييق والضغط، والنفاق والازدواجيّة في التعامل، ووضع الأستار والأعذار، والتجسّس والتفحّص، وأخذ الناس بالحياء وإثقال كاهلهم، والكدورة والظلمة، والمعارضة للعقل والمنطق والعُرْف، ويخلو من سلب الاختيار وسلب الحريّة، والتعب والكسل، ويخلو من الندم والملامة، وهو طريقٌ يخلو من الضعف والإهمال، فجميع السالكين والتابعين فيه، يستمرّون في سيرهم وحركتهم بطيب الخاطر، وراحة الضمير، وطمأنينة القلب.

جهود العرفاء في وضع الخطّة والمنهج الحسن

من خلال طرح العرفاء الإلهيّين الخطّة والمنهج الحسن، ومن خلال بيانهم وتوضيحهم في أحاديثهم وكُتبهم للسُنَن المجرّبة التي وجدوها، ومن خلال ما تعرّضوا له من بيان لوازم هذه الحركة وضروريّاتها، فقد بيّنوا الفرق بين الطريق والحفرة، وبين المسير الصحيح والتيهان، وبين النور والظلمة، وبين وضوح الرؤية والجهالة، وبين الحقّ والباطل، بيّنوا كلّ ذلك وميّزوه لمن يبحث عنه، وذكروا في كُتبهم ومقالاتهم ورسائلهم النقاط الدقيقة الحياتيّة، والمواطن التي ينبغي على سالكي طريق اللَه أن يتّبعوها باهتمامٍ بليغٍ، ويمكن للإنسان أن يصل من طيّات المواضيع والآثار التي وصلت إلينا من الأولياء الإلهيّين ومربّي النفوس، إلى ضروريّات السير والسلوك إلى اللَه، وما يَحتاج إليه في هذا الطريق، كما ويمكن له أن يستفيد منها في المواطن الحسّاسة والحياتيّة والتي تمثّل مفتاحًا للأمور، وحلًّا في مواطن الحيرة والشكّ.

تتلمذ العلّامة الطهراني على يد عددٍ من العرفاء الشامخين في عصره

إنّ المرحوم العلّامة آية اللَه العظمى العارف الكامل والسالك الواصل الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني ـ رضوان اللَه عليه ـ من نوادر الأولياء الإلهيّين وعباده الصالحين، وقد طوى [أوّلًا] مراتب السلوك في محضر الأستاذ الأعظم والعارف الواصل سماحة العلّامة الطباطبائي ـ قدّس اللَه سرّه الشريف ـ ومن بعده في محضر المرحوم العارف باللَه وبأمر اللَه الحاجّ الشيخ محمّد جواد الأنصاري الهمداني ـ قدّس اللَه سرّه ـ ثمّ حطّ في آخر الأمر برحل إقامته واعتكافه عند العتبة المقدّسة والملكوتيّة لإنسان العين وعين الإنسان حضرة الحاجّ السيّد هاشم الحدّاد ـ روحي فداه ـ فوصل إلى المنزل المقصود، ووفد إلى حريم المعبود.

لقد قال المرحوم العلّامة الطهراني مِرارًا:

«حينما وصلتُ إلى محضر السيّد الحدّاد، عثرتُ على نفسي التائهة، ووجدتُ عنده جميع مطالبي ومراماتي وأمنياتي».

خصائص العلّامة الطهراني رضوان الله عليه

مع وجود الخصوصيّات المختصّة بالمرحوم العلّامة الطهراني من قبيل وُفورِه وثرائه العلميّ في الفنون المختلفة كالفقه والتفسير والفلسفة والعرفان النظري وغيرها، يمكن لنا أن نثبت أعلميّته على جميع أقرانه في المرجعيّة والفتوى، ولهذا السبب باعتقاد الحقير لم يُوجد في زمانه شخصٌ مماثلٌ له؛ وأمّا من جهة الحركة في السير للقرب من الحقّ والسلوك إلى اللَه، فقد كان السالك الوحيد والتلميذ الفريد لأساتذته، فهو مصداقٌ لما سمعتُه من المرحوم الحداد ـ رضوان اللَه عليه ـ عندما قال: «**لقد أعطيتُ والدك السيّد محمّد الحسين كلّ ما لديّ**».

جهود العلامة الطهراني في التبليغ

لقد هاجر المرحوم العلّامة الطهراني بدستورٍ من أستاذه المرحوم الحداد من «النجف» إلى «طهران»، وبذل همته في «مسجد القائم» في التبليغ والترويج والتبيين لمباني الشريعة الغراء والطريقة البيضاء، فاشتغل بإلقاء الخطب ومجالس الوعظ، وبالإرشاد، وبتنوير الأفكار والقلوب.

وبعد تحوّل النظام السياسي إلى النظام الجمهوري، غيّر المرحوم العلّامة الطهراني مكان إقامته بأمرٍ من أستاذه، فرحلَ إلى الأرض المقدّسة وعتبة الإمام ثامن الحجج عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام، وتوطّن هناك إلى آخر عمره، ولا يعرف إلّا اللَه ما حصّله هناك وعاد عليه من بركات أنوار الروضة المنوّرة.

قصّة محاضرات سبيل الفلاح

وبقي هناك إلى أن صار يتردّد على طهران بسبب تمزّق شبكيّة العين لديه، فصار يراجع طبيب العيون الحاذق رفيقنا الشفيق وأخونا العزيز جناب الدكتور السيّد حميد سجّادي وفّقه اللَه.

وقد أُسِر الدكتور سجّادي في لقائه الأوّل بأخلاق العلّامة الطهراني وسلوكه، وبعد أن أنجز عمليّة العين، طلب الاستمرار بالتواصل والارتباط مع هذا الرجل الإلهي، وفُتح له بابُ الملاقاة في مشهد وطهران، وكان المرحوم الوالد يذهب بين الحين والآخر إلى منزله في طهران، ويُلقي عليه المسائل الأخلاقيّة والمباني العرفانيّة والسلوكيّة، إلى أن تمّ الاتفاق في نهاية المطاف على أن يلقي سماحته على الدكتور سجّادي دورةً من المسائل والنقاط الضروريّة التي ينبغي مراعاتها في السلوك إلى اللَه ضمن عددٍ من الجلسات، وقد تمّ إلقاء هذه المحاضرات المهمّة وبيانها وتفسيرها ضمن خمس جلساتٍ.[1]

قيمة هذه المجموعة من الناحية السلوكيّة

وينبغي على الحقير أن يعترف بأنّه تمّت الإشارة في هذه الجلسات التي ألقاها المرحوم الوالد ـ رضوان اللَه عليه ـ إلى مجموعةٍ من النقاط الدقيقة التي أدّت إلى انبهار نفس الحقير وإعجابه، والحقّ أنّه ينبغي أن نأخذ هذه الجلسات بعنوانها دستورًا وسبيلًا للسلوك والفلاح، وعلينا أن ننظر جميعًا بتمعّنٍ ودقّةٍ وأن نبذل كلّ عنايتنا وتوجّهنا في فهم النقاط والشواخص والعلامات والمؤشّرات الواردة في هذه المباحث، وأن نجعل هذه المسائل والمواضيع التي طرحت فيها أساسًا وأصلًا لبرنامج حياتنا وسلوكنا إلى اللَه.

يمثّل الكتاب الموضوع أمام القارئ المحترم كلام وليٍّ من أولياء اللَه وإفاضاته، وعارفٍ كاملٍ، ومجتهدٍ أعلم، وفيلسوفٍ صاحب رأيٍ ونظرٍ، ومفسّرٍ قديرٍ، وناقدٍ بصيرٍ.

(١) من الجدير ذكره أنّ المرحوم العلاّمة ـ رضوان اللَه عليه ـ ألقى في أواخر عمره الشريف، في يوم الثالث من شوال سنة ١٤١١هـ بحثًا قيّماً حول مباني السير والسلوك إلى اللَه على مسامع أخلّائه الروحانيّين وأصدقائه الإيمانيّين، وهذا البحث يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه المجموعة من الجلسات، ولذا من أجل تتميم الفائدة، فقد أوردناها بعد انتهاء الجلسات الخمس التي ألقيت سنة ١٤٠٧ هـ. (م)

ويرى هذا العبد أنّ العنوان الأفضل والأنسب لتسمية هذا الكتاب هو «**سبيل الفلاح**»، وهو العنوان الذي اخترناه له.

نسأل اللَه عزّ وجلّ أن يمنح علوّ الدرجات لروح ذلك الفقيد السعيد المليئة بالفتوحات؛ وأن يمنح القرّاء الأعزّاء التوفيق والصلاح والسداد.

مشهد المقدّسة، الأوّل من ربيع الثاني ١٤٣٢ هـ
السيّد محمّد محسن الحسيني الطهراني

* * *

الجَلسَةُ الأُولى

هَدَفُ اللهِ تَعَالى وَغَايَتُهُ مِنَ خَلقِ الإنسَانِ

أَعُوذُ بِاللـهِ مِنَ الشَيْطَانِ الرَجِيْم
بِسْمِ اللـهِ الرَحْمَنِ الرَحِيْم
وَصَلّى اللـهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطَاهِرِيْن
وَلَعْنَةُ اللـه عَلى أَعْدَائِهِم أَجْمَعِيْن

بيانٌ إجماليٌّ للغاية والهدف من خلق الإنسان

إنّ الغاية والهدف من خلق الإنسان هو الوصول إلى مقام العبوديّة، بحيث يَعدّ الإنسان نفسه عبدًا مطلقًا للّه تعالى، ويتحرّك في صراط العبوديّة المُطلقة، وفي النتيجة فإنّ كلّ ما كان يراه في عالم الوجود على نحوٍ من الاستقلال، من الوجود والاستقلال والحياة والعلم والقدرة ...، مُسلِّمٌ بأجمعه للَه تعالى، فيعترف ويقرّ بأنّه للَه عزّ وجلّ؛ وأنّ كلّ الفقر والضعف والجهل والعدم هو من ناحية الإنسان نفسه، وأنّ الإنسان عبدٌ مطلقٌ للَه تعالى، سواء في مقام أصلِ الوجود أم في مقام العمل والتكليف كذلك؛ وهذا هو مقامُ «الإنسان الكامل» وهو أعلى درجةٍ يمنحها اللَه العليّ الأعلى للإنسان.

وجوب الحركة على الجميع

وينبغي على جميع الأفراد الذين يعيشون في الدنيا ممّن لهم مذهبٌ وشريعةٌ أيضًا كالأفراد العاديّين، أن يتحرّكوا ويصلوا إلى هذا المقام؛ فقد جاء الأنبياء ليدعوننا إلى هذا المقام، ونبيّنا صلّى اللَه عليه وآله دعانا إلى هذا المقام، وقُرآننا دعانا إلى هذا المقام؛ فإذا عملنا بالقرآن وبسنّة رسول اللَه والأئمّة الأطهار عليهم السلام بنحوٍ صحيح دون أن

نضيف أو نُنقص شيئًا من قبل أنفسنا، وإذا سرنا على صراط العبوديّة هذا، فسوف نصل إلى هذا المقام.

وأمّا سبب ما نشاهده من أنّ البعض قد بلغوا من العمر ستين أو سبعين أو ثمانين عامًا، ومع ذلك لم يصلوا بعدُ إلى هذا المقام، فهو يعود إلى أنّهم لم يعملوا. تجد أنّ لديهم معلوماتٍ اكتسبوها من القرآن والأخبار، إلّا أنّهم صرفوا علومهم في استجلاب الأمور الدنيويّة. ولا فرق في ذلك سواء كانت تلك الأمور مالًا أم جاهًا أم سُلطةً أم حُبًّا للرئاسة وأمثال ذلك؛ فقد جعلوا علم القرآن والتفسير والحديث والحِكمة وعلوم الشريعة فداءً لاكتساب حطام الدنيا، وحطام الدنيا يتجلّى للإنسان بهذه الصور أيضًا. وهذه الفائدة قليلةٌ جدّاً جدّاً، لأنّ الإنسان يكتسب هذه النتيجة الضئيلة جدّاً مِن رؤوس الأموال الضخمة تلك.

وقد ورد عندنا في القرآن الكريم: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ** ﴾[1].

أي: يا أيّها النبيّ! أعرض عن الأشخاص الذين أعرضوا عن ذكرنا ولم يخطوا خطوةً واحدةً أعلى من الحياة الدنيّة، حياة الشهوات والإحساسات والرغبات، ولم يعتقدوا بوجود حياةٍ أخرى سوى هذه الحياة السافلة ولم يريدوا غيرها؛ فكان غاية ما بلغوه من الناحية العلميّة هو أن يتمتّعوا بالحياة الدنيا من خلال علمهم. أعرض عن هؤلاء! فهؤلاء لا ينفعونك.

تلك هي الحياة العليا، فالحياة العليا تعني: الحياة السامية؛ والحياة الدنيا تُسمّى دُنيا بمعنى الدنيئة، أمّا الحياة العُليا فمعناها الحياة العالية الرفيعة؛ وهي حياة العلم، حياة التقوى، حياة العبوديّة، حياة الصدق، حياة الورع، حياة الإيثار وتجاوز النفس، حياة

(١) سورة النجم (٥٣)، الآية ٢٩، وصدر الآية ٣٠.

الوجدان والعاطفة، حياة العبوديّة والسير على صراط الحضرة الأحديّة، حياة سَحقِ رغبات النفس الأمّارة، فهذه الحياة، هي الحياة العليا.

يجب أن تكون حركتنا طبقًا للشريعة الإسلاميّة

إذن، يجب علينا أن نسير في هذا المَمشى كي نصل إلى الدين والشريعة، ونتعرّف على حقيقة الدين ونحقّق في أنفسنا هدف بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية، ونحقّق إرادة اللَه تعالى التكوينيّة والتشريعيّة من إيجادنا، ونسير على صراط الرشد والرفعة لا على صراط الضلال والغيّ والجهل ورغبات النفس الأمّارة ومشتهياتها؛ فإذا عملنا بغير ما ورد في كتاب اللَه وسنّة النبيّ والأئمّة عليهم السلام، فلا فائدة أصلًا، فالفائدة تكمن فيما لديهم، وإذا تخطّى شخصٌ هذا المَمشى ولو بمقدار رأس الإبرة، فقد اشتبه وأخطأ.

نحن نعتقد أنّ أعلى مربٍّ ومعلّمٍ للبشريّة هو الرسول ـصلّى اللَه عليه وآلهـ وأمير المؤمنين وأبناؤه عليهم السلام، ونعتقد بأنّنا إذا تعاطينا مع تلك المسائل التي وصلتْ إلينا من القرآن ومن تعاليمهم عليهم السلام، واتخذناها سنّةً ومنهاجًا لأنفسنا [فسوف توصلنا إلى الصراط المستقيم]، ولو كان ثمّة شيءٌ أفضل لذهبنا إليه، ولكن ليس هناك ما هو أفضل، وبعد التحقيق فإنّ الطريق الذي سلكوه هو أشرف الطرق وأشدّها نورًا وأقلّها خطورةً، وهو الصراط المستقيم نحو المقصد، والصراط المستقيم واحدٌ لا أكثر؛ فلا يمكن أن نَخطَّ بين نقطتين أكثر من خطٍّ مستقيمٍ واحدٍ.

﴿**ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ**﴾[1] أو ﴿**وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا * وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا**﴾[2] فيجب علينا أن نتحرّك كي نصل.

(١) سورة الفاتحة (١)، الآية ٦ و صدر الآية ٧.
(٢) سورة النساء (٤)، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

الخطوات الأولى بعد اليقظة

١- أن نعرف من نكون

بعد التنبّه والتيقّظ، فأوّل شيءٍ يجب القيام به في هذا الطريق هو أن نرجع لأنفسنا لنرى من نكون؟ ما حقيقتنا؟ نعم، نحن إنسان! ننهض في الصباح من النوم، ونبقى نكدّ ونقوم بالنشاطات إلى الليل، ثمّ ننام مرّةً أخرى، ثمّ نكرّر ذلك في الغد وبعد الغد، وهكذا تمرّ الأيّام، وكلّ واحدٍ من أفراد بني آدم مشغولٌ بعملٍ من الأعمال، وغير ملتفتٍ لماذا يقوم بكلّ هذه الأعمال؟ لماذا أتى؟ وما الهدف والغاية من ذلك؟ لماذا انقضى يومه؟ إنّ هذا اليوم من رأس مال العمر، والذي وهبه اللَه له، فلماذا انقضى؟ وماذا حصّل مقابل انقضاء هذا اليوم؟ فإن كان قد اكتسب شيئًا فهنيئًا له ولسعادته! لأنّه انقضى يومٌ من عمره واكتسب في مقابله شيئًا، وإن لم يكتسب شيئًا فهو مغبون، يقول رسول اللَه صلى اللَه عليه وآله: «**مَن استَوَى يَومَاهُ فَهُوَ مَغبونٌ**»[١] لأنّه قد انقضى يومٌ من العمر، ولا أحد يعلم إلّا اللَه عزّ وجلّ ما هي الأدوات التي عَمِلت من أجل أن يُعمّر الإنسان هذا اليوم الواحد.

ابر وباد ومه وخورشيد وفلك در كارند تا تو نانى به كف آرى و به غفلت نخورى

همه از بهر تو سرگشته و فرمانبردار شرط انصاف نباشد كه تو فرمان نبرى[٢]

[يقول: ١- إنّ السّحاب والرياح والقمر والشمس والفلك تعمل وتكدّ، حتّى تحصل أيّها الإنسان على خبزك ورزقك فلا تأكله وأنت غافل.
٢- هي كلّها منقادةٌ ومطيعةٌ من أجلك، فليس من الإنصاف أن لا تنقاد أنت وتطيع أوامر اللَه].

لكي يتحقّق أيّ يومٍ من أيّام حياتنا، فإنّه يتوقّف في تحقّقه على حصول حركة الشمس والقمر والمجرّات، إذن جميع ذرّات الأشجار والحيوانات في العالم وموجودات العالم كلّها

(١) ***وسائل الشيعة***، ج ١٦، ص ٩٤.
(٢) ديوان ***كلستان سعدي***، الديباجة، البيت ٦ و٧.

مرتبطةٌ ببعضها البعض، وهي تشكّل وجودًا واحدًا، وهي بأجمعها تُؤثّر في حياة هذا اليوم للإنسان؛ بحيث لو نزعنا هذا اليوم من أيّام الحياة من سلسلة العلل والمعلولات؛ لانهارت بأجمعها. إذن فكلّ هذه الموجودات هي من أجل أن نعيش يومًا واحدًا، وأن نتقدّم يومًا واحدًا، وليكون لدينا يومًا واحدًا لنرفع فيه حُجُب الغفلة عن أبصارنا، فإذا ارتفع الحجاب فسوف نعرف خالقنا ومسيرنا وهدفنا ومبدأنا ومعادنا.

فإذا كان الأمر بهذا النحو، سوف نكون هادئين وساكنين وصامتين ومسرورين ممتلئين بالنفع والنور، مع حيويّةٍ ونشاطٍ كاملين، كالتلميذ الذي نجح في الامتحان، فصار مرفوع الرأس وصار التلميذ الأوّل، وشهادته بيده، وليس لديه أيّ غمٍّ، فقد نجح! ولكن، إذا أمضى عمره في الغفلة ـ لا قدّر اللَه ـ وحَلّت ليلة الامتحان وأراد الإنسان أن يُنجز عمل سنةٍ كاملةٍ في ليلةٍ واحدةٍ، ثمّ راح في الغد يلتمس من هذا التلميذ ومن ذاك، ويقول: يا فلان لا تنساني وساعدني، فجميع ذلك يؤدّي إلى الذلّ والخجل.

٢- أن نعرف طريقنا وغايتنا وقيمة هذا الطريق

إنّ أوّل ما ينبغي علينا فعله في هذا الطريق هو السير والحركة وأن نعلم بأنّ هذا هو طريقُ اللَه؛ وأنّنا مسافرون ولدينا هدفٌ وغايةٌ؛ وأمّا وسيلةُ سفرنا فهي نَفسُنا، وأمّا غايتنا فهي اللَه، وعلينا أن نعلم بأنّ الطريق الذي نريد قطعه ليس طريقًا صحراويًّا ولا قمّة جبلٍ، وإنّما هو عبورٌ عن صفات النفس، يعني: يجب علينا أن نُغيّر هذه الصفات، فنستبدل الصفات الإيجابيّة بالصفات السلبيّة، ونستبدل الصفات السيّئة بصفاتٍ حسنةً، ونرفع الحُجب، ونزيد من النور والإدراك يومًا بعد يومٍ، ونوصل أنفسنا من التقيُّد والتقييد ومن محدوديّة عالم المادّة والتعلّقات إلى عالم المجرّدات وعالم النور، وأن نقترب من هناك. هذا الأمر هو عبارةٌ عن الحركة في النفس، وغايتنا منها هي اللَه.

إنّ المسافر يحتاج إلى زادٍ وراحلةٍ؛ وزادنا هو التوكّل على اللَه، وراحلتنا هي الاستعانة باللَه والعمل بالقرآن وسنّة النبيّ ومنهج الأئمّة عليهم السلام، وجميع هذه الأمور هي زاد الطريق؛ فيجب أن نأخذها معنا، ثمّ نسير ونُسافر ونصل إلى غايتنا.

هذا الطريق، يستحقّ أن يُمشى فيه، هذا هو الطريق الذي سلكوه، ويجب على الإنسان أن لا يقول: أنا كذا وكذا، وليس لديّ القابليّة، جميع هذا مجرّد لغوٍ؛ فهل يأتي الإنسان بالقابليّة من منزل والده؟! بل جميع هذه الأمور كانت بيد اللَه، وكانت بعنايةٍ منه، منحها، وسيمنحها مُجدّدًا. فليس بين اللَه وبيننا عداوة، وليس لديه معنا سابقةُ سوءٍ، لقد أوجدنا في عالم الوجود برحمته، ونحن نمضي نحو رحمة اللَه، نسير نحو رحمة اللَه؛ فبعد أن خلق اللَه الإنسان ضمن تلك السلسلة الطوليّة، وطوى المسافات من النطفة والحالات المختلفة للجنين حتّى صار في الدنيا، فما معنى أن يُهمل اللَه هذا الإنسان في الأمور الجزئيّة جدّاً، ولا يعتني به؟! ويقول: أريد أن أسخر منك! أريد أن أعاندك أيّها الإنسان! أستغفر اللَه! لو أنّ إنسانًا قام بهذا العمل مع إنسانٍ آخر، لعَابَ عليه فعله.

إذن، فاللَه خيرٌ محضٌ ورحمةٌ محضةٌ، وقد دعانا إلى الخير المحض والرحمة المحضة. كلّما وجدنا أنّ رأينا مخالفٌ لذلك، فذلك ليس من اللَه؛ بل علينا أن نبحث عن ذلك في أنفسنا وأن نُصلحه؛ لأنّ رأينا خاطئ، وإلّا فإنّ اللَه خيرٌ محضٌ.

نتائج السير والسلوك والحركة

١- الوصول

وإن شاء اللَه، عندما نسير سوف نصل، وعندها سنرى أنّه يا للعجب، اتضح أنّ ما قالوه لنا صحيحٌ! وكلّ ما ذكروه من وصف الجنّة والحور العين و﴿**جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ**﴾[1] ـ يا للعجب! ـ تبيّن أنّه صحيحٌ! ومثلما ذُكر لدينا في القرآن المجيد مِن أنّ أهل الجنّة يقولون لأهل النار: ﴿**قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا**﴾[2].

(١) سورة البقرة (٢)، مقطعٌ من الآية ٢٥.
(٢) سورة الأعراف (٧)، مقطع من الآية ٤٤.

٢- نزع الغلّ والكدورة الباطنيّة وحلول الرحمة

وكذلك يقول عزّ وجلّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[١]، والغلّ هو ما يُطلق على القذارة، مثلًا: السُكّر عندما يُريدون إذابته ليصنعوا منه مُحلّي، يكون عليه في البداية مقدار من القذارة، فيجب عليهم أن يُضيفوا إليه مادّةً معيّنةً، وحينما يضيفوا تلك المادّة فإنّها تمتصّ جميع الشوائب والقذارات، فيصبح نظيفًا صافيًا طيّبًا طاهرًا، وكذلك ينزع اللَه من قلوب المؤمنين كلّ غلٍّ وظلمةٍ وكدورةٍ.

ثمّ قليلًا قليلًا يصل الإنسان إلى مرتبةٍ بحيث ينظر إلى جميع أهل العالم ـ حتّى الكفّار والأشقياء ـ نظرة محبّةٍ وعطفٍ، ويُشفق عليهم.. يُشفق على الكفّار، ويقول: يا اللَه اهدِ هذا الفرد! هو كافرٌ، ومع ذلك قم بهدايته. يبذل جهده من أجل هدايتهم، ويبذل جهده كي يُصبحوا مسلمين، فقد كان النبيّ ـ صلّى اللَه عليه وآله وسلّم ـ يُقاتلهم وكان يُقتَل من أمّته ويَقتُل مِنهم من أجل أن يُصبحوا مسلمين، كي يجدوا الطريق ويسيروا فيه. [ففي تلك المرتبة] يصبح لدى الإنسان نظرة رحمةٍ واسعةٍ تجاه جميع الخلائق، يتمنّى الخير لهم جميعاً، ويرجو أن يصل كلّ واحدٍ منهم حسب درجته ومرتبته، فهو يحبّ أن يطوي الجميع الصراط المستقيم، صراط الإنسانيّة وصراط الإسلام، وأن يصلوا إلى اللَه وإلى الغاية، وأن يمشوا الممشى الصحيح. فلم يعد هناك في تلك النفوس أيّ غلٍّ أو حسدٍ أو كِبرٍ أو تشويشٍ أو غشٍ أو قلقٍ.

حينما كنّا راقدين في المستشفى، كانوا يحضرون أحيانًا وجبة الغداء، ومعها المناديل الورقيّة. كنّا نقتطع قسمًا من تلك المناديل الورقيّة، ونضعها أمامنا، فهذه كانت سُفرتنا، نفرشها هناك ونضع الطعام ونتناول منه لقمةً، مرّةً حلّ وقت الطعام، فقلتُ: يا سيّد محسن[٢]، أحضر هذه السفرة! أقسِم بروحك إنّ رئيس أمريكا لا يمتلك

(١) سورة الحِجر (١٥)، الآية ٤٧.

(٢) المقصود هو نجله سماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الحسيني الطهراني رضوان اللَه عليه، حيث كان يُجلس معه في المستشفى آنذاك. (م)

مثلها، هذه السفرة التي اقتطعناها [من المناديل الورقيّة]، ووضعناها هنا من أجلنا، ثمّ وضعنا هذا الطعام فوقها، وقد جلستَ أنتَ هنا بكامل الصفاء والوفاء والحُسن، بهذا القلب الفرح الخالي من الغمّ والغصّة. أقسم باللَه إنّ رؤساء جمهوريّات الدنيا لا يملكون مثلها! يعني: هم لا يستطيعون أن يفرشوا سفرةً دون أن يكونوا مشغولي البال.

إذن، إذا كان الإنسان عاقلًا، وأراد أن يمتلك الدنيا فلا عيب في ذلك، إلّا أنّ طريقهم خاطئ؛ لأنّهم وبسبب سعيهم نحو الدنيا، فإنّهم يسيرون نحو العذاب ونحو جهنّم، إنّهم يسيرون نحو الانزعاج وعدم الراحة.

إنّ الإنسان لا يمشي في طريقٍ إلّا من أجل أن يرتاح باله، وعندما يرى أنّ ذلك الطريق يكدّر صفوه، فإنّه سينام ليلته منزعجًا، وسيستيقظ منزعجًا؛ تجده يرسم ألف خطّةٍ ماكرةٍ لكي يهزم الطرف الآخر، فأيّ حياةٍ هذه؟! وأيّ دنيا هي؟! حتّى لو كان قصره من الذهب وقد رفعه إلى عنان السماء! فأيّهما أفضل للإنسان، أن يكون لديه كأسٌ من الخشب تحتوي على ماءٍ باردٍ زلال، أم كأسٌ من الذهب تحتوي على دمٍّ يتقيّؤه؟ فرؤساء الجمهوريّات والسلاطين الذين يتقيّؤون الدماء ويموتون، ألم يتقيّؤوا تلك الدماء في الكؤوس الذهبيّة؟! والآن دعنا ننظر أيّهما أفضل: ذلك المسكين ذو الحظّ القليل الذي يعيش في القرية وهو مسلمٌ مؤمنٌ ويمتلك كأسًا خشبيّةً، يشرب وزوجته وأطفاله ماءً باردًا عذبًا، ويقول: الحمد للَّه، أم ذاك [الرئيس]؟! أقسم باللَه إنّ عبيد الدنيا مخطئون جميعًا! جميعًا!

اهـــل دنيـــا از كهـــين و از مهـــين لعنـــــةُ اللَه علـــــيهم أجمعـــــين[1]

[يقول: ألا لعنة اللَه على أهل الدنيا أجمعين صغيرهم وكبيرهم].

وهذا القيد (أي: أهل الدنيا) وُضع في قبال حياة الأولياء؛ يعني: غير أهل اللَه من الصغير والكبير، ولعنة اللَه، تعني: الإبعاد، أي: فليحلّ عليهم الابتعاد عن اللَه، وليُصبحوا أسرى لهذه الحياة الدنيا، ولكي تزول هذه اللعنة؛ عليهم أن يرفعوا الحجاب

(١) من أشعارٍ منسوبةٍ إلى مولانا جلال الدين الرومي.

والستار عن أنفسهم من خلال المجاهدة، وأن يسيروا جميعًا من خلال توفيقات اللَه، ويأتوا إلى هذا السبيل، ويقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

إنّ الحمد مختصٌّ بذلك الإله الذي جعلنا في هذه الدار؛ دار المقامة، في مكان الاستقرار هذا، في هذا المقام المكين والمقام الأمين، وقد أعطانا ذلك من فضله، فما هو هذا المكان؟ هنا حيث لا نصَب، لا تعب، لا قلق ولا انزعاج فكر؛ هنا عالم الأمن، عالم الأمان، عالم السلام، هنا حيث توجد أسماء اللَه الحُسنى، ويقع اسم السلام.. السلام..﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾. لا وجود هنا لأيّ شيءٍ من تلك المتاعب، هذا هو مقام الإنسان الذي سعى ليبلغه، وهذا المقام لمن طوى هذا الطريق في الدنيا.

إذا نام الإنسان في الدنيا، وقال: سوف أصل إلى المقامات في الآخرة، فقد أخطأ واشتبه. إنّ الدنيا هي عالم العَمل، فمثلًا لو أنّ طالبًا يدرس في كلّية الطبّ، فواجبه أن يجدّ ويجتهد هناك، ولكنّه لو قال: حينما أحصل على الدبلوم عندها سوف أجتهد وأدرس، فهذا خطأ، إذ عليه أن يجتهد ويدرس في حينه، وفي المقابل لو أنّه جدَّ واجتهد ودرس، فحتّى لو لم يمنحوه شهادة الدبلوم، إلّا أنّه مع ذلك يكون قد امتلك علمًا ورأس مالٍ، وأينما ذهب في الدنيا فهو يمتلك رأس مالٍ وعِلمًا. وأمّا إذا لم يكن قد درس، فلن ينفعه ألف دبلومٍ، وقيمة شهادته قيمة الورق البالي، ويجب أن يكون مكانه الدكّان، يقف على رجليه ويبيع المثلّجات! إذ لا فائدة في ذلك.

الدنيا هي دار الحركة والمعين على الحركة هو الله دون النفس

الدنيا هي محلّ العمل، وقد أوجدنا اللَه لكي نبقى متيقّظين ومُبصرين، ولنسير إليه بنحوٍ صحيحٍ، فجميع تلك المقامات التي شُرّعت في القرآن المجيد، وأكرمنا بها

(١) سورة فاطر (٣٥)، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

وبُيّنت لنا، هي للأشخاص الذين يعملون في الدنيا، «**اليَوم عَمَلٌ ولا حِساب وغَدًا حِسابٌ ولا عَمَل**»[1].

إنّ فائدة كلّ عملٍ نقوم به ونتيجته تكمن في نفس ذلك العمل؛ فكلّ كلمة «اللَه» نقولها بإخلاص، سوف تتضمن هذه «اللَه» التي لنا، «لبّيكَ» من اللَه في داخلها، وكلّ خطوةٍ نخطوها نحوه سبحانه وتعالى، نتيجتها تكمن وتنطوي في نفس هذا العمل.

حسنًا! فهل نريد أن نسير نحو اللَه؟! بعد أن نبّهنا اللَه؟! وبعد أن منحنا الفكر؟! وبعد أن فتح أعيننا؟! فرأينا أنّه يا للعجب! طلعت الشمس، ورحلت القافلة، أمّا نحن فبقينا هنا! لقد نِمنا كلّ الليل إلى الصبح، وا ويلاه! لقد كانت تلك هي قافلتنا! ذهبت، ولعلّها وصلت الآن؛ لماذا طلعت الشمس؟! الآن تناجي اللَّه: يا اللَه! ماذا أفعل هنا؟ لقد طلعت الشمس! يا إلهي، إنّي غريبٌ في هذه الصحراء، وحيدٌ لا أحد معي، ولا أعرف أيّ مكان! أرجو أن تُداوي ألمي! يا إلهي! أنا أتوكّل عليك، وأضع كلّ حملي عندك، وأفوّض أمري إليك، لقد تخلّفت عن الركب، فخُذ بيدي!

إنّ هذا العالم هو عالم اليقظة والتنبّه.

إنّ اللَه يمدّه ويستجيب له: بما أنّك استيقظت وفتحت عينيك الآن، وانتبهت من غفلتك، فانظر كم تخلّفت عن الركب! لقد كُنتَ نائمًا من الليل حتّى الصباح، عليك أن تتدارك ذلك! عليك أن لا تنام وتغفل مرّةً أخرى! هنا صحراء، وفيها آفاتٌ وسباعٌ ولصوصٌ، يجب أن تنطلق وتتحرّك! فيمضي بالمدد الإلهي ويتحرّك، ويبكي ويُنيب، ويعود إلى اللَه بِمقدار ما غفل ونام؛ فالتوبة تعني الرجوع والعودة.

ينظر إلى تلك السيّئات التي التفتَ لها، فيُطالعها ويرجع، ويقول: إلهي! أنا أعترف الآن بخطئي، وأنتَ إلهي، أنتَ ربّي، أنتَ مولايَ، أنتَ سيّدي؛ سأكون مخطئًا من الآن فصاعدًا لو أنّي اعتمدتُ على نفسي، سوف أعتمد عليك؛ فالاعتماد على اللَه.

(١) ***نهج البلاغة*** (عبده)، ج ١، ص ٩٣، الخطبة ٤٢.

ليس هناك أيّ موضعٍ من القرآن يذكر بأنّ الثقة تكون بالنفس، وأنا لا أعرف من أين أتت كلمة الثقة بالنفس؟! لماذا تكون ثقة الإنسان بالنفس؟ إنّ القرآن الكريم يقول: ثق باللَه! اجعل نفسك تحت أرجلك! اجعل هذه النفس فداءً للَّه عزّ وجلّ! إنّ الثقة بالنفس تُقابل الثقة باللَه، فهذه الثقة ثقةٌ بالصنم في قبال الحقيقة. فتلك النفس التي تكون نورانيّةً والتي تُمثّل آيةً للَّه، إذا وثق بها، فهذه الثقة هي ثقة باللَه؛ أمّا تلك النفس التي لم تتجاوز مراحل الإخلاص، وهي محجوبةٌ خلف ألف حجابٍ وحاجزٍ، إذا وثق بهذه النفس، فقد وثق بألف جهنّم! وما فائدة هذه الثقة بالنسبة له؟!

ولذلك ليس لدينا في القرآن المجيد (ثقةٌ بالنفس) أصلًا، بل ثقةٌ باللَه:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[2].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[3].

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[4].

ومعنى جميع هذه الآيات هو أنّه: يا أيها النبيّ! أعطِ قلبك للَّه، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[5]، اقطعه عن كلّ العالم وصِل نفسك باللَه. انقطع إلى اللَه، واجعل عملك كلّه للَّه! هذا ما يجعل الإنسان يتحرّك.

---

(١) سورة النساء (٤)، مقطع من الآية ٨١؛ وسورة الأنفال (٨)، مقطع من الآية ٣ ؛ وسورة الأحزاب (٣٣)، صدر الآية ٣، ومقطع من الآية ٤٨.

(٢) سورة الفرقان (٢٥)، صدر الآية ٥٨.

(٣) سورة الإسراء (١٧)، الآية ١١١.

(٤) سورة هود (١١)، صدر الآية ١١٢.

(٥) سورة المزّمّل (٧٣)، ذيل الآية ٨

بعض موانع الحركة

إنّ أفراد البشر يستمرّون إلى آخر العمر في مسائل من قبيل: ماذا أفعل؟ نقص مالي، جاري خدش جداري، وضعي المالي أصبح كذا، فلانٌ أساء لي بالقول، أخت زوجتي قالت لي: كذا، شريكي قال لي: كذا، أنا لن أذهب إلى هناك ردّاً على ما قاله لي، أنا لن أجيبه؛ لأنّه في المرّة الفلانية لم يُجب على سلامي...، فهم عالقون في هذا النوع من الكلام، ومسجونون في هذه الأفكار، وسيموتون في نفس هذه الأفكار؛ لأنّ قبر الإنسان هو أفكاره. إنّ القبر الذي يأخذوننا إليه ويضعوننا فيه، ليس قبرنا، بل هو قبرُ البدن، فبدننا كان من تراب، وسيعود إلى التراب؛ أمّا نفسنا، فسوف تبقى في تلك الدرجة من العلوّ التي بلغت إليها [عند الوفاة]؛ فإن كانت نفسنا مُلوّثةً، فلن يأخذوننا إلى روحانيّة النفس؛ قبرنا هو نفس أفكارنا، قبرنا هو نفس خيالاتنا، قبرنا هو نفس هذه الأنا والأنت، فعلينا أن نتجاوز الأنا والأنت، وأن نجعلها فداءً للّه، فإنّ ذلك العالم الذي سيضع اللهَ الإنسان فيه، يتناسب مع حقيقةٍ من الحقائق، وهي تلك الحقيقة التي ينطوي عليها الإنسان عند الموت.

لأمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ عبارةٌ عجيبةٌ جدّاً، يقول فيها: «**قِيْمَةُ كُلِّ امرِئٍ مَا يُحْسِنُه**»[1]، عجيبةٌ جدّاً! فقيمة كلّ شخصٍ هي الأمر الذي ثبت الشخص عليه وقام على أساسه وغلب عليه، فإن كان قدر شخصٍ وقيمته هي الدنيا، وكان قد قضى عمره بأجمعه من أجل الدنيا، فهي قدره وقيمته. أمّا لو كان الإنسان يقول: إنّ اللهَ يقول هكذا: افعل هذا العمل! فيستجيب: سمعًا وطاعةً. فعندما يقوم بهذا العمل، سيكون لهذا الأمر مقامٌ عالٍ جدّاً جدّاً، لا يُمكن أن يُقاس، ولا يقبل المعاوضة، فالإنسان لا يستطيع أن يعاوضه حتّى بالدنيا والآخرة، إنّ لحظةً واحدةً من تلك اللحظات تعادل جميع لذّات أهل الدنيا.

---

(١) ***نهج البلاغة*** (عبده)، ج ٤، ص ١٥٤، الكلمات القصار ٨١.

عند الوصول نشاهد نتائج سيرنا وحركتنا

حينها ستصبح الأخبار التي قالها الأئمّة ـ عليهم السلام ـ واضحةً كالشمس، تلك الأخبار التي رواها لنا الإمام الصادق والإمام الرضا عليهما السلام، والتي ذُكرت في *علل الشرائع* و *عيون أخبار الرضا*، وهي أخبارٌ عجيبةٌ! وقد كنّا نظنّ حتّى الآن أنّها أساطير أو توقّعات أو رسائل للترغيب وأنّها مخالفةٌ للحقيقة، وُضعت لترغيب الإنسان بالمعارف والإلهيّات والروحانيّات، أو أنّها مُنفّرات لكي نرتدع عن بعض الأعمال. لا! هي عين الواقع وعين الحقيقة. بل إنّ ذلك المقدار الذي أفصح عنه هؤلاء العظماء، ليس إلّا نموذجًا وإشارةً؛ أمّا ما سيراه الإنسان بنفسه، فهو أكثر ممّا ذُكر، والرؤية ليست كالحكاية والسماع.

لو أنّك قلتَ للطفل ذي السنوات الأربع: للنكاح لذّةٌ، للنكاح حلاوةٌ، فماذا سيفهم؟ فلو أنّه ضغط على نفسه بشدّةٍ، فأقصى ما سيتخيّله أنّه مثل الحلوى، فهو لن يفهم أكثر من ذلك، ولكن حينما يصل إلى سنّ البلوغ، ويستيقظ ذلك الحسّ داخل الإنسان، حينها لن يقول: حلو، بل سيلمس ذلك ويُحسّ به ويعرفه.

كذلك هي الآخرة، طالما أنّنا لم نطوِ تلك الدرجات والمقامات ولم نرها، فإنّنا نتخيّل بأنّ الأنبياء يُخبروننا عنها من مكانٍ بعيدٍ؛ ولكن عندما نذهب ونرى أنّ الأمر مطابقٌ لما قالوه، فسنقول: يا للعجب! شكر اللَه مساعيهم. فقد أرشد الأنبياء الإنسان ووضعوا الحقيقة بين يديه، جعلوه يلمسها؛ جعلوا الجنّة والنار ملموسين ومحسوسين، فخرج الأمر عن دائرة التصوّر والتفكّر، لقد جعلوا الإنسان يدخل؛ عندها سنقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾[1]. وعندها سنرفع الصلوات، اللهمّ صلِّ على محمّد وآل محمّد.

(١) سورة فاطر (٣٥)، مقطع من الآية ٣٤.

الجهود العظيمة التي بذلها الأنبياء والأئمّة ليبيّنوا لنا الحقيقة

كم كانوا عظماء! وكم أجهدوا أنفسهم من أجلنا! إنّ ذلك الكسر الذي حصل في منزل السيّدة الزهراء سلام الله عليها، وإسقاط جنينها ـ الذي لا شكّ ولا شبهة فيه أبدًا ـ كان من أجلنا، إنّهم تكلّفوا العناء إلى هذا الحدّ من أجلنا! إلى الحدّ الذي قدّموا فيه حضرة عليٍّ الأكبر!

معركة بدر نموذجًا

لقد أَسَرَ رسولُ الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ في معركة بدر سبعين شخصًا، فقُيّدوا بالحبال وجُرّوا إلى المدينة المنوّرة، وكان من بينهم العبّاس عمّ النبيّ؛ وكان قد تكفّل بمصاريف يومٍ كاملٍ من مصاريف معركة بدر [لصالح مشركي قريش]، فهم كانوا قد تقاسموا مصاريف الحرب. وفي الليل كانوا قد قيّدوه كي لا يفرّ، وبات العبّاس يئنّ وينوح، فلم يتمكّن النبيّ تلك الليلة من النوم إلى الصباح.

فقالوا: يا رسول الله، لِمَاذا لم تنم؟ قال: أنين عمي العباس منعني من النوم. قالوا: أعطِ أمرًا لكي يفكّوا أسره! قال: وهل أنا الذي أمرتُ بأسره؟ إنّه أمر الله، وهذا ليس من شأني، فلا فرق بين العبّاس وغيره من الأسرى، فجميعهم أسروا، ويجب أن يبقوا على هذا الوضع.

لقد جاء النبيّ ومرّ من أمام أولئك الأسرى ـ ومحلّ الشاهد هنا ـ فتبسّم ومضى، كانوا سبعين شخصًا، فقال أحدهم: انظر، إنّهم يقولون: «محمّدٌ رحمةٌ للعالمين» ولكنّه الآن ينظر إلينا ونحن في الأغلال والسلاسل فيتبسّم!

فوقف النبيّ وقال: أنا سعيدٌ؛ لأنّ الله أمرني أن أقود الناس إلى الجنّة ولو بالسلاسل والأغلال.[1]

---

(١) لمزيدٍ من الاطلاع على هذه القصّة، راجع: ***ولاية الفقيه في حكومة الإسلام***، ج١، ص ١٥٧؛ وراجع أيضًا: ***نور ملكوت القرآن***، ج٣، ص ٤٤. (م)

ففي نهاية المطاف لكلّ نبيٍّ مهمّةٌ؛ فيُقال لأحدهم: اذهب وبلّغ! سواء سمعوا لك أم لم يسمعوا. ويُقال لآخر: اذهب وبلّغ! واضغط عليهم أيضًا! ويقال لواحدٍ آخر: اذهب وبلّغ! واضغط عليهم، واضربهم أيضًا مثلًا! ويُقال لأحدهم: قم واذهب وعرّض نفسك للقتل والجراح واحمل جميع أرحامك وعشيرتك وخذهم معك في معركةٍ من قبيل معركة بدر! تلك المعركة التي كانت من أصعب وأهمّ المعارك التي جَرَت على النبيّ والمسلمين. في تلك المعركة كان للنبيّ ابن عمٍّ، وكان من أعاظم الأصحاب، وكان يُوازي أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ والحمزة، وقد قطعت رجله فاستشهد في طريق العودة من بدر إلى المدينة المنوّرة. كلّ هذا من أجل أن يُسلم المشركون. قم بجميع ذلك وقُل للمشركين: يا سادة تعالوا أنتم أيضًا وادخلوا في الإسلام! وامتنعوا عن القيام بهذه الأفعال [القبيحة]!

قال النبيّ: أنا إنّما تبسّمتُ؛ لأنّ مأموريّتي ومهمّتي هي أن أسوقكم إلى الجنّة ولو بالسلاسل والأغلال. إنّ الإنسان يجب أن يسوق بعض الناس ـ الذين لا يتوجّهون بأنفسهم إلى الجنّة ـ بالسلاسل والأغلال المعلّقة على ظهورهم ويجرّهم إليها.

[وبقي الأسرى على هذه الحالة] إلى أن نزلتْ آيةٌ على النبيّ من قبل اللَه بأنّه أنتم مخيّرون؛ إن أردتم فيُمكنكم أن تُحرّروهم، وإن أردتم فيُمكنكم أن تضربوا أعناقهم جميعًا. جميع هؤلاء ـ السبعون شخصًا ـ كانوا من وجوه أهلِ الشرّ والفساد منذ القِدم، فإن قطعتم رقابهم الآن، فلا بأس بذلك، وأمّا إذا أطلقتم سراحهم وأخذتم الفدية (أي: أخذتم عوضًا عن دمائهم) فيُمكنكم أن تعدّوا التجهيزات والسيوف والأحصنة بأموال تلك الفدية (والتي ستكون وافرةً) وتُشكّلوا جيشًا لكم؛ ولكن بعد مرور عامٍ ستندلع معركةٌ جديدةٌ، وسوف يُقتلُ منكم بعدد هؤلاء الأسرى الذين ستُحرّرونهم بالفداء وكانت تلك المعركة هي معركة أحد التي قُتل فيها سبعون رجلًا. لقد تحدّث النبيّ إلى الناس، وقال لهم: لقد أوحى اللَه إليّ بأنّ هؤلاء أسراكم، وهم يستحقّون القتل،

بوسعكم أن تضربوا أعناقهم جميعًا، فجميعهم مشركون، أو يُمكنكم أن تطلقوا سراحهم وتأخذوا الفدية بدلًا من ذلك، ﴿ **فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً** ﴾[1].

فقال المسلمون: يا رسول اللَه! اسمح لنا أن نأخذ الفدية؛ لأنّنا ضعفاء، ليس لدينا أموال، إذ لم يكن لدينا في معركة بدر التي وقعت أحصنةً ولا جِمالًا ولا سيوفًا ـفقد كان عدد المسلمين بأجمعهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلًا، وكان لديهم عدّة أحصنةٍ وعدّة سيوفٍ ـ ونحن سنشتري بأموال الفدية (والتي ستكون أموالًا وفيرةً) الأحصنة وسنصنع السيوف ونُجهِّز أنفسنا في قبال الكفّار؛ وأمّا قتل سبعين رجلًا منّا في العام القادم في سبيل اللَه، فليس بالأمر المهمّ، دعهم يستشهدون، لا بأس بذلك. فقبل النبيّ بذلك؛ وحرّروهم، وأخذوا من كلّ واحدٍ منهم فديةً، وحينما وصل دور العبّاس عمّ النبيّ، أن تعالَ وادفع فديةً وتحرّر.

قال العبّاس: يا نور عيني! يا ابن أخي العزيز! إنّك تعرف أنّي رجلٌ لا أملك المال ولا أستطيع أن أدفع الفدية، ومن جهةٍ أخرى لديَّ عائلة أعيلها.

فقال النبيّ: لا يُمكن ذلك. فأصرّ مرّةً أخرى، عندها قال له النبيّ: لا يُمكن ذلك، لا بدّ أن تدفع الفدية! كانت فديته كبيرةً جدّاً؛ فقال: يا رسول اللَه! لكنّك تعلم أنّي لا أمتلك هذا المال؟! فقال النبيّ: بل تملكه، ادفعه! قال: لا أملكه.

فقال النبيّ: حينما أردتَ الخروج من منزلك، دفعتَ كيسًا من الذهب إلى زوجتك، وقلت لها: «ضعيه في المكان الفلاني، وإذا عدتُ فأنا أعرف ما أصنع به، وإلّا فافعلي به كذا وكذا»؛ والآن أليس مقدار ذلك المال يُساوي مقدار مال فدائك؟! بل يكفيه.

عندها صاح بصوتٍ عالٍ: يا مُحمّد! من قال لك هذا؟! فهو لم يكن ليصدّق ما حدث، فما جرى كان بينه وبين زوجته، وكان حين خروجه من المنزل، ولم يكن هناك

(١) سورة محمّد (٤٧)، مقطع من الآية ٤.

إلّا زوجته! عند ذلك أخبره النبيّ؛ فقال صلوات اللَه عليه وآله: اللَه اللَه، ربي ربي، جبرائيل حبيبي، لقد نزل جبرائيل مِن عند اللَه وأخبرنا.

عندها وفي نفس ذلك المكان، قال العباس: أشهَدُ أن لا إلَهَ إلّا اللَه وأنّكَ رَسولُ اللَه. وأرسل أيضًا يطلب المال مِن مكّة، فجُلب له وسلّمه للنبيّ وأفرج عنه.(١)

المراد هو أنّ النبيّ يقوم بإخراج الناس من جهنّم، ويجرّهم إلى الجنّة حتّى لو كان ذلك بالأغلال والسلاسل، وهذا هو مقام رحمة رسول اللَه الواسعة التي يرى فيها أنّه لا بدّ للنّاس أن يدخلوا الجنّة؛ لأنّهم لم يُخلقوا من أجل جهنّم بل كما قال النبيّ: «**خُلِقتُم لِلبَقاءِ لا لِلفَناءِ**»(٢).

بعض أسباب الضلال عن الطريق

إذا كان تفكير الإنسان هو هذا التفكير المُتدنّي، فسوف يتيه هنا؛ ولذلك نرى أنّ مادّة «ضلال» قد ذُكرت كثيرًا في القرآن المجيد، ﴿**فِي ضَلَالٍ**﴾(٣) فهم تائهون وضالّون في أفكارهم ولا يستطيعون أن يرتقوا إلى الأعلى. إنّ الكفّار والمشركين في ضلالٍ، أي: إنّهم تائهون وضائعون في أفكارهم ونيّاتهم، ولا يستطيعون أن يتقدّموا أو يتجاوزوا هذه المرحلة. أمّا المؤمنون فلا يضلّون، بل هم في حالة من الترقّي من خلال ذلك النور، وكلّ واحدٍ منهم استقرّ في مكانٍ خاصٍّ به، كلٌّ حسب درجته ومقامه، فمَن كانَ نوره أقوى ومعرفته أكثر، وتقواه أشدّ، وطهارته أزيد، يكون لديه مكانٌ أفضل.

---

(١) ***بحار الأنوار***، ج ١٩، ص ٢٦٥.

(٢) ***غرر الحكم***، ص ١٣٣.

(٣) لقد وردت كلمة «ضلال» في القرآن ٢٧ مرّة، وذلك بعباراتٍ مختلفة من قبيل: ﴿**فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ و﴿**فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾ و﴿**فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ**﴾ و﴿**فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**﴾ و... .(م)

بعض ضروريّات السير والحركة في هذا الطريق

١- الحركة تكون عن اختيار لا عن إجبار

هذا الطريق لا بدّ أن يُطوى باختيار الإنسان، ولا فرق في ذلك سواء كان السالكُ نبيًّا أم إمامًا أم إنسانًا عاديّاً، فكلّ ما بَلَغَهُ النبيّ من الدرجات والمقامات إنّما وصل إليه من خلال المجاهدة، وكان تكليفه قد وصل إليه من قبل اللهَ عزّ وجلّ.

٢- لا بدّ من قيام الليل

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[١]. قُم الآن الآن! فنفس النبيّ قامَ بجميع عباداته في غار حِراء[٢]، في ذلك المكان المُنعزل، ولمدّة أربعين سنة، فطوى جميع تلك الدرجات والكمالات، والآن وبعد أن صار نبيّاً، نجد أنّ اللهَ يقول له من جديد: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾.

إنّ الوقوف في محراب العبادة والدعاء والطلب والذكر والتوجّه نحو اللهَ في الليل، هي أمورٌ حسنةٌ، وحينما يطلع النّهار، اذهب واسبَحْ في هذا البحر الذي لا حدّ له من عالمِ الكثرة، وأمّا في الليل فتزوّد، ثمّ أنفق في النّهار. عليك أن تتزود في الليل ..! فإذا نِمتَ في الليل لن تتمكّن من التزوّد، وعندها ماذا ستُنفق في النهار؟! إنّ جُعبتك خاليةٌ، فماذا عساك أن تنفق؟! تعالَ في الليل واملأ جعبتك، ثمّ اذهب وأنفق في النّهار؛ ومع ذلك لن ينقص رأس مالك أبدًا، ولن ينقص شيءٌ من وجودك أيضًا، وسيبقى كلٌّ من نشاطِك وبهجتك وعزّة نفسك وقوّتك وكمالك المعنويّ على حاله؛ ولكن إذا أردت أن تُنفق من ذاتك، فستُصبح جعبتك فارغةً، وستبقى حينها خالي اليدين.

---

(١) سورة المزّمّل (٧٣)، الآيات ١ إلى ٦.

(٢) «**غار حِراء:** بكسر الحاء، جبل من جبال النور قرب مكّة المكرّمة، وفيه غارٌ كان رسول اللهَ يقضي فيه أوقات عزلته وخلوته قبل بعثته». (***معرفة الإمام***، ج ١٢، ص ١٥٤)

٣- العمل بالتكليف وبمقتضى العبوديّة والتوحيد الخالص

﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾[١]، هذه هي وظائف النبيّ الذي هو «**أَوّلُ ما خَلَقَ اللهَ**»[٢] وأشرف بني آدم وأشرف المخلوقات، فالتكليف إنّما يأتي حسب الدرجات والمقامات، والنبيّ يتقبّلها بصدرٍ رحبٍ، ويقول: أهلًا وسهلًا ومرحبًا، سمعًا وطاعةً، إلهي أنا عبدك، إلهي فليكن المدد من عندك! إلهي لا تكلني إلى نفسي! أنا عبدٌ ضعيفٌ فقيرٌ حقيرٌ مسكينٌ، ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا**﴾[٣].

يا جناب [الدكتور] المكرّم[٤] حينما كنّا تحت مبضع جراحتكم، ألم يكن من الواضح تمامًا كالشمس، أنّني كنتُ موجودًا ضعيفًا عاجزًا، أفقر من جميع الفقراء، وكنتُ أصغر من أصغر شخصٍ في الدنيا، أصلًا كنّتُ ميّتًا! ألم أكن ميّتًا؟! قُلّ لي ألم أكن ميّتًا، ثمّ منحني اللَه الحياة؟! هل أتينا بهذه الحياة من عند أنفسنا؟! هل كنّا واقعًا من أوجد هذه الحياة لأنفسنا؟! إنّ الحياة والموت بيده، ولو أنّه لم يُرد إماتتنا لم نكن لنموت، ولن نفقد وَعْينا، ولو أنّ جميع أطباء العالم اجتمعوا وأرادوا تخديرنا وإفقادنا الوعي لما استطاعوا، ولكن حينما أراد اللَه تمّ تخديرنا وفقدنا الوعي، وعندما أراد اللَه استفقنا، وعندما أراد اللَه أُصبنا بالماء الأبيض في العين، وعندما شاء اللَه شُفينا منه، فنحن دائمًا تحت أمر اللَه عزّ وجل ونهيه التكويني والوجداني والخارجي.

---

(١) سورة المزّمّل (٧٣)، الآية ٥.

(٢) لمزيدٍ من الاطلاع حول الروايات الواردة في «**أَوّلُ ما خَلَقَ اللهَ**»، راجع: ***معرفة اللَه***، ج ١، ص ٤٠ وما بعدها. (م).

(٣) سورة الفرقان (٢٥)، ذيل الآية ٣.

(٤) المراد هو جناب الدكتور عبد الحميد سجّادي، وهو طبيب العيون الذي أجرى العمليّة الجراحيّة لسماحة العلّامة الطهراني ـ رضوان اللَه عليه ـ وهو المُخاطب في هذه الجلسات. (م)

إنّ اللَه العليّ الأعلى يقول لنبيّه: يا رسولي! يجب أن ينكشفَ لك هذا الأمر ـ وقد انكشف له فعلًا ـ وهو أنّه للوصول إلى تلك الدرجات العليا وإلى ذلك التوحيد العالي الذي هو أفضل وأشرف من توحيد جميع الأنبياء ـ فتوحيد رسول اللَه أعلى من توحيد الجميع ـ فلا بدّ أن يكون خالي الوفاض من أيّ نفعٍ أو ضرٍّ أو حياةٍ أو نشورٍ[1]، ﴿**بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2].

ولذا، انظر أيّ توحيدٍ يُبيّنه القرآن ـ وهو الصحيفة الإلهيّة ـ لرسول اللَه: ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ**﴾[3]، لا يوجد أحد هو مالكٌ للمُلك غير اللَه، ﴿**تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[4].

إنّه يرزق دون حساب، ولا يقتصر الرزق على الخبز ومرق اللحم، ففكر الإنسان رزقٌ من اللَه أيضًا، وعقل الإنسان رزقٌ من اللَه، وحياة الإنسان رزقٌ من اللَه، وعقائد الإنسان رزقٌ من اللَه، وإيمان الإنسان رزقٌ من اللَه.

بعض التكاليف ومقتضيات العبوديّة والتوحيد الخالص

وبناءً على هذا، ينبغي علينا نحن الناس الحقيري الشأن [بالنسبة للَه] أن نرفع جميعًا بأيدينا نحو اللَه، وننادي ونقول: «إلهي! نحن لسنا إلّا عبيدًا لك، وكلّ ما نريده لا نطلبه إلّا مِنك، فإذا أردنا الخبز، سنطلبه منك، وإذا احتجنا للباس سنطلبه مِنك، وإذا تمزّقت ثيابنا فاحتجنا إلى إبرةٍ لرتقها فلن نطلبها من غيرك، بل سنطلبها منك».

---

(١) إشارةٌ إلى الآية الشريفة رقم ٣ من سورة الفرقان (٢٥): ﴿**وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا**﴾. (م)

(٢) سورة الملك (٦٧)، ذيل الآية ١.

(٣) سورة آل عمران (٣)، صدر الآية ٢٦.

(٤) سورة آل عمران (٣)، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

وليس معنى أنّنا لن نطلب من غيرك، أن نقول للخيّاط: لا تخِطه، بل إنّنا لا نرى أنّ الخيَّاط غيرُك، فنحن لا نعتمد عليه، إذ [لو لا إرادتك] لتعطّلنا إلى يوم القيامة، ولبقيت ملابسنا ممزّقةً، ولما استطعنا أن نخيطها، ولما تحرّكت يد الخيّاط.

إنّ الخيّاط والبقّال والفلاّح والعامل... جميعهم آياتُكَ، وعبيدُكَ، يُنفّذون أوامركَ، فأنتَ الذي أمرتَهم أنْ يقوموا بتلك الأفعال بهذا المنوال، ونحن عبيدٌ لك، وكلّ شيءٍ بيدك أيضًا، ولا فرق في ذلك بين الأمور الروحانيّة والماديّة، جميعها للّه.

والآن بعد أن رأينا بالوجدان بأنّك أعطيتنا هذه الماديّات، ووهبتنا العقل، وجاوزت بنا ـ منذ طفولتنا إلى الآن ـ تلك المنحدرات والمنزلقات الوعرة والمطبّات والعقبات التي تهجم علينا كلّ يومٍ آلاف بل ملايين المرّات وكادت تودي بنا إلى الموت، فنجيّتنا منها وأحضرتنا إلى هنا، وكان قد خُيّل لنا أنّ جميع ما لدينا من قدرةٍ هو من أنفسنا؛ وأنّ هذا المنزل لنا، وأنّ هذا البِنطال مِنّا، وهذه السيّارة مِنّا، وهذا الخاتم مِنّا، وهذه الطاولة مِنّا.

أمّا الآن فنقول: يا إلهي! امنحنا أمورًا ذات قيمةٍ عاليةٍ! جميع هذه الأمور لك بنحوٍ مُستقلٍّ، جميعها لك، كلّ شيءٍ لك بلا أيّ فرقٍ، فنشكرك ونحمدك أنّك أفهمتنا، وإلّا لبقينا حيث كنّا إلى آخر عمرنا؛ نظنّ بأنّ الأمور التي تُقسَم من قبل اللّه [هي الأمور المعنويّة فقط]، ونتخيّل بأنّ هذه الأمور [الدنيويّة] إنّما تأتي بقوّة نفس الإنسان، بينما الأمور المعنويّة للّه؛ ولكُنّا مِثل الإيرانيّين القُدماء؛ ثنويّين وعُبّادًا للأصنام، نقول بوجود إلهين، ونعتقد بوجود إله الظلمات وإله النور، ونعتقد بـ«يزدان» و«أهريمن».

يا إلهي! ليس هناك من مُؤثّرٍ في عالم الوجود غيرك، لا حول ولا قوّة إلّا لك، أنت وحدك العالم، وحدك القادر، وحدك الحكيم، وحدك الرازق، الأمر سيّان بالنسبة لك، إذا أردتَ فأعطنا رزقًا ماديًّا أو معنويًا، رزقًا عقليًّا أو روحيًا ونفسيًّا، فكلّها شيءٌ واحدٌ بالنسبة لك، ولكنّ الأمر يختلف بالنسبة لنا. فأنا العبد، حينما أرفع هذا الإناء، فإذا كان وزنه خمسمائة غرام مثلًا أو مائة غرام، أقول: إنّه خفيفٌ، ولكن إذا كان وزنه عشر

كيلواتٍ، فسأقول: إنّه ثقيلٌ؛ لأنّ قدرتي محدودةٌ، فأنا أحدّد كون الشيء ثقيلًا أم خفيفًا من خلال هذه القدرة المحدودة، فأقول: هذا ثقيلٌ وذاك أثقل، ولكن لا حدّ بالنسبة لك، فليس هناك أشدّ وأضعف بالنسبة لك، ولا أقلّ وأكثر، ولا كثيرٌ وقليلٌ، فقدرتك بالنسبة لجميع الموجودات واحدةٌ، وسواء أردتَ أن تخلق جبرائيل أم أردت أن تخلق بعوضةً، فالأمر سيّانٌ بالنسبة لك.

هذه المسألة مهمّةٌ؛ إذا أراد اللَه خلق جبرائيل، أو خلق رسول اللَه، أو خلق بعوضةٍ، فلا فرق بالنسبة له، وإذا أراد خلق ذرّةٍ أو خلق مجرّةٍ، أو أراد إعدام مجرّةٍ أو إعدام ذرّةٍ، فكذلك لا فرق بالنسبة له، القدرة من ناحيته واحدةٌ.

والآن طالما أنّ الأمر كذلك، فها نحن قد فتحنا أعيننا وانتبهنا وأقرّينا واعترفنا بأنّ هذا التنبّه وهذه اليقظة مِنّةٌ منك، ولو لم تُرد لنا ذلك، لبقينا نغطّ في نومنا وغفلتنا، وهو ما نراه عند آلاف الأفراد من أمثالنا الذين يغطّون في سبات الغفلة، ولا يستيقظون. إنّك أيقظتنا، ولذا سنسجُد لك ونشكرك ونحمدك ونمدحك ونقول: بخٍ بخٍ! ما ألطفك من إله! ما أحسنك من إله! ما أرحمك من إله! الإرادة هي إرادتك أنت، كان والدي صالحًا، وكانت أمّي صالحةً، وكان حليبها طاهرًا، وكان جدّي صالحًا، وكان والد جدّي صالحًا، فمن أين أتوا بهذه الأمور الحسنة والصالحة؟! هل ذلك سوى أنّك منحتهم إيّاها؟! إذن فأنتَ الجميل، أنتَ الجميلُ.

وكُـلُّ جَمِيـلٍ حُسـنُهُ مِـن جَمالِهـا مُعـارٌ لَـهُ بَـل حُسـنُ كُـلِّ مَليحَـةِ[1]

يعني: كلّ جميلٍ في الدنيا وكلّ حُسنٍ هو عاريةٌ جاء منك إليها، بل كلّ حُسنٍ لكلّ مليحةٍ، فكلّ مليحةٍ في الدنيا وكلّ مليحٍ ملاحتها وحُسنها منك.

(١) *ديوان ابن الفارض*، ص ٤٤.

إنّها رشحاتٌ، وشعاعٌ، وأشعّةٌ من نورِ وجودك سطعتْ على هذه الموجودات، نشكرك أن مننتَ علينا بمحبّتك هذه، فلو شئتَ لما مننتَ بها، وما لأحدٍ أن يعترض عليك، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

لو شئتَ لخلقتنا من موجودٍ عنيفٍ وشقيٍّ أبوه شقيٌّ وأمّه شقيّةٌ وجدّه شقيٌّ فنصبح نحن أشقياء أيضًا، ففي نهاية المطاف الأمر بيدك، ولكنّك خلقتنا هكذا، فكذلك الأمر بيدك؛ نشكرك ونحمدك انطلاقًا من الجهة التي بِتنا ننظر إلى الأمور منها، إذ نرى كلّ هذه الأمور منك، حُسْن الأمّ منك، حُسْن الوالد منك، حُسْننا منك أيضًا، الكمال منك؛ والآن بما أنّ الأمر كذلك نسألك وندعوك بالنسبة لكلّ القوى التي مننتَ بها علينا وأوصلتها من مرحلة العلم والكمال إلى الفعليّة، فجعلتنا مؤمنين، وجعلتنا موقنين، وجعلتنا لا نعتني بالأمور الدنيويّة والشهويّة ولا للصعود والنزول، ولا بالجاه والاعتبار، وأيقظتنا، وفتحت بصيرتنا، فالحمد كلّ الحمد لك، ونشكرك على كلّ ذلك.

ولكن يا إلهي! حافظ على هذه الأمور عندنا، ثَبِّتنا عَلَى هَذا الصِّراط؛ لأنّك لو أردتَ أن تغيّر ذلك، لغيّرته في نفس اليوم، ولتحوّل بلمح البصر المسلم إلى كافر، والكافر إلى مسلم.

«عبدٌ» يعني: أن تستعطي، أن تستعطي للوصول نحو اللهَ! «عبدٌ» يعني: أن يترك التسّول من كلّ العالم، ويحصر تسوّله في التسوّل من اللهَ، أمّا مَن كان عبدًا لغير اللهَ فهو لا يطلب من اللهَ، ويتسوّل من جميع عالم الوجود، ولو كان هو من السلاطين ورؤساء جمهوريّات الدنيا، فهؤلاء هم أكبر المتسوّلين بين الناس!

(١) سورة الأنبياء (٢١)، الآية ٢٣.

كان بهلول ابن خالة أو ابن عمّ هارون، وكان مجنونًا، وفي يومٍ من الأيّام دخل بسرعة إلى قصر هارون وصعد إلى عرشه وفي يده درهمٌ ـ وبما أنّه كان شخصًا معروفًا كان الحجّاب يأذنون له بالدخول ـ فتقدّم وقال لهارون: «خُذ!»، فمدّ هارون يده، فوضع ذلك الدرهم في يد هارون، فرجع ونزل.

قال هارون: «دعني أرى ما هذا؟»، فقال: «اليوم جاء شخصٌ وأعطاني هذا الدرهم وقال: أعطِ هذا الدرهم لأكثر الناس تسوّلًا، وأنا رأيتُ أنّك أكثر الناس تسوّلًا!».

قال: «وا عجبًا! ما هذا الكلام؟! أي كذبٍ هذا؟!»، فقال: «حسنًا! جميع الناس يطلبون ويتسوّلون، ولكنّك تتسوّل أكثر منهم؛ لأنّ أحدهم يتسوّل ويطلب مائة تومان، والآخر يتسوّل ويطلب ألف تومان، والثالث يتسوّل ويطلب قافلة بأكملها، أمّا أنت فقد جلست هنا وصرت تتسوّل أكثر من الجميع لأنّك تختلس من جميع الناس، إذن فأنت أكثر الناس تسوّلًا».

لو شاء اللهَ لخَلقكَ هكذا [مثل هارون]، والحمد للّه أنّه لم يفعل.

إلهي حافظ على هذه الحال عندنا! ثمّ إنّ استعداداتنا لم تصل بأكملها إلى فعليّتها، ولو أنّها وصلتْ لكنّا مرتاحي البال، ولكنّنا غير مرتاحي البال، ولذا نعاود الطلب منك مرّةً أخرى، وننتظر استجابتك، نطلب منك أن توصل تلك القابليّات إلى الفعليّة.

يا إلهي! إنّ مطلوبنا هو أنت، وننتظر أن تستجيب لنا، ومحبوبنا هو أنت، هذا هو طلبنا! وعلينا أن نَعود إلى أنفسنا في الخلوة والجلوة، وأن نفهم بأنّه لن يُشبعنا في عالم الوجود ويروينا ويُريحنا إلّا الوصول إليك، وإلى جمالك أنت، ولقاءك أنت، وزيارتك أنت؛ وهذا الاستعداد لم ينشأ لدينا الآن، بل أنت من وضع هذا الاستعداد فينا، وإلّا لما كان مطلوبًا لنا، ولا كنّا لنطلب هذا المعنى.

وإنّ طلب هذا المعنى دليلٌ على أنّه يُمكننا الوصول، وأنّك خلقتنا من أجل ذلك؛ وطالما أنّ الأمر كذلك، نطلبُ منك أن توصل استعداداتنا إلى فعليّتها، ولا تُخرجنا من هذه الدنيا ناقصين، وغير ناضجين، وطالما لم نصل إلى الفعليّة فلا تخرجنا من الدنيا؛ لأنّنا إذا كنّا غير ناضجين فسوف نَنْهمِك بالبكاء والنياحة عندما يحين وقت موتنا ونقول: سيخرب منزلي، وسيُصيب أبنائي، وزوجتي، وأموالي كيت وكيت ... .

نتائج وصول السالك إلى الله

ولكن إذا رحمنا اللَه ووصلنا فسوف نكون جذلين فرحين؛ لأنّنا نذهب من العالم الضيّق إلى العالم الواسع، ومن عالم الظلمة إلى عالم النور، ومن عالم الشيطان إلى عالم الملائكة، وسيكون ذلك العالم عالمًا جيّدًا جدّاً، وذا قيمةٍ عاليةٍ جدّاً، ومليئًا بالأجر والروح والريحان وجنّة النعيم ورضوان اللَه عزّ وجلّ ومُلاقاة أولياء اللَه والأئمّة والأنبياء والوصول إلى مقام ﴿ **أَوْ أَدْنَى** ﴾[1]، وستزول جميع الحُجُب، وسوف يكون الإنسان ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾[2] وبجانب حوض الكوثر وزمزم ومقام ولاية أمير المؤمنين ويكون له «**ما لا عَيْنٌ رَأَت وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت وَلا خَطَرَ عَلَى قَلبِ بَشَر**»[3]، فيسكن ويتوطّن هناك، وطبعًا إنّ اللَه يُعطي هذه الأمور للإنسان قبل الموت وفي الدنيا، فهل تريدون شيئًا أعلى من هذا؟!

واقعًا للإنسان سبيلٌ [إلى تلك المقامات] في هذه الدنيا بهذه البساطة.

يقول هاتف الأصفهاني:

---

(١) سورة النجم (٥٣)، ذيل الآية ٩.
(٢) سورة القمر (٥٤)، الآية ٥٥.
(٣) ***من لا يحضره الفقيه***، ج ١، ص ٢٩٥؛ ***المحجة البيضاء***، ج ٨، ص ٣٧١.

١- هاتف! ارباب معرفت كه گهى مست خوانندشان و گه هشيار

٢- از مى و جام و مطرب و ساقى از مغ و دير و شاهد و زنّار

٣- قصد ايشان نهفته اسراريست كه به ايماء كنند گاه اظهار

٤- پى برى گر به سرّشان دانى كه همين است سرّ آن اسرار

٥- كه يكى هست وهيچ نيست جز او وَحدَهُ لا إلَهَ إلّا هُو

ويقول في مكان آخر:

٦- يار بى‌پرده از در و ديوار در تجلّى است يا أُولى الأبصار

حتّى يصل بعد ذلك إلى هنا:

٧- شمع جويىّ و آفتاب بلند روز بس روشن و تو در شب تار

٨- گر ز ظلمات خود رهى بينى همه عالم مشارق الأنوار [1]

***

(١) ***ديوان هاتف الأصفهاني***، قِسم الترجيع.

يقول: ١- يا «هاتف!» إنّ أرباب المعرفة وأساطينها الذين تحسبهم أحياناً سُكارى وتظنّهم صُحاةً أحيانًا أخرى.

٢- إنّما ذلك بفعل الخمر وسُقاتها والمجون والمطربين والرهبان والدير والشاهد والزنّار.

٣- إنّ في ثنايا عملهم هذا تنطوي أسرارٌ، يُظهرونها أحيانًا من خلال الإيماءات (و الإشارات).

٤- ستعلم إن أنت كشفت سرّهم، أن هذا هو سرّ الأسرار.

٥- وجود واحدٌ ولا شيء غيره، وَحْدَهُ لَا إلَهَ إلَّا هُو.

ويقول في مكانٍ آخر:

٦- إنّ الحبيب مُتجلٍّ من وراء الباب و الجدار، (فافهموا) يا أولي الأبصار.

حتّى يصل بعد ذلك إلى هنا:

٧- أتبحثُ عن الشمعة مع أنّ الشمس مشرقةٌ (في كبد السماء)؟! وهو ذا النهار مُضيءٌ وأنتَ تَرزح في ليل مُدلَهِمّ.

٨- إذا أنتَ تخلّصت من ظُلمات نفسك، سترى العالَمَ كلّه مشارقَ للأنوار.

الجَلسَةُ الثَانِيَةُ

ضَرُورَةُ عَدَمِ الالْتِفَاتِ إِلَى مَا سِوَى اللهِ مِنْ أَجْلِ الوُصُوْلِ إِلَى اللهِ

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَجِيم
بِسْمِ اللــهِ الرَحْمَنِ الرَحِيم
وَصَلّى اللــهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطَاهِرِينَ
وَلَعْنَةُ اللــه عَلى أَعْدَائِهِم أَجْمَعِين

سبب صعوبة الطريق إلى الله وسبب سهولته

من جهةٍ يعتبر اجتياز الطريق نحو اللَه أصعب الأعمال، ومن جهةٍ أخرى هو أسهلها.

أمّا كونه أصعب عملٍ فلأنّ نفس الإنسان اعتادت على الأمور المتكثّرة في هذا العالم، اعتادت على الشهوة والغفلة وعلى لون الدنيا ورائحتها، فيتوجّب على الإنسان أن يتجاوز جميع هذه الأمور من أجل اللَه، وهذا هو أصعب عملٍ.

وأمّا كونه أسهل عملٍ، فلأنّ هذه العادة وهذا الأنس الذي للإنسان مع هذه الأمور المُتكثّرة في الدنيا، ليست سعادة الإنسان، إنّها وبالٌ، إنّها أسرٌ، ظلمةٌ وإزعاجٌ. والاتّصال باللَه عبارةٌ عن العبور عن هذه الأمور، والذهاب إلى عالم السعة والإطلاق، والذهاب إلى الرَوح والرحمة، مضافًا إلى أنّ اللَه يساعدنا، وبالتالي فالارتباط باللَه هو أسهل الأعمال.

لقد ذُكرت أشياء عديدة حول هذا الطريق في كلٍّ من «*رسالة لبّ اللباب*» و«*رسالة السير والسلوك المنسوبة للمرحوم بحر العلوم*»، وهي ممّا ينبغي مراعاتها، وطبعًا سأذكر هنا بدوري بعض تلك الأمور المهمّة بنحو الإجمال، وهي من الأمور التي ينبغي على الإنسان أن يضعها نصب عينه دائمًا، فهي تمدّه وتُعِدّه إلى آخر السلوك أيضًا، فالأمر يحتاج إلى **محاسبةٍ**، ويحتاج إلى **ذكرٍ**، ويحتاج إلى **عبادةٍ**.

ما يحتاج إليه السالك لطيّ الطريق

الأمر الأوّل: الهمّة العالية

أحد تلك الأمور هو **الهمّة العالية** يعني: على الإنسان أن لا يرى في هذا الطريق إلّا اللَه وحسب، وينبغي أن يكون عمله للَه، وأن لا يتنازل عن اللَه، ولا يقنع بها دون اللَه، ولا يقوم بعملٍ لغير اللَه، لأنّه مهما عمل الإنسان من عملٍ لغير اللَه، فإنّ نفسه لن تطمئنّ، وفي المقابل إنّ العمل الذي يقوم به الإنسان لغير اللَه لن يجعله يشبع حين يصل إلى ذلك المقصد والمقصود؛ لأنّ الأجر الذي سوف يُعطى للإنسان هو نفس ذلك الهدف والمقصد الذي عمل الإنسان من أجله.

مثلًا: إذا قام شخصٌ بعملٍ من أجل أن يُقال عنه بأنّه عالمٌ، فماذا سيستفيد من اللَه يوم القيامة؟! سيُقال له: لقد قيل لك في الدنيا ما ترغب أن يُقال لك، ولكن ماذا أحضرتَ لنا؟ وإذا أنفق شخصٌ ومدّ السفرة تلو السفرة لكي يُقال عنه: يا سيدي إنّ هذا الشخص مُتديّنٌ ومن أهل الإنفاق ويُساعد المُستضعفين وهو رجلٌ غنيٌّ. حسنًا! لقد قالوا هذا الأمر بحقّه. ولكن ماذا أحضر الإنسان للَّه؟!

في المقابل إذا قام الإنسان بهذا العمل من أجل اللَه، وكان قصده من هذا العمل هو اللَه، فماذا سيكون أجر الإنسان حينئذٍ؟ نفس اللَه، وانتهى الأمر.

ينبغي أن يكون الشيء الذي يُعاوض الإنسان نفسه عليه هو اللَه وحسب، محبّة اللَه وعشق اللَه وذكر اللَه فقط ﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**﴾[1]. وإذا تنازل الإنسان

(١) سورة الرّعد (١٣)، ذيل الآية ٢٨.

واقتنع بما دون اللَه، وقام بعمله لغير اللَه، فلن تشبع نفسه، ولن يزول عطشه وجوعه، ولن يصل إلى الهدف أيضًا.

على السالك أن يقوم بأعماله للَّه، فلا يُصلّي أو يصوم أو يُنفق إلّا للَّه؛ لأنّه هو الذي أمرنا أن نقوم بهذه الأمور. فإذا كان عبداً للَه عليه القيام بما أمره به، لا أن يقوم بهذه الأعمال من أجل رؤية منامٍ جيّدٍ؛ لأنّه طبعًا حينما تتمّ تزكية نفس الإنسان، سوف يرى منامًا جيّدًا، ولكن لا ينبغي على الإنسان أن يكون قصده من العمل تحصيل المكاشفة، أو الاطلاع على بعض المعاني في اليقظة، أو لكي يحصل على حالٍ معيّنةٍ بحيث يُخبر عن أفكار الناس وما يجري في أذهانهم وما يخطر على بالهم، بحيث يُمكنه أن يقرأ أذهان الناس، ويعرف ما الذي فعله فلانٌ بالأمس؛ أو مثلًا: يقوم بشفاء مريضٍ بإرادةٍ منه، أو يقوم بالتصرّف في مواد الكائنات، فيقوم بتخريب جبلٍ ـمثلًاـ بإرادةٍ منه، أو يُوقف قطارًا وأمثال هذه الأمور، هذه الأمور ليست موجودةً في السير والسلوك ولا في طريق العرفان وطريق اللَه؛ لأنّ جميع هذه الأمور هي مقاصدُ صغيرةٌ ودون اللَه، أمّا في العرفان فالمقصد هو لقاء اللَه والفناء في ذات اللَه وعرفان اللَه فقط.

افترضوا أنّ شخصًا قام بجهدٍ ما، فعَلِم بما تتحدّث به هاتان الحمامتان الذكر والأنثى اللتان تطيران في الهواء، وأخبر بذلك، واتّضح بأنّ ما يقوله صحيحٌ، فكان يفهم لغة الطيور، فهو كان قد قام ببعض الأعمال من أجل ذلك، وصار يعرف لغتها، ومعرفته كانت صحيحةً أيضًا، حسنًا! فأيُّ كمالٍ لنفس الإنسان في ذلك؟! ليس فيه أيّ كمالٍ لنفسه، مثلُه مثل سائر العلوم التي لدى الناس في الدنيا، من أجل الدنيا، مثلًا: يستطيع البعض من خلال الآلات التي صنعوها كالراديو والرادار أن يعرف بما يحصل في ذلك الجانب من الدنيا، كذلك فإنّ البعض يستطيع من خلال نفسه أن يطّلع على ما يحصل لدى بعض المخلوقات، فيعلم بما يجري من حديثٍ بين الحمامتين، أو يعلم ماذا يوجد خلف الجبل.

إنّ هذه العلوم للدنيا، وفائدتها محدودةٌ بوقت الموت، وحينما ينتقل الإنسان عن هذا العالم لا يكون قد اكتسب كمالًا بواسطتها، ولا يكون قد حصّل قربًا من اللَه.

لقد جاء أحد هؤلاء المرتاضين اليوغيّين[1] إلى محضر الإمام الصادق عليه السلام.

- السائل: هل كان مسلمًا؟
- العلامة: لا، لم يكن مسلمًا، بل كان مُشركًا.

قال للإمام: «أنا أستطيع أن أُخبر عن الأمر الفلاني، وأنا أعرف الغيب»، وأمثال هذا الكلام، فقال الإمام: «حسنًا أخبرني ماذا يُوجد في يدي؟»، ففكّر وقال: «بيضة الحمامة الفلانيّة التي تقع في الجبل الفلاني، في المكان الفلاني من الدنيا؛ لأنّي نظرت الآن إلى كلّ الأماكن، فرأيتُ أنّ كلّ الأشياء في مكانها إلّا بيضةَ الحمامة تلك، ولذا في يدك بيضة الحمامة»، ففتح الإمام يده، وقال: «صحيحٌ ما تقوله»، ثمّ قال له: «كيف وصلت إلى هذا المقام؟»، قال: «خالفتُ نفسي»، فقال الإمام: «أسلِم!» فقال: «لا أُسلِم»، فقال الإمام: «خالف نفسكَ!»، فقال: «أشهدُ أن لا إله إلّا اللَه، وأشهد أنّ مُحمّدًا رسول اللَه».

انتبه للأمر! ثمّ أغلق الإمام يده مرّةً أخرى، وقال: «ماذا في يدي؟» ففكّر وفكّر ثمّ قال: «لا أعلم»، ففتح الإمام يده وقال: «نفسُ تلك البيضة، انظر!».[2]

انتهى ما كان لديه، ذهب في حال سبيله، وقد وصل إلى التوحيد، يعني: من خلال هذه الـ«أشهدُ أن لا إله إلّا اللَه» وصل إلى نورٍ توحيديٍّ وحصل له ارتباطٌ باللَه عزّ وجلّ بحيث إنّ هذه العلوم كانت صفرًا مقابله، وفقد كلّ ما كان لديه؛ لأنّ تلك العلوم والشهادات هي علومٌ وشهاداتٌ من أجل هذا العالم، من أجل عالم المادّة، وكان قد

---

(١) وهم الأشخاص المنسوبين إلى اليوغا (yoga) ويُقال للفرد منهم يُوغيّ (yogin)، وهي فلسفة هندوسيّة تعني: وضع القيود، ويُصاحبها رياضاتٌ صعبةٌ، وقد تظهر للإنسان على إثرها بعض خوارق العادات. (م)

(٢) من الجدير بالذكر أنّ هذه القصّة نُقلت في ***كشكول البحراني***، ص٣٥٨، لكنّه نسبها إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام. (م)

أجهد نفسه حتّى حصّلها ولكنّه حصّلها بدون اللَه، دون الاتّصال بالتوحيد؛ أمّا الآن فقد وصل إلى نقطة التوحيد تلك، إلى ذروة التوحيد تلك، وما يُفاض عليه من هناك، فهو ذو قيمةٍ وسيبقى له ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1].

لقد جلب الإمام بيضة الطائر بواسطة النور الإلهي، وأراه إيّاها، وهذا الأمر يبقى للإمام، ولذا في المرّة الثانية حينما أراه إيّاها كانت نفس البيضة وكان قد اطّلع سابقًا على جميع الدنيا أيضًا، ولكن لم يبقَ ذلك له؛ لأنّ طريقه كان خاطئًا، وعندما أسلم ووصل إلى التوحيد، زالت هذه العلوم المتكثّرة الضائعة الناشئة من ظلمة النفس، زالت بأجمعها وطهُرت نفسه، ومن الآن فصاعدًا مهما يُفاض عليه في عالم التوحيد فهو يُفاض عليه من قبل اللَه، وهي علومٌ حقّةٌ حقيقيّةٌ ولذا تبقى.

على الإنسان أن يعمل للَّه، على العبد أن يعمل من أجل مولاه، إنّ اختيار العبد ليس بيده، بل العبد مِلكٌ للَّه، وعليه أن يعمل للَّه، وإذا قام بعملٍ لغير اللَه فقيمة عمله تُساوي نفس قيمة قصده.

إذا سلّم الإنسان على شخصٍ من أجل أن يُسلّم على إنسانٍ وحسب، فقيمة سلام الإنسان هو سلامُه عليه، وهذا هو أجره، ولا ينتظر الكثير منه، ولكن إذا سلّم على الشخص فقط من أجل أن يُسعد قلبه ويجعله مسرورًا، أو من أجل أن يدعوَ له بدعاءٍ، فالآن سواء أراد أن يُسلّم على إنسانٍ أو لا يُسلّم، فهذا المعنى هو معنى أعلى.

إنّ الإنسان يقوم ببعض العبادات والأعمال الصالحة من أجل أن يُدخله اللَه ـمثلًاـ إلى الجنّة، والجنّة أمرٌ حسنٌ جدّاً، ولكن ذلك العمل الذي قام به الإنسان من أجل نفس الجنّة، هو عملٌ ينقصه اللَه؛ لا من باب أنّ الجنّة ظهورٌ للَّه وتجلّي للَّه ومحلٌّ لإرادة اللَه ومشيئته، ولا من باب أنّ الجنّة مخلوقٌ للَّه وقد ظهرت آيات اللَه وتجلّياته في جميع

(١) سورة النحل (١٦)، صدر الآية ٩٦.

شؤونات الجنّة، ولا من باب أنّ هذه الجنة التي تُمنح له إنّما تُمنح له من قِبَل اللَه وهو يقبل بهذا الإنسان لأنّه محلٌّ لإمضائه ورضاه. لا بل قام بعمله فقط من أجل الحور العين، ومن أجل تلك اللذّات التي في الجنّة وأمثال ذلك؛ وإذا قام الإنسان بالأعمال من أجل هذه الأمور، فإنّ اللَه سوف يعطيه الجنّة لأنّه قام بالعمل من أجلها، ولكن ليس له حقٌّ بالأمور الأعلى، ولا يستطيع أن يقول: إلهي إنّني أريد لقاءك أيضًا، فلماذا أدخلتني إلى الجنّة ولم تُوفّقني للقائك؟ ولماذا لم تجعلني مستحقّاً لمقام الرضوان؟ ولماذا لا يصدق عليّ ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[1]؟ سيقول اللَه له: لماذا قُمتَ بهذا العمل؟ من أجل الحور العين؟ الأشجار؟ ﴿ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[2]؟ تفضل، بسم اللَه!

وإذا قام شخصٌ بالأعمال خوفًا من نار جهنّم، فكذلك من المُسلّم لن يُدخله اللَه إلى نار جهنّم، ولكن لا يُمكنه أن يطلب من اللَه يوم القيامة: إلهي! أنا أريد لقاءك، أريد أن أجلس معك وأن أُكلّمك، أريد أن أُصبح كليم اللَه؛ إنّك لم تقم بعملك من أجل هذا، نعم أنتَ قُمت بالأعمال وهذا صحيحٌ، ولذا لن أُدخلك إلى جهنّم [ولكن لا تطلب أكثر من ذلك].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام بأنّ الناس على ثلاثة أصنافٍ:

قَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ رَغْبَةً وَطَمَعًا بالجَنّة فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ.

وقومٌ عَبَدُوا اللَهَ رَهْبَةً وخَوفًا مِنَ النّارِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ.

وقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ حُبّاً لَه.[3]

---

(١) سورة المائدة (٥)، مقطعٌ من الآية ١١٩.

(٢) سورة آل عمران (٣)، مقطع من الآية ١٥.

(٣) ورد هذه الحديث بالمضمون، أمّا نصّه كما ورد عنه عليه السلام: «**إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَهَ رَغْبَةً، فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ**». (*نهج البلاغة* (عبده)، الحكمة ٢٣٧)؛ ومثله عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْعُبَّادَ**

نحن نُريدك أنت، لا أنّنا نُطيق جهنّم! ولا أنّنا لا نُحبّ الجنّة! لا! فنحن ليس لنا طاقة على جهنّم، وإذا رميتنا في جهنّم فليس لدينا الطاقة لتحمّلها، ولكنّنا قُمنا بعملنا من أجلك أنتَ، إنّ عملنا وعوض عملنا ونيّتنا وعقيدتنا وأجر ذلك هو أنتَ، محبّتك أنتَ، نحن عبيدك أنتَ، ونعمل لك أنتَ، والآن إذا أردتَ فأدخلنا إلى جهنم! وإذا أردتَ فأدخلنا إلى الجنّة! لا شأن لنا بذلك، نحن إنّما عملنا من أجلك أنتَ.

في عالم العرفان على السالك أن يعمل من أجل اللَه، فلا سمح اللَه أن تكون نيّتي هي القيام بالعمل من أجل أن أرى منامًا جيّدًا، أو أن تحصل لي مكاشفة، أو تحصل لي حالةٌ جيّدة، أو أصل إلى مقاماتٍ ودرجاتٍ، أو يضعوني يوم القيامة على منبر الوسيلة، أو لكي أُعطى مقام الشفاعة، أو لكي أُصبح جليس الملائكة، أبدًا ليس هناك هذا الكلام في هذه المسألة؛ أنا إنّما أعمل من أجل اللَه!

إذا جاء جبرائيل للسالك وقال له: ماذا تُريد؟ سوف نُعطيك كلّ ما تريد، لقد أمرنا اللَه أن نأخذك إلى الجنّة ونعيدك، فهل هناك أعلى من ذلك؟! ماذا على الإنسان أن يقول؟ يقول: أنا عبد اللَه، ومولاي هو اللَه، وأنا لا أريد شيئًا غير اللَه. إذا جاء وقال: إنّ اللَه يُريد أن يُعطيك مقام الشفاعة، فاقبل بذلك! يجب أن يقول: أنا عبد اللَه، إذا أعطى فقد أعطى، وإن لم يُعطِ فالأمر بيده، أنا لا آتي وأختار مقابل اللَه، أنا أختار مقام الشفاعة الكبرى مقابل اللَه؟! لا، أنا لا أقوم بعملٍ كهذا. جاء جبرائيل وقال: إنّ رزقك الآن سوف يأتيك دون أيّة مشقّةٍ، بلا أيّ تعبٍ أو مشقّةٍ، إنّ اللَه هو الذي سيُعطيك رزقك، فهل تريد شيئًا كهذا؟! ولو أنّ الإنسان قال: نعم أريد، فسوف يعطونه، لا نتخيّل بأنّهم لن يُعطوه، بل سيُعطونه ولكن ستنتهي المسألة هناك.

ثَلَاثَةٌ قَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوْفاً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثَّوَابِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأُجَرَاءِ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ حُبّاً لَهُ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ، وَهِيَ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ». (***الكافي***، ج٢، ص٨٤). (م)

قصّة المرحوم القاضي والميرزا إبراهيم عرب بجانب الشطّ

كان المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ من أعاظم العرفاء ومن الأساتذة ومن الأفراد النادرين في هذا القرن، وكان الميرزا إبراهيم عرب ـ وهو من سُكّان الكاظمَين ـ يأتي إلى محضر المرحوم القاضي فيأخذ الدستور [السلوكي] ويذهب.

وفي أوّل مرّةٍ جاء فيها إلى محضر المرحوم القاضي، كان المرحوم القاضي يمشي آنذاك من مسجد الكوفة بجانب الشاطئ إلى مسجد السهلة ـ وكان المرحوم القاضي يذهب كثيرًا إلى مسجد السهلة، يبقى في الليالي ويُقوم بالعبادات هناك ـ والمرحوم القاضي كان رجلًا مُسنّاً أيضًا، فكان يمشي رويدًا رويدًا بجانب الشاطئ إلى مسجد السهلة، وقد صادفه هذا الميرزا إبراهيم عرب وطلب منه أن يقبل أن يأتي إليه وأن يأخذ منه دستورًا [سلوكيّاً]، قال: نحن أتينا إلى محضر سماحتكم ونريد دستورًا ـ وهو نفسه كان قد قام ببعض الأعمال، وبعض الرياضات، وذهب إلى بعض أرباب المعرفة، ولكن يده لم تصل إلى شيءٍ، فوصل إلى محضر هذا الرجل العظيم كي تُفتح له الأمور إن شاء اللَه، وينفتح له الطريق، كي يصل إلى ذلك المقصد الحقيقي للعرفان، إلى التوحيد المحض للَّه عزّ وجلّ، يعني: كان لديه بعض الصفوف المقدّماتيّة السابقة في هذا المضمار ـ كانا يمشيان معًا بجانب الشاطئ كي يقتربا من مسجد السهلة، وكان المرحوم القاضي يسأله بعض الأسئلة، إلى أن سأله:

«قُل لي: ما هو عملك؟».

فقال: «ليس لي عملٌ».

فسأله المرحوم القاضي: «كيف ليس لديك عمل؟».

فقال: «لأنّني إذا أردتُ أيّ شيءٍ ففي نفس الوقت يتوفّر، انظر، الآن ستقفز سمكةٌ من الماء»، وما إن أتمّ جملته حتّى قفزت سمكةٌ من داخل الشطّ إلى الخارج؛ فقال:

«كلّما أردتُ شيئًا في أيّ وقتٍ، فالوضع بالنسبة لي هكذا»، فلم يقل المرحوم القاضي أيّ شيءٍ بعد ذلك، وقد تحدّثا حتّى بلغا مسجد السهلة فجلسا وأعطاه الدستورات [السلوكيّة]، ثمّ قال: «يجب أن تعمل! في الإسلام ينبغي أن يكون هناك عملٌ، وعليك أن تعمل».

ومنذ ذلك الحين لم يعد للمرحوم الحاجّ الميرزا إبراهيم عرب تلك الإرادة، يعني: مهما أراد لم يكن ليحصل ما يُريد، لو أراد سمكةً لم تخرج، أراد قمحًا، أراد خبزًا، أراد ماءً.. أبدًا انتهى الأمر وذهبت تلك القوّة، قام المرحوم القاضي بأخذ كلّ ما لديه في نفس ذلك المجلس[1].

هل التفتم للأمر؟ ذلك لأنّه الآن يُريد أن يأتي إلى صراط التوحيد.

ما معنى صراط التوحيد؟ يعني: العبوديّة، والعبد هو عبدٌ للّه؛ فما معنى أريد سمكًا، أريد دجاجًا، أو أريد الطعام الفلاني؟! ما معنى أن لا أعمل؟! ما هذا الكلام؟!

على العبد أن يقول: ماذا قال اللّه؟ ماذا قال رسول اللّه؟ وعليه أن يقول بإرادةٍ واحدةٍ حتّى لو وضعوا أمامه سُفَر الدنيا بألوانها: أنا سآكل الخبز والخلّ إذا قال اللّه ذلك؛ عليه أن يقول: أنا سأضع المِعوَل على عاتقي، وسوف أحفر الآبار كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف أزرع أشجار النخيل كي يرضى عنّي مولايَ؛ هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل [ولمّا لم يكن الميرزا إبراهيم بهذا النحو آنذاك] لذا نجد أنّ هذه المسائل ليست موجودة فيه.

أمّا أولياء اللّه؛ الرسول والأئمّة الأطهار وأمير المؤمنين عليهم السلام، فقد كانت لديهم بالنحو الأكمل، وكانوا يستطيعون أن يُحيوا الميّت بإرادةٍ واحدةٍ. وعندما نعلم ذلك نتساءل: كيف كان أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يحمل المعول ويذهب إلى مزارع النخيل ويزرع أشجار النخيل؟! ويدخل إلى القناة ويتصبّب عرقًا، أفلا يُمكنه

(١) لمزيدٍ من الاطلاع حول هذه الحكاية، راجع كتاب ***مطلع أنوار*** (فارسي)، ج ٢، ص ٣٣. (م)

بإرادةٍ واحدةٍ أن يفعل مثل الميرزا إبراهيم عرب ويقول: اخرجي أيّتها السمكة من الشاطيء، ثمّ يأخذها ويقليها ويأكلها؟! مع أنّ الدرجات والمقامات التي بلغها لم تكن لدى ألف شخصٍ مثل الحاجّ الميرزا إبراهيم عرب.

على الشخص الذي يُريد أن يصل إلى مقام التوحيد أن يتجاوز هذه الأمور، وعليه أن يقوم بما قام به الميرزا إبراهيم الذي أخذ بيده المرحوم القاضي ليحصل على هذه المقامات، فأدخله إلى دستور عالم التوحيد، فحصلت له حالاتٌ عجيبةٌ وغريبةٌ جدّاً؛ وحالاتٌ توحيديّةٌ. أنا لم أكن قد رأيت الميرزا إبراهيم عرب، ولكن حينما كنتُ في النجف، توفي في الكاظمين بسبب مصابيح الزينة في أحد الأعياد، حيث كانت هناك مصابيح زينة أمام أحد الدكاكين، فصعقته الكهرباء وارتحل عن الدنيا.

ينبغي أن يكون العمل في عالم العرفان والسير والسلوك للّه، وسواء رأى الإنسان منامًا جيدًا أم لم يرَ، ينبغي أن لا يسعى وراء ذلك؛ فإذا حصلت له مكاشفةٌ فهي من اللَه، ويجب أن لا يسعى لحصولها؛ فما يعطيه اللَه بنفسه هو الذي له قيمة، لا أن يطلبه الإنسان؛ إذن من الأساس ينبغي تجنُّب الطلب من غير اللَه، فذلك المنام الجيّد الذي يراه الإنسان بدون أن يكون هناك سعيٌ في ذهنه، وتلك المكاشفة الجيّدة التي يصادف فيها الإنسان الأرواح المجرّدة الصالحة، وتلك المشاهدة الجيّدة التي تحصل له في عالم الأنوار، والتي لم يسعَ الإنسان لحصولها، بل حصلت له من تلقاء نفسها، هي التي تمتلك قيمةً.

إذن، ينبغي للسالك أن لا يضع في باله غير اللَه من بداية السلوك إلى آخره، وأن لا يعمل لغير اللَه، ولا ينبغي أن يضع شيئًا يعادل اللَه، لا ينبغي أن يقبل عوضًا لعمله بما دون اللَه؛ ومهما حصل في الطريق فليحصل، وكذلك لو لم يحصل، فليكن، فلا حصوله علامة قُربٍ، ولا عدم حصوله علامة بُعدٍ.

علامة القرب هي التوجّه إلى اللَه، وذكر اللَه، والدخول في حرم اللَه؛ وأمّا **علامة البُعد** فعدم الميل إلى العبادة، وعدم الميل إلى ذكر اللَه، والميل للأمور المتكثّرة

والشهوانيّة والغفلة، والإعراض عن اللّه، وحبّ الجاه والمال والرئاسة و...، أو حبّ نفس الأنوار القاهرة والنورانيّة التي هي الحُجب النورانيّة، فجميع هذه الأمور تزول ولا يبقى سوى اللّه فقط، وهذه علامة القرب، ولذا فقد ورد في الأدعية:

«اللَهُمَّ ارزُقنا التَّجافِيَ عَن دارِ الغُرورِ، والإنابَةَ إلَى دارِ الخُلودِ، والاستِعدادَ لِلمَوتِ قَبلَ نُزولِهِ»[1].

علامة صحّة الطريق: أن يرى الإنسان في باطنه وفي نفسه أنّه يميل نحو عالم المعنى والحقيقة، ونحو عالم النور والطهارة والصدق والخلوص أكثر؛ وأن تنفر نفسه من عالم الكثرة ودار الغرور والاعتبارات والسعي وراء المصالح الفارغة، والحروب والنزاعات بين النفوس والتي تجري من أجل أن يتغلّب شخصٌ على الآخر، وينتصر كلّ واحدٍ على الآخر كي يرفع بذلك مقامه ويزيد من ماله.

علامة صحّة الطريق هو أن يزداد توجّه الإنسان إلى ذلك العالم أكثر، وأن يتخلّى عن هذا العالم دائمًا، وأن يستعدّ الإنسان قبل أن يحلّ الموت، يعني: أن يتحرّك نحو عالم المجرّدات، ونحو عالم القدس وعالم الخلوص، هذه هي علامة صحّة الطريق.

والآن، لا فرق بين أن يمتلك الإنسان سجّادًا وأن لا يمتلك؛ فلا امتلاك السجّاد مُضرٌّ ولا عدم امتلاكه مُفيدٌ؛ إنّ المسألة أعلى من ذلك، يعني: الإنسان يُصبح عبدًا للّه حينما يكون السجّاد على الأرض وليس في قلبه، فإذا دخل السجّاد إلى القلب، فسلاسل هذا السجّاد تكون قد تعلّقت بالقلب، وهذه هي الآفة، وهذا الأمر لا يقتصر على السجّاد فقط، بل حتّى لو كان بساطًا من الصوف أو حصيرًا، فإذا جلس الإنسان عليه وتعلّقت سلاسله بالقلب، وأصبح في قلب الإنسان حصيرٌ وبساطٌ، فهو نارٌ؛ لأنّ الإنسان يأتي ـ مثلًا ـ ويستعمل النوع العادي من السجّاد أو يستعمل بساطًا والذي يُعتبر

(١) ***إقبال الأعمال***، ص ٢٢٨؛ وهذا الدعاء من أدعيّة الإمام زين العابدين عليه السلام التي كان يُكرّرها في سجوده، راجع: ***معرفة المعاد***، ج٩، ص ٦٦.

ذا شأنٍ أقلّ في العرف والعادة، فينظر الناس إليه على أنّه زاهدٌ، ويقومون بتقديسه، فهذه آفةٌ ونارٌ؛ ولكن إذا كان ثمّة سجّادٌ ولم تتعلّق سلاسله بالقلب، فإنّ الإنسان يقول: اجلسوا على هذا السجاد لأنّ اللَه أمر بذلك.

لا ينبغي للإنسان أن يذوب كثيرًا مع العُرف والعادات والرسوم بحيث يكون مغاليًا، ولا أن يُهملها بحيث يُشير الناس إليه بأصابعهم ويقولون: يا سيّدي، هذا زاهدٌ، انظر إليه! على الإنسان أن يُسكت ألسنة الناس، وأن يقوم بعمله، ولذا ليس هناك من ضررٍ بأن يكون للإنسان منزلٌ ومسكنٌ يرفع حاجته وحاجة عائلته، ويتخلّص من القلق المُصاحب للاستئجار، ويكون مرتاح البال، فجميع هذه الأمور تدخل في حساب اللَه وليست في حساب النفس والشيطان.

ولكن إذا لم يكن كذلك، وكان لديه بساطٌ من الصوف، فحينما يحسب له حسابًا ويأتي أمر اللَه ويقول: أعطِ! فلن يكون بإمكان الإنسان أن يُعطي؛ يُقال له: افعل كذا في هذا الموقف! فلا يفعل؛ مثلًا: الدرويش المتعلّق بـ«تَبَرْزِينِه»[1] أو بـ«كشكوله»[2]، فتعلّقه هذا حجابٌ بينه وبين اللَه؛ ونفس هذا الكشكول وهذا التَبَرْزين (الفأس) حجابان، ولكن إذا كان شخصٌ آخر ليس كذلك، وافترضوا بأنّه جالسٌ في البستان بجانب حوضٍ من الماء ولكنّه لا يحسب أصلًا أيّ حسابٍ لهذه الأمور، فسوف يكون مستغرقًا بأكمله في عالم النور والأنوار.

إنّ مسألة العرفان مسألةٌ دقيقةٌ ولطيفةٌ وظريفةٌ ومحسوبةٌ، ولا تقوم على أساس التوهّم والتخيّل والابتداع والتصنّع، بل هي مسألةٌ متحقّقةٌ بالحقّ؛ لأنّ الحركة تكون نحو الحقّ، ولذا فإنّ الإنسان يخرج من كلّ ما فيه شائبةُ الموهومات والخرافات

(١) **التَبَرْزين**: فأسٌ لقطع الأشجار والشوك، يأخذه الدرويش في يده كعلامةٍ على فقره، وكعلامةٍ على ذهابه إلى الصحاري وجمعه للخشب. (م)

(٢) **الكشكول**: وعاءٍ بيضاويّ الشكل، وله سلسلةٌ فيُعلّقه الدرويش على كتفه، ويضع الناس فيه الدراهم والدنانير، أو قد يضع فيه رزقه وطعامه، وهو من علامات الزهّاد والدروايش. (م)

والإضافات والتقيّدات والتعيّنات الدنيئة، ويُحرق جميع هذه الأفكار والتخيّلات الحقيرة والدنيئة، ويتحرّك في عالمٍ عالٍ، وفكرٍ عالٍ، ونيّةٍ عاليةٍ، وصراطٍ عالٍ، وهذا من العرفان. إذن على الإنسان أن يُدقّق جيّدًا في هذه المسألة كي تكون إطاعته للّه، وعليه أن يسجد في مرقده ويقول: «**الحَمدُ لِلّهِ الَّذي أَحياني بَعدَ ما أَماتَني وإلَيهِ النُّشور**»[1]، والنشور هو الحركة نحو اللّه، «**الحَمدُ لِلّهِ الَّذي رَدَّ عَلَيَّ روحي لِأَحمِدَهُ وأَعبُدَه**»[2]، والآن عندما عُدتُ من الموت (يعني: حينما استيقظتُ من هذا النوم) فلأجل ماذا؟ عُدتُ **لِأَحمِدَهُ وأَعبُدَه**؛ ولذا فالعبادة للّه؛ وكلّ فعلٍ يقوم به السالك فهو ليس له، بل هو للّه.

وهذه مسألةٌ من المسائل.

الأمر الثاني: الاستقامة والتحمّل والصبر أمام العقبات

وأمّا الأمر الآخر من الأمور التي تُعدّ من الشروط المهمّة جدّاً، والتي ينبغي للسالك أن يضعها في باله، هي قضيّة الاستقامة والتحمّل والصبر؛ فعليه تحمّل المشكلات والصبر والتجلّد في الظروف الصعبة؛ لأنّ هذا الطريق طريقٌ يسير نحو اللّه، وكلّ طريقٍ يُريد الإنسان أن يسير فيه، ففيه موانع، وإذا تعب الإنسان من تلك الموانع، فسوف يتخلّف ويبقى، ففي هذه الطرق التي يُريد الإنسان أن يسلكها إذا واجه الإنسان أرضًا مليئةً بالصخور أو نهرًا أو حفرةً، فقال: لا يُمكنني العبور! فسوف يبقى هناك؛ وأمّا ذلك الشخص الذي يُريد الذهاب إلى مكّة، عليه أن يعبر النهر والخندق، وأن يُزيل موانع الطريق من أمامه، وأن يتحلّى بالهمّة، عليه أن يعبر هذا الطريق في نهاية المطاف.

هل العقبات والموانع في السير والسلوك أكثر منها في الطرق العادية؟

إنّ الموانع الموجودة في طريق السير والسلوك أكثر من الموانع الموجودة في الطرق العاديّة والمقاصد الدنيويّة، وذلك من جهة أنّ الموانع والمعدّات والظروف

(١) ***الكافي***، ج ٢ ، ص ٥٣٩.
(٢) نفس المصدر، ص ٥٣٨.

الموجودة في الطُرق الدنيويّة عبارةٌ عن أشياء مألوفة للنفس، ولذا فالإنسان لا يُعيرها أهميّةً ويعبر عنها، لكن بما أنّ موانع طريق السير والسلوك غير مأنوسةٍ نوعًا ما، فإنّ الإنسان يُعطيها أهميّة، وإلّا فهي ليست أكثر.

مثلًا: هناك موانع تواجه الشخص الذي يُريد أن يُصبح طبيبًا، فعلى الشخص الذي يُريد أن يُصبح طبيبًا مُتخصّصًا أن يُحطّم الموانع، وعليه أن يختار الغربة، وعليه أن يتحمّل ألف مشقّةٍ وبلاءٍ وألف مصيبةٍ، إذا أراد أن يُطالع في الليل، عليه أن يترك الراحة والنزهة وجميع الأعمال لكي يأتي ويُطالع. جميع هذه الأمور موانعٌ؛ وينبغي أن يكون لديه صبرٌ وتحمّلٌ وجلدٌ كي يُوصل عمله إلى غايته المنشودة.

وكذلك الأمر بالنسبة للشخص الذي يريد أن يكون تاجرًا، والشخص الذي يريد أن يكون سُلطانًا في الأرض، تواجهه ألف مشكلةٍ؛ فلا تظنّوا أنّ الأشخاص الذين يُصبحون سلاطين في الدنيا أو رؤساء جمهوريّات قد وصلوا إلى هذه المناصب بسهولةٍ؛ لقد بذلوا دماء قلوبهم ألف مرّةٍ، وسافروا ألف سفرٍ في البحر واليابسة، ووضعوا أنفسهم عند فكّ الحوت، وفي أيدي العدوّ، وتجاوزوا كلّ هذه الأمور حتّى وَصَل هذا المقام إلى أيديهم.

أنواع الموانع والحُجب في السير والسلوك

والأمر كذلك في الطريق إلى اللَه، حيث لا بدّ من العبور عن النفس والحُجب الظلمانيّة والنورانيّة.

فالحجب الظلمانيّة مثل: حبّ الجاه والاعتبار، وحبّ الرئاسة والبخل والحسد والحقد والصفات الرذيلة الموجودة في النفس.

أمّا **الحجب النورانيّة** فمثلًا: على الإنسان أن يتجاوز الحور العين، ويجب عليه أن يتجاوز المقامات الأخرويّة، وأن يسعى إلى أعلى من ذلك من أجل الوصول إلى اللَه، فإنّه إذا جعلوه يرى شيئًا هناك ولم يتمكّن من العبور عنه فسوف يتوقّف هناك.

هناك مسألةٌ نُقلت في كتاب *الشّمس الساطعة*[1] عن المرحوم العلّامة الطباطبائي، حيث كان مشغولًا بالذكر في مسجد الكوفة، وجاءت إليه إحدى الحور العين، حسنًا الأمر عجيبٌ جدّاً! فحور العين هذه كانت له.

- المستمع: ألم يكن ذلك السيد الكلبايكاني؟!
- العلاّمة الطهراني: لا! التي أتت في مسجد الكوفة كانت لنفس سماحة العلّامة الطباطبائي.
- السائل: نعم، نعم! ولكن للسيّد الكلبايكاني قصّةٌ مشابهةٌ؟
- العلّامة الطهراني: السيّد الكلبايكاني.. نعم هو أيضًا رأى في المكاشفة أنّه دخل إلى روضةٍ وحوضٍ وكان لهذا الحوض حافّةٌ جلست عليها فتياتٌ شابّاتٌ، وطبعًا هؤلاء كنّ مُلكًا له، ولو فعل أيّ شيءٍ معهنّ ففعله حلالٌ، ولكن إذا فعل، فسوف يتوقّف ويبقى هناك، وهذه الأمور التي رآها، كانت مِلكًا طلْقًا له، وجعلوه يرى ذلك، هي من أجل أن يصل إلى مقامٍ أعلى؛ لأنّه عبارةٌ عن صفٍّ دراسيٍّ، وهم يجعلونه يعبر هذا الصفّ: أن اُنظر إنّ هؤلاء مِلكٌ لك وعليك أن تعبر هذا المكان. إذا توقّفَ فسوف يتوقّف هنا، عليه أن يعبر؛ ولذا قال عبارةً صحيحةً: «رأيتُ أنّهنّ حرامٌ عليَّ» ومعنى أنّهنّ حرامٌ عليه، أي: ممنوعين، وإذا انشغلتُ بهنّ فسوف أبقى هنا، لذا قال: «خرجتُ من باب الروضة»، وكلامه هذا صحيحٌ وحسنٌ جدّاً، والشكر للّه أنّه خرج منها، وإلّا لبقي هناك.[2]

أو نفس قضيّة العلّامة الطباطبائي حيث قال: «جاءت الحور العين، وتأثّرت من تجاهلي لها، وذهبت ثمّ جاءت من جهةٍ أخرى، وحاولت أن تجاملني»، وقد قال سماحته:

(١) راجع: كتاب ***الشمس الساطعة***، ص ٢٩. (م)

(٢) لمزيدٍ من الاطلاع على هذه المكاشفة، راجع: ***معرفة المعاد***، ج ١، ص ١١٦. (م)

«ما زال قلبي يحترق حتّى الآن على تلك الحوريّة حينما أتذكّرها بسبب التأثّر الذي حصل لها بسببي»، ولم يكن هناك من حلٍّ آخر؛ لأنّ أستاذه كان قد أمره حينما تكون متوجّهًا إلى اللهَ، فعليك أن لا تذكر إلّا اللهَ وحسب.

ومن باب المثال: إذا كان الإنسان يُصلّي، وكان لديه توجّهٌ وحضورٌ نحو اللهَ، ولو كان هناك امرأةٌ جميلةٌ وجمالها من الطراز الأوّل في الدنيا، وقيل له في ذلك الوقت: إنّها حلالٌ عليك، وأصلًا هي زوجتك، فانظر إليها وإلى جمالها. والآن هل يُمكن للإنسان أن ينظر إليها أثناء الصلاة؟! حتماً سيزول حضور قلبه.

ولو أنّ نفس هذه المسألة حصلتْ في الذهن فحصلت مكاشفةٌ في الذهن، بحيث جاءت حورٌ عينٌ للإنسان أثناء صلاته، ومثلما حصل بالنسبة لتلك المرأة التي في الخارج، حصل له هنا، وعلم بأنّها له وحلالٌ عليه، فهل يُمكنه في هذه المكاشفة التي تحصل له أثناء الصلاة أن يتوجّه إليها؟ لا يُمكنه ذلك؛ لأنّه يتكلّم مع اللهَ، وهو فوق جميع الحور العين، وقيمة الخلوة معه للحظةٍ تُضاهي آلاف الحور العين، فإنّ جميع حسنهنّ منه، وجمالهنّ منه، وكمالهنّ منه، إنّهنّ ظهورٌ له، هو خالق الحسن وخلّاق الحسن والكمال، والسالك يُريد أن يصل إلى قمّة ذلك الجبل، وأن يجلس على تلك السفوح الخضراء لذلك الجبل. عليه أن يذهب إلى أعلى قِمّة التوحيد، والذهاب إلى قمّة التوحيد مشكلٌ؛ حيث يجب على الإنسان أن يتحمّل الحرّ والقرّ، وأن يأتي بعصا معه، وأن يُحضر الزاد والراحلة.

ولو قالوا للإنسان: يا سيّد إلى أين تذهب؟! ما هذا الذي تفعله؟! لماذا أصبحتَ زاهدًا؟! أنت أيضًا تعال مثل باقي الرؤساء وقم بهذا الفعل، وقم بذلك الفعل، لماذا لا تهتم بعمرك؟ إنّك في بداية شبابك، فتعال وشارك في هذا المؤتمر العلمي وذلك المؤتمر، تغلّب على منافسك! إنّه أقلّ منك، ودرجته أقلّ منك، أو تعال واحصل على قصرٍ ربيعيّ وصيفيّ، أو مثلًا: اجلب لنفسك السيّارة الكذائيّة، والشيطان يأتي دائمًا ويُقدّم الأمور للإنسان، والإنسان إذا ما أُعجب بهذه الأمور، فسوف يبقى ويتوقّف هنا.

وأمّا الشخص الذي يُريد أن يصل إلى قمّة الجبل، فلا يُمكنه أن يصحب معه سجّادةً عجميّةً حريريّةً مطرّزةً، ولا يستطيع أن يحمل على عاتقه مذياعًا وتلفازًا، بل يجب أن يكون خفيفًا، ومن هنا نجد أنّ الأشخاص الذين يتسلّقون الجبال يقولون بأنّ لباسهم يكون أخفّ الألبسة، وأحذيتهم أخفّ الأحذية وزنًا، ولا يأخذون طعامًا معهم، بل يكتفون بقطعٍ من الحلوى والتمر، وكلّما جاعوا أكلوا حبّةً من التمر فقط حتّى يتقوّوا بها، وإلّا فإنّ الشخص الذي يُريد أن يصعد إلى قمّة الجبل، إذا أراد أن يُحضر معه المرق والفسنجون[1] والحَجَل والسُمّان والدجاج، فلن يستطيع أن يصعد إلى أعلى الجبل ولن يكون بإمكانه الوصول إلى غايته.

كيفيّة تجاوز العقبات السلوكيّة

والأمر كذلك بالنسبة لمسألة التوحيد، فهناك مشكلاتٌ، وعلى الإنسان أن يُحطّم هذه المشاكل بتوفيقٍ من اللَه، ويجب أن تكون لديه همّةٌ عاليةٌ، كما يجب على الإنسان أن يطلب من اللَه أن يرفع عنه هذه المشاكل. ويجب عليه أن يتوكّل على اللَه، ويتوسّل بالأئمّة عليهم السلام، وبالأخصّ التوسّل بحضرة إمام الزمان المهديّ ـ عجّل اللَه فرجه الشريف ـ صاحب مقام الولاية الكليّة والإلهيّة لحضرة الحقّ؛ وهكذا يجب على الإنسان أن يتوجّه إلى اللَه في الجلوة والخلوة وفي اليقظة والنوم، والإمام واسطة الفيض لإفاضة تلك الأنوار، ومن خلال التوكّل على اللَه والتوسّل بالأئمّة سوف ترتفع الموانع.

نماذج من العقبات التي تحتاج إلى الصبر

يأتي زيدٌ من الناس ويقول: «تعال الليلة لنذهب معًا إلى المجلس الفلاني أو السهرة الفلانية أو الجلسة الفلانية»، وهي من الأمور غير المحرّمة، وحتمًا ليست حرامًا بل هي

(١) الفِسَنجون أو الفِسنجان: أكلةٌ إيرانيّةٌ مشهورةٌ، مكوّنةٌ من الدجاج والجوز. (م)

حلالٌ، ولكنّها لا تُفيد الإنسان، ولن يحصل منها إلّا على إتلاف عمره، يجب أن يقول: «يا سيدي! لديّ مانعٌ، ولا يمكنني الذهاب».

ويأتي آخر ويقول: «يا سيدي كأنّك تقوم بسجدةٍ طويلةٍ؟! كأنّك أصبحت من الصوفيّة؟! هل جلستَ مع الصوفيّة؟! إنّ الذين يقومون بالسجدات الطويلة هم الصوفيّة، فلماذا تقوم بذلك؟!» لو أنّ الإنسان استمع إلى ما يقولون ورتّب عليه أثرًا، لانتهى أمره. فمن أين كانت السجدة الطويلة للصوفيّة؟! إذا كان هؤلاء الصوفيّة الذين يمشون خلاف الممشى والطريقة يقومون بالسجدات الطويلة للّه، فهنيئًا لهم بذلك.

إنّ السجدة الطويلة من مختصّات الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، والسجدة الطويلة من مختصّات الإمام السجّاد عليه السلام، والسجدة الطويلة من مختصّات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فهل كانت تلك الحالات وتلك الصلوات وذلك الذوبان من الأساطير، وهؤلاء الصوفيّة هم الذين جلبوها لنا؟!

إذن، فكلّما أراد شخصٌ أن يتحقّق بالحقّ، ويُطهِّر نفسه قليلًا، ويُصحّح ويُعدّل نفسه قليلًا، ويتفكّر في أموره قليلًا، ويقترب من هؤلاء الأعاظم قليلًا، فإنّك تجدهم يُسارعون إليه ويُلصقون به العناوين ويقومون بإسقاط هذا المسكين ذو الحظّ القليل، فيقولون: «إنّه يتقدّس ويتزهّد تصنّعًا، إنّه صوفيٌّ يسجد سجدةً طويلةً، ويقول الأذكار، وكلامه قليلٌ، ومنعزلٌ، ولماذا أصبح هكذا؟».

يا عزيزي! في نهاية المطاف أنت لا تعرف الوجع الذي لدى هذا الشخص، ولا تعرف ما الذي يجري في قلبه! حسنًا، انشغل إذن بعملك، انشغل بجميع هذه العقبات والمشاكل التي أوجدتها لنفسك، وجعلت نفسك تعمل من الصبح إلى المغرب، وكما يقول جنابكم: يأخذ قلم رصاصٍ أو قلم حبرٍ من أملاك بيت المال، ويضعه في جيبه، ويذهب به إلى المنزل، وقلبه مسرورٌ فرحٌ، فهل هذه هي الغاية وباقي الأشياء لا قيمة لها؟! وجميع الأعمال والتعيّنات الدنيويّة لا تتجاوز ذلك.

أنا لي ألمٌ وألمي ووجعي هو اللَه، وطالما لم أصل إليه، فلن أهدأ. إنّك لا تعرف شيئًا عن ألم النار التي تشتعل في قلبي! وإلّا لو كنت تعلم، لبقيت صامتًا مثلي، أنا لا أريد أن أصمت تصنّعًا، ولكن ذلك الغمّ والغصّة وذلك الحزن الذي في قلبي، وتلك الشرارة التي اشتعلت وأحرقت كلّ وجودي، لا تجعلني أتمكّن بعد الآن من أن آتي للجلوس في المجالس العاديّة التي لكم، وأن أتناقش معكم، وأتسامر وأقهقه معكم، وأن أمازحكم، وأغتاب هذا، وأغتاب ذاك، وأن أذكر أمورًا سيئةً عن فلان، وأمورًا جيّدةً عن فلان، وأقوم بالتمجيد والتعظيم والتكذيب في غير موقعه، لم يعد بإمكاني بعد الآن أن أقوم بهذه الأمور، والآن قولوا كلّ ما شئتم أن تقولوه.

وعند ذلك، هذه هي المواطن تحتاج إلى الصبر كي يتمكّن الإنسان من طيّ الطريق، وإلّا إذا لم يكن لدى الإنسان الصبر والجَلَد، فسوف تأتيه الآفات من كلّ حدبٍ وصوبٍ؛ سيُوجّه إليه انتقادٌ، سيسمع كلامًا مؤذيًا، سيسمع مديحًا في غير محلّه، فعليه أن يُقصي هذه الأمور عن نفسه؛ لأنّه إذا استقرّ هذا ـ المديح الذي هو في غير محلّه ـ في قلبه، فسوف يُصبح مانعًا من الطريق، ولكي لا يقبل به، عليه أن يصبر، ويقول: طريقي هو اللَه، والمديح لا ينفعني بشيءٍ؛ وكذلك إذا جاء الانتقاد فعليه أن يُقصيه جانبًا ويقول: إنّني إنّما أعمل من أجل اللَه، وحينما أعلم بأنّ اللَه راضٍ عن عملي، فانتقدوني [ولن يؤثّر بي هذا الانتقاد]!

لا ينبغي للسالك أن يُقارع العوام أو يُجادلهم

وبالطبع لا ينبغي للإنسان أن يتجادل مع الناس، بل عليه أن يمضي في طريقه؛ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1]، عباد اللَه ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ والعباد المنتسبين إلى اللَه ليسوا عبيد الأرض والشهوة والغفلة، وليسوا عبيدًا لغير اللَه، وإنّما هم عبيدٌ للَّه، وهؤلاء العباد يمشون على الأرض

(١) سورة الفرقان (٢٥)، الآية ٦٣.

هونًا ويقطعون طريقهم بالسكينة والطمأنينة، وعندما يُخاطبهم الجاهلون ويتعرّضون لهم، فإنّهم يقومون بعملهم ويتجاوزونهم بسلامةٍ.

افترضوا إنسانًا كان يعبر بجانب حائطٍ أو زقاقٍ، وكان هناك كلبٌ وصار ينبح عليه، ففي هذه الحالة لا نجد أيّ إنسانٍ يذهب إلى ذلك الكلب ويقول له: لماذا تفعل معي ذلك؟! أنا لا أنظر إليك نظرة سوءٍ، ولذا عليك أن لا تفعل هذا الفعل معي. ومن هنا يجب على الإنسان أن يقوم بعمله بسرعةٍ، ولا ينبغي له أن يدخل في جدالٍ مع الجاهلين ولا أن يُقارعهم ويُواجههم أو يُحاول إقناعهم بأنّ عمله صحيح.

نعم! أحيانًا يتحاور الإنسان معهم وذلك حينما يكون الأمر مفيدًا لهم، يُقرّبهم إلى اللَه، يُنير لهم الطريق؛ أمّا الجهلاء فيُريدون أن يسحبوا الإنسان ويأتوا به إلى جماعتهم ومحيط أفكارهم، ويُريدونه أن يكون مثلهم.

وقد ورد في عبارات الأعاظم بأنّه حينما تحصل هذه الكلاب على جيفةٍ، فإنّهم يتقاتلون فيما بينهم عليها، كلّ واحدٌ منهم يريد أن يأخذ تلك الجيفة لنفسه، ولكن حينما يعبر رجلٌ ما بجانب الزقاق، فإنّ جميع هذه الكلاب تهجم عليه، لماذا يهجمون بأجمعهم؟ لأنّ هدفهم واحدٌ عند أكل الجيفة، أكل الجيفة هدفٌ لهم بأجمعهم، ولكن بما أنّ مسلك هذا الرجل يختلف عن مسلكهم، فإنّهم يهجمون عليه بأجمعهم، ولسان حالهم يقول: لماذا أنت إنسانٌ؟! لماذا لستَ على مسلكنا وفي نفس طبَقتِنا؟! فهؤلاء الذين لم يصدر لهم صوتٌ عند أكل الجيفة، تجدهم الآن ينبحون بأجمعهم على هذا الإنسان، وأنّه لماذا أنتَ إنسانٌ؟! هؤلاء الناس الجهلاء، لهم نفس الوضع أيضًا، فأنتَ إذا تحدّثت مع أيّ شخصٍ من الأشخاص الذين اتخذوا سبيلًا غير طريق اللَه وغير السلوك إلى اللَه، فستجد أنّهم يُريدون أن يضمّوا الإنسان إلى مجموعتهم.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «**الناس ثلاثةٌ: عالِمٌ رَبّاني ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبيلِ النَّجاة وهَمَجٌ رُعاعٌ**»[1].

(١) ***الخصال***، ص ١٨٦؛ ***تحف العقول***، ص ١٦٩؛ وجاء في ***معرفة الإمام***، ج ٤، ص ٢٠٦:

إنّ الهمج الرعاع يقولون: تعالَ إلينا! تعالَ وفكّر كما نُفكّر! تعالَ وانظر للأمور مثلنا! تعالَ واعتقد بما نعتقد! تعالَ واختلط معنا! تعالَ وكن واحدًا منّا! وإذا أعطى الإنسان نفسه قليلًا، سيُصبح مثل ناقة الأضحية التي يُنحر رأسها، ثمّ يُقطّعونها قطعةً قطعةً، ثمّ يأخذونها.

على المؤمن أن يستمدّ من قوّة الإيمان والتوكّل على اللّه، وعليه أن يقف في مكانه بثباتٍ، «**المُؤمِنُ كَالجَبَلِ الرّاسِخِ لا تُحَرِّكُهُ العَواصِفُ**»[1] إنّ الرياح حينما تعصف تُحرّك الأشجار وتقلع بعض الأسقف المعدنيّة وتُخرّب المنازل؛ ولكنّنا لم نر أبدًا أنّه حتّى أكبر العواصف وأشدّ الأعاصير التي تقع بين السماء والأرض، استطاعت أن تُحرّك جبلًا من مكانه، والمؤمن هكذا أيضًا: **كَالجَبَلِ الرّاسِخ**.

إنّ هبوب الرياح ـ ولو كانت هذه الرياح أعاصير شديدة ـ لا تهزّ الجبال، وهذا المؤمن الذي يسير في صراط الحقّ مع قوّة الحقّ، وقد شخّص في قلبه ما هو الصراط وما هو الطريق، وهو يقيس جميع هذه العواصف وهذه الأفكار وهذه الخيالات وهذه الدعوات التي تصله، يقيسها بأجمعها من خلال قلبه، ويقول: «لا، هؤلاء على خطأ، وأنا إنْ ذهبتُ في هذا الطريق، سأفعل حرامًا وسأخسر وأكون محرومًا، وذلك الشخص الذي دعاني ساعةً إلى المكان الفلاني، أضاع من عمري ساعةً كاملةً، ولا يقتصر الأمر على ساعةٍ واحدةٍ، بل لمدّة ساعةٍ سارت روحي ونفسي في هذا المسير وتوقّفتُ عن القيام بأعمالي؛ ولا بدّ لي أن أكون على صراط الإيمان وأن أتحرّك» وفي هذه الحالة يكون المؤمن موفّقًا.

«قالَ كُمَيلُ بنُ زِيادٍ: أَخَذَ بِيَدي أميرُ المؤمنينَ عَلِيُّ بنُ أَبي طالبٍ عليه‌السّلام فَأخرَجَني إلى الجَبّانِ فَلَمّا أصحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَداءَ ثُمَّ قالَ: «**يا كُمَيلُ إنَّ هَذِهِ القُلوبَ أوعِيَةٌ فَخَيرُها أوْعاها، فَاحفَظْ عَنّي ما أَقولُ لَكَ: النّاسُ ثَلاثَة: فَعالِمٌ رَبّانِيٌّ، ومُتَعَلِّمٌ عَلى سَبيلِ نَجاةٍ، وهَمَجٌ رُعاعٌ أتباعُ كُلِّ ناعِقٍ، يَميلونَ مَعَ كُلِ ريحٍ، لَم يستَضيئوا بنورِ العِلمِ، ولَم يلجَؤوا إلى رُكنٍ وَثيقٍ**».

(١) هذه الجملة المشهورة مأخوذةٌ من روايةٍ لأمير المؤمنين عليه‌السّلام وردت في ***الكافي***، ج١، ص ٤٥٤؛ ***المناقب***، ج٢، ص ٣٤٧. (م)

تشبيه السالكين بالطيور في كتاب منطق الطير

للشيخ العطّار حكايةٌ في «*منطق الطّير*»، وقد استوعبت مجموع كتابه، يقول: اجتمعت الطيور مع بعضها البعض، وقالت: تعالوا نذهب سويًا لنبحث عن طائر «السيمرغ»[1] علّنا نجده، واستمرّوا يقولون: سيمرغ، سيمرغ، سيمرغ، ونحن لم نر حتّى الآن أيّ سيمرغ، تعالوا نذهب لنجد السيمرغ! أكثر من نصف الطيور قالوا: «ما هذا الكلام؟! حسنًا لو كان السيمرغ موجودًا لكان رآه شخصٌ! ولكن بما أنّه لم يره أحدٌ حتّى الآن، وهو أسطورةٌ وخيالٌ من الأساس، لذا أخرجوا الباطل من رؤوسكم، ونحن لسنا من أهل هذا الطريق».

إلّا أنّ مجموعةً من الطيور تحرّكت وطارت إلى السماء تبحث عن السيمرغ، وقد وصلوا إلى أماكن مليئة بالخضرة وينابيع الماء، فأُعجب بعضهم بالعيون والماء والنباتات، فنزلوا وتوقّفوا هناك، أمّا البقيّة فقد واصلوا الطريق؛ لكنّ البعض مثل البطّة، عندما وصلوا إلى بحرٍ وإلى البحيرة أو المستنقع نزلوا إليها، كذلك الإوز نزل إلى أحد الأماكن، ونزل النسر إلى أحد الأماكن ليتناول الجيف، وهكذا يُعدّد أصناف الطيور التي نزل كلّ واحدٍ منها في مكانٍ من الأمكنة.

كذلك فإنّ مجموعةً تقدّمت جدّاً إلى الأمام ولم يعتنوا بهم، وحينما رأوا بأنّ شمس الصيف حارّةٌ، قالوا: هذا السفر سفرٌ خطرٌ، وتغلّب عليهم الخوف، وقالوا: نحن إذا تقدّمنا سوف نموت، ولذا فقد نزلوا هناك.

وبقيت مجموعةٌ فقط، وكان عددهم ثلاثين طائرًا (سي مرغ)، وهؤلاء هم الذين تقدّموا وتقدّموا وتقدّموا وتقدّموا حتّى وصلوا إلى «جبل قاف»؛ لأنّه كان يُقال بأنّ السيمرغ يجلس على قمّة جبل قاف، فذهبوا وجلسوا على قمّة جبل قاف، وأرادوا أن

---

(١) **السيمرغ**: يُمثّل من جهةٍ طائرًا أسطوريّاً لم يستطع أن يراه أحدٌ، ومن جهة أخرى كلمة «سيمرغ» مكوّنة من كلمتين بالفارسيّة: «سي» تعني: ثلاثين، و«مرغ» تعني: طائر، وبالتالي مجموعهما «سي مرغ» يعني: ثلاثون طائرًا. (م)

يجدوا السي مرغ، فنظروا هنا وهناك، ورأوا أنّه يا للعجب! هم أنفسهم الـ(سي مرغ)، لقد وجدوا السيمرغ.

يعني: إذا كنتَ تُريد أن تجد اللَه، فعليك أن تجد نفسك، عيبنا هو أنّنا أضعنا أنفسنا، ولم نعرف أنفسنا، ولم نسعَ نحو معرفة أنفسنا، لنرى من نكون نحن؟! بل ذهبنا نسعى خلف علوم الخارج، فأصبح أحدنا طبيبًا والآخر فيزيائيّاً وآخر كيميائيّاً، والآخر مهندسًا، والآخر صار عالمًا دينيّاً ـ مثلًا: صار مُفسّرًا أو محدّثًا أو فقيهًا ـ وكلّها بدون عرفان؛ ولكنّنا لم نذهب لنجد أنفسنا لنعرف من نكون نحن؟ فأنا إذا عرفتُ نفسي، وبعد أن [حصلتُ هذه المعرفة و] أصبحتُ مستغنيًا عن معرفة نفسي، ذهبتُ إلى العلوم الخارجيّة، فهذا العلم سيكون مباركًا، غير أنّي [في الواقع لم أفعل ذلك، بل] ما زلت مسكينًا لا أعرف نفسي بعدُ.

إنّ مقولة «**مَن عَرَفَ نَفسَه فَقَد عَرَفَ رَبَّه**»[1] مِن أنفس المقولات التي وردتنا وعليها شواهد عجيبةٌ وغريبةٌ، هذا هو المطلوب، على الإنسان أن يجد اللَه في نفسه، ففي ذات الإنسان يُوجد سرّ اللَه؛ وللَه معيّةٌ مع ذات الإنسان، قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾[2]، مع حقيقتكم، فاذهبوا وجِدوا أنفسكم واعرفوها! كي تجدوا اللَه.

إنّ السيمرغ ليس موجودًا خارجًا عن الحقيقة، ولذا لا يُرى أيضًا، ولذا في حكاية الطيور لم يُرَ؛ لأنّه غير قابلٍ للرؤية في هذا الشكل؛ ولكن حقيقة ذلك السيمرغ، هي نفس الطيور الثلاثين (سي مرغ). اذهب واعبر عن هذه المراحل، عن هذه الشهوات، وعن هذه الغفلات، عن هذه الينابيع والمياه والمستنقعات، وعن هذه الأهوار، وعن هذه الجِيف، كي تتمكّن من الوصول إلى مقام السيمرغ وتجده.

وهذه كنايةٌ عن أنّه ينبغي أن تكون همّة الإنسان عاليةً دائمًا، مثل أولئك الطيور الثلاثين حيث قالوا: علينا أن نذهب ونجده؛ ولم ينخدعوا بينابيع الماء، فمثلًا مجموعة

(١) ***عوالي اللئالي***، ج ٤، ص ١٠٢.
(٢) سورة الحديد (٥٧)، مقطع من الآية ٤.

الحمام مالوا إلى الحمائم أمثالهم، فنزلوا في أحد الأماكن، أمّا هؤلاء فرأوا أمثالهم ولم ينخدعوا بهم؛ لم ينخدعوا بأمثال الإنسان في الشرف والمقام والأمور الكذائيّة، بل استمرّوا وذهبوا وذهبوا وذهبوا، وقالوا: سنبقى نسعى خلف السيمرغ حتّى نجده؛ ففي النهاية إلى متى نبقى قابعين في الجهالة؟! كانت الشمس تُحرقهم بلهيبها، ومع ذلك لم يهتمّوا، فمضوا ووصلوا إلى مقصدهم. إنّ هذه الحكاية لطيفةٌ جدّاً، وهي تُجسّد هذا المعنى للإنسان بشكلٍ لطيفٍ وجميلٍ.

إنّ قضيّة «**مَن عَرَفَ نَفسَه فَقَد عَرَفَ رَبَّه**»، تُمثّل عكس النقيض[1] ـ بحسب المصطلح المنطقي ـ لآية ﴿**نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ**﴾[2]، فهذه الآية التي في القرآن تقول: ﴿**نَسُواْ ٱللَّهَ**﴾ فجعلهم الله ينسون أنفسهم، ما معنى ذلك؟

يعني: الشخص الذي لا ينسى نفسه ويلتفت لها على الدوام، والذي يكون عارفًا بنفسه، ويكون دائمًا في حالةٍ من الذكر للّه والذكر للقاء الله وعرفانه. فعرفان الله مترتّبٌ على ماذا؟ مُترتّبٌ على معرفة الإنسان نفسه؛ وهذه الطُرق التي ذُكرت في الشريعة المُطهّرة كلّها من أجل هذا المعنى، معناها هو أنّ يُزكّي الإنسان نفسه، ولذا نقول: كلّ عملٍ يكون للّه فهو مقبول، ولكن ما معنى أن يكون للّه؟ يعني: أن لا ينطوي على غرضٍ أو مرضٍ أو نيّةِ رياءٍ ولا يكون فيه شيءٌ، بل ينبغي أن يكون لله، وعندها سيُطهّر هذا العمل الإنسان ويُوصله إلى السيمرغ وإلى ذلك المقصد.

---

(١) عرّف الشيخ المُظفّر ـ رحمه الله ـ عكس النقيض في كتابه ***المنطق*** بأنّه: «تحويل القضيّة إلى أخرى موضوعها نقيض محمول الأصل، ومحمولها نقيض موضوع الأصل، مع بقاء الصدق والكيف»، وكتطبيق على الآية: موضوع القضيّة فيها هو: ﴿**نَسُواْ ٱللَّهَ**﴾ ومحمولها هو: ﴿**فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ**﴾، فإذا أردنا عكسها بعكس النقيض تُصبح: لم يُنسهم أنفسهم فلم ينسوا الله، ولو بدّلنا كلمة المعرفة مكان عدم النسيان (وهي تساويها في المعنى هنا) فإنّها تُصبح هكذا: عرفوا أنفسهم فعرفوا الله. (م)

(٢) سورة الحشر (٥٩)، مقطعٌ من الآية ١٩.

يُصلّي صلاته من أجل طهارة النفس؛ ويصوم من أجل طهارة النفس، ويُنفق من أجل طهارة النفس، ألا يستطيع اللَه أن يمنح المال مثلًا، وأن يُغني جميع فقراء الدنيا؟! لماذا يقول لنا: عليكم أن تُجهدوا أنفسكم وأن تتصبّبوا عرقًا، وعندها ادفعوا خمس أموالكم؟! حسنًا هذا هو التطهير؛ دفع الخمس تطهيرٌ، فإنّ للإنسان تعلّق بالمال، وإعطاء المال في سبيل اللَه ـ لا في سبيلِ غير اللَه ـ يُؤدّي إلى تطهير الإنسان، ويُؤدّي إلى تقرّبه، ألا يستطيع اللَه أن تكون إرادته بحيث لا يستيقظ الإنسان في الليل وفي منتصف ليلةٍ شتويّةٍ كي يتوضّأ ليُصلّي ركعتين للَّه؛ لكنّه قال: عليك أن تفعل هذا العمل كي تطهّر نفسك وتزول منها الأوساخ. وعند ذلك، نرى فجأةً أنّ ما قيل للإنسان ـ وظنّه خيالًا، وتصوّره كذبًا ـ عن تحقّق القيامة ولقاء اللَه والروحانيّة والمعنويّة، كلّ ذلك كان صحيحًا.

* * *

الجَلسَةُ الثَالِثَةُ

ضَرُورَةُ كِتْمَانِ الأَسرَارِ الإِلَهِيَّةِ
وَالآثَارُ السَيِّئَةُ لِكَشْفِ السِرِّ

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَيْطَانِ الرَجِيم

بِسْمِ اللــهِ الرَحْمَنِ الرَحِيم

وَصَلّى اللــهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطَاهِرين

وَلَعْنَةُ اللــه عَلى أَعْدَائِهِم أَجْمَعِين

الأمر الثالث: كتمان السرّ

من المسائل ذات الأهميّة الكبرى في السير والسلوك، والتي أكّد عليها أعاظمُ عِلم الأخلاق في وصاياهم لتلامذتهم من أوّل المنازل حتّى آخرها هي مسألة **كتمان السرّ**.

مفهوم السرّ ومراتبه

السِرّ يعني: الأمر الذي يُقابل **العَلَنْ**، السِرّ معناه الأمر غير المعلن والخفيّ. والأمر الخفيّ في طريق السير والسلوك لا بدّ أن يكون أمرًا إلهيًّا، أو حالًا من أحوال النفس، أو موضوعًا لم يُظهره اللَه لأحدٍ وأظهره لهذا الإنسان المعيّن؛ فهذا الإنسان هو الذي يمتلك هذه الحال وليس كلّ الناس، فإعلانه غير جائزٍ، ولا بدّ أن يحتفظ به لنفسه.

ومن هنا فإنّ السرّ يختلف في كلّ منزلٍ عنه في الآخر، فمثلًا: الإنسان الذي يمتلك تقوىً وإيمانًا عاديّاً بالإسلام، إذا ما جالَس المسلمين فإنّه يقول: أنا مسلمٌ، أنا مؤمنٌ، أنا تقيٌّ، أنا موالٍ، ولكنّه إذا ما جالَس أهل السنّة في بعض الأوقات فلا يمكن أن يقول: أنا موالٍ لأمير المؤمنين؛ لأنّ المسألة بالنسبة إليهم ليست كما هي بالنسبة له.

كذلك فيما بين المؤمنين ـ حيث الجميع من أهل الإيمان والتقوى ـ إذا حصل المؤمن على شيءٍ من النورانيّة وفهم بعض الأشياء، فليس له الحقّ أن يُخبر الآخرين؛ لأنّ هذه موهبةٌ إلهيّةٌ مختصّةٌ به، والحديث عنها للآخرين يستلزم مشكلاتٍ كثيرةً، ولكن لو حدّث بها مَن هم في مرتبته ودرجته فلا إشكال في ذلك؛ لأنّ إخبارهم بها ليس في الحقيقة كشفًا للسرّ، بل هو أمرٌ اطّلعوا عليه بأنفسهم وعرفوه في نفس المرحلة والمنزلة ووصلوا إليه.

وإذا ما ارتقى أكثر أيضًا فسوف تنكشف له مسائل أخرى، وربّما كان في تلك المرحلة مَن هُم أمثاله وفي نفس مستواه الفكريّ وفي نفس المنزلة، فلا عيب في أن يُطلعهم على تلك المسائل.

وهكذا يسير ويسير إلى أن يصل إلى حرم اللَه ومقام الوَصْل واللقاء، ومقام ورود حرم أمن اللَه وأمانه، وهناك إذا ما أفشى إلى أيّ موجودٍ دون الذات المقدّسة فقد كشف السرّ؛ لأنّ هناك حَرمٌ، وهناك رمز الإنسان، ومحلّ أسراره هو الذات المقدّسة لحضرة الحقّ؛ فهناك لا يمكن أن يتكلّم بشيءٍ، لماذا؟ لأنّه إذا ما تكلّم فقد كشف السرّ، والمقام هناك ليس مقام كشفٍ، ولا مقام كلامٍ، هناك ليس إلّا الذات، والذات وحدها هي المطّلعة على ذاتها.

السبب في خطورة كشف السرّ أنّ الطريق طريق عشق

إذا ما كشف الإنسان السرّ، غضب اللَه عليه ولم يحبّه؛ لأنّ الحرم حرمُ الأمن، والطريق طريقُ العشقِ، طريقُ المحبّةِ، ولا يمكن طيّ هذا الطريق بغير عشقٍ ومحبّةٍ، ومن رموز العشق والمحبّة أن تُحفظ أسرار الحرم فيه ولا تُفشى خارجه.

لاحظوا علاقات الحبّ العابرة المجازيّة هذه، فسوف تجدون بأنّه لو كان هناك سرٌّ بين المعشوق والعاشق، وأبرز العاشق سرّه فإنّ هذا من أعظم الذنوب، ولو ارتكب كافّة الذنوب فليست عند المعشوق بمقدار إفشاء هذا السرّ. حيث قمتَ بإفشاء هذا

السرّ الخاصّ الذي هو بيني وبينك وأبرزته للغير، «**كُلُّ ذنبٍ لكَ مغفورٌ سِوى الإعْرَاضُ عَنّي**»[1] فأنتَ إذ بيّنته للآخرين فهذا إعراضٌ منك عن مقام الوَصْل والوحدة والمحبّة والحميميّة والوداد ووحدة الحال التي بيننا، ذهبتَ إلى الغير، وهذا الذنب، ذنبٌ لا يغفر.

ولذلك، فإنّ اللَه غيورٌ أيضًا، وقد رُويَ عن النبيّ: «**إنّ سَعْدًا**[2] **لَغَيُوْرٌ وَأنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللـهُ أَغْيَرُ مِنّيْ، وَمِنْ غِيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»[3]، و«**الفواحش**» هي الأعمال السيّئة التي لا ينبغي أن تظهر. «**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنْ**»، فلأنّه غيورٌ ويكره السيّئات لذا فقد أخفاها. فإذن، اللَه العليّ الأعلى أخفى ما ينبغي أن يُخفى، وهذا معنى غيرته.

نتائج إفشاء السرّ

أ. الاستدراج

إنّ الأسرار التي بين العبد وربّه تختصّ بالعلاقة التي بينهما، فإذا ما أبرزها الإنسان للغير، فإنّ اللَه ـ وبسبب صفة الغيرة تلك التي هي إحدى صفاته ـ يغضب ويطرد العبد.

والآن ما أعظم المصائب التي ستحلّ بهذا المسكين الذي أبعده اللَه؟! إنّه سيُصاب بأصعب مشكلةٍ وبلاءٍ؛ فما هو هذا البلاء؟! إنّه الاستدراج، يعني: سيُبعده ويُبعده شيئًا فشيئًا من حيث لا يشعر، ويهبط به درجةً درجةً إلى أن يصل إلى أسفل السافلين وإلى الانحطاط.

---

(١) جاء في ***قوت القلوب***، ج ٢، ص ٩٦: سمع إبراهيم بن أدهم وهو أحد المحبّين قائلًا يقول في سياحته نظمًا:

كلّ شيءٍ لك مغفورٌ سوى الإعراض عنّي قد وهبنا مِنك ما فاتَ، بَقِي ما فات منّي.

(٢) المراد من سعدٍ، هو سعد بن عبادة وهو رجل غيور كما نُقلت قصّته في التاريخ. (منه قدّس سرّه)

(٣) ***جامع السعادات***، ج ١، ص ٢٣٩؛ ***كنز العمّال***، ج ١١، ص ٦٨٨، باختلافٍ يسير؛ ***الشمس الساطعة***، ص ٢٣٠.

يقول اللَه له: لقد أخبرتك بأمرٍ من أمور مقام الإخلاص والتوحيد، لقد أعطيتك حالًا جيّدةً، وارتباطًا بي، فقُمت بإفشاء سرّي، ذلك السرّ الذي بيني وبينك والذي لا ينبغي لأحدٍ أن يطّلع عليه، وقلبُك يشهد أنّه سرٌّ بيني وبينك.

- المستمع: ماذا لو أخبر به شخصًا في مرتبته؟!
- العلّامة: نعم، نعم! لا يجوز أن يقول للغير، ولكن من كان في مرتبته فهو ليس من الـ«غير»، وعنوان الغير لا يصدق عليه.

حينها يستدرج اللَه الإنسان، ومعنى الاستدراج هو الانحطاط به شيئًا فشيئًا حتّى يهبط، وهذه أكبر مصيبةٍ؛ لأنّه إذا ما سقط دفعةً واحدةً فإنّه سيصرخ ويُنادي يا ربّ! لقد أخطأت وأتوب إليك! لقد ارتكبتُ خطأً فأعدني. وأمّا إذا ما هُبِط به شيئًا فشيئًا، فإنّه لن يشعر ماذا حلّ به، وسيُهبَط به بحيث لا يشعر.

للإنسان في السير والسلوك أحوالٌ، يعني: له حالاتٌ خاصّةٌ عند كلّ منزلٍ ومرتبةٍ يطويها، وله التفاتٌ وتوجّهٌ خاصٌّ، وله إخلاصٌ خاصٌّ، وخلوصٌ خاصٌّ، وقد تصيبه حالة الخلسة[1]، وقد يكون له توجّهٌ خاصٌّ إلى اللَه، وإعراضٌ عن غير اللَه، وقلبه ملتصقٌ باللَه، ولديه عشقٌ للَّه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاجْعَلْ قَلْبِيْ بِحُبِّكَ مُتَيَّمًا**»[2]. وكذلك تكون له مدركاتٌ خاصّةٌ تتناسب مع الحال التي هو عليها، فمثلًا يُدرك آثار ذلك المنزل الذي هو فيه ولوازمه وخصوصيّاته.

وعندما يُفشي الإنسان السرّ ويُبعده اللَه شيئًا فشيئًا وينقبض حاله شيئًا فشيئًا، فإنّ مدركاته الفكريّة تبقى، وتبقى تلك الآثار واللوازم التي كانت في تلك المنازل والتي رآها هناك، ويظنّ بأنّ تلك الحالات لا تزال مستمرّةً، في حين أنّ حاله تلك قد ذهبت،

---

(١) **الخلسة**: نوعٌ من الجذبة العرفانيّة يستغرق فيها السالك مع نفسه ويُخلي ذهنه عن كلّ ما عدا اللَه تعالى، وقد تحصل له فيها بعض المكاشفات. (م)

(٢) ***مصباح المتهجّد***، ص ٨٥٠، فقرةٌ من دعاء كميل.

ولم يبق منها سوى صورٍ ونقوشٍ ذهنيّةٍ، وأساس السير هو تلك الحال التي تكون للإنسان، أي حال الخلوص والجذبة والإعراض عن الدنيا وعشق اللَه ومحبّته، وهذه تهبط شيئًا فشيئًا وتبرد، فيأخذ بمعاشرة الأفراد الآخرين، ولا سمح اللَه يُمكن أن يرتكب معصيةً، وأن ينظر إلى العرفان ولقاء اللَه نظرةً هازئةً، فيقول مثلًا: هذه الأمور جيّدةٌ للسهرات والمجالس والتسلية وجلسات الأنس وليس لها حقيقةٌ وواقعٌ وراء هذا الأنس والتسلية، ويتوجّه قلبه إلى الدنيا؛ ولأنّه سار قليلًا في طريق السير والسلوك وصار قويًّا واكتسب قوّةً ما هناك، فإنّه يصرف كامل قواه في الدنيا.

لقد أخذ القوّة من اللَه، ثمّ أتى ليصرفها في طريق الشيطان، وهو يمتلك بعض المدركات العلميّة، ويظنّ أنّه ـ ما شاء اللَه ـ وليّ اللَه! وأنّه عارفٌ، فقد شاهد بوجدانه تلك المسألة المعيّنة وكذا وكذا! ولكنّ هذا المسكين لا يدري أنّه لا يمتلك شيئًا، وكلّ ما كان إنّما هو مجرّد حال، وشيئًا فشيئًا أُخذ منه من حيث لا يشعر، وهو مأنوسٌ ببقاء تلك الصور الفكريّة، إلى أن يحين وقت موته وفراقه للدنيا؛ يقول اللَه له: أنت أفشيت سرّي إلى غيري؟! لماذا فعلت ذلك؟!

ب. قطع الطريق على الآخرين

إنّ في إعلان السرّ للغير ضررًا كبيرًا. **فأوّلًا**: أنتَ لستَ مخلوقي الأوحد، فجميع الناس مخلوقاتي، ولمّا أخبرتَهم بهذا السرّ فقد قطعتَ عليهم طريقهم؛ لأنّ الفرض أنّ هذه المسألة هي سرٌّ، وأنت أدركته وذاك الآخر لا يُمكنه إدراكه، وإذا ما حدّثته به فإنّه سيُصاب بالإحباط، ولن يقبل، وستبرد عزيمته عن الدين والإيمان، وستنقص محبّته لي، ولو أنّ طريقًا ما كان متاحًا له، فأنتَ بواسطة هذا الإخبار للسرّ قد قطعت ذلك الطريق.

ولذا نرى بأنّ الذين يكشفون السرّ، وينقلون حالًا من أحوالهم أو مكاشفةً أو رؤيا جيّدةً أو كرامةً لهم في مجلس للآخرين ولا يقبل بها الحاضرون، فإنّ هذا الموضوع المطروح يُصبح باردًا ومتجمّدًا وجافًّا؛ لأنّه لم يقع في مكانه، لم يقع هذا

الحكم على موضوعه الخاصّ، فإنّه يترك ردّة الفعل هذه في قلوبهم، ويؤدّي إلى يأس قلوبهم، ويسدّ طريق عباد الله إلى الله.

إن كنت ذا كمالٍ معيّنٍ، فليكن هذا الكمال لك بينك وبين الله، ماذا تريد من الناس؟! يقول الله: هؤلاء العباد هم عبادي أيضًا، وربّما يُوفّق هؤلاء يومًا ما كما وُفّقتَ أنتَ لسلوك الطريق، فعليك أن تأخذ بأيديهم وتخطو بهم نحو الطريق بيسرٍ وهدوءٍ، لا أن تأتي دفعةً واحدةً وتكشف لهم سرًّا، وتفرض عليهم معنىً وحقيقةً فوق قدرة تحمّلهم وأعلى من سعتهم الوجوديّة.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام لعبد العزيز القراطيسي: «**يَا عَبْدَ العَزِيْزِ! إِنّ لِلإِيمَانِ عَشْرُ دَرَجَاتٍ بِمَنْزِلَةِ السُّلّمِ يصْعَدُ مِنْهُ مِرْقَاةً بَعْدَ مِرْقَاةٍ**»[1]، ولا يُمكن للإنسان أن يُوصل نفسه إلى أعلى السطح بالقفز درجتين أو ثلاث، ولا يُمكنك أن تفرض تلك الدرجة من الإيمان على الإنسان الذي تُريد أن تزيد درجات إيمانه وتزيد من إيمانه، بل عليك أن تأخذ بيده بهدوءٍ وتسير به، وإلّا فإنّك ستُبعده وتكسره، ومَن يريد أن يرتقي بإنسانٍ دون أن يصعد به على السلّم فإنّه يُوقعه ويكسّر عظامه.

عندها يقول الإمام: «**مَنْ كَسَرَ مُؤمِنًا فَعَلَيْهِ جَبْرُهُ**»[2] فمن كسر عظم إنسانٍ فعليه جبرُه، عَليه أن يقوم بجبر ذلك العظم، عليه أن يُعيده كما كان. إنّك إذ أضعت هذا المسكين وحمّلته أكثر من قدرته وكسرته فعليك ديته والتعهّد بمسؤوليّته وجبران ما حلّ به.

رافق الناس برفقٍ، وارفعهم بهدوءٍ إلى الأعلى، علّمهم شيئًا فشيئًا وبالتدريج، فإذا ما تعلّموا أمرًا وهضموه انتقلْ إلى الأمر الآخر، بيّنه لهم ثمّ انتقِلْ إلى ثالثٍ.

---

(١) ***الكافي***، ج ٢، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

فالإيمان الذي له درجاتٌ مختلفةٌ، مثله مثل الغذاء، فإذا ما تناول الإنسان طعامًا فلابدّ أن يُهضم، ولو تناول طعامًا آخر قبل أن يُهضم السابق أصيب بالتُخمة وصارت سببًا في هلاكه. أمّا إذا فهم مسألةً ما وقبِلَها وهضمها، جاءت بعدها مسألةٌ أخرى، سواء أكانت نظريّةً أم عمليّةً، وقبل هضم المسألة الأولى لا يُمكن الوصول إلى المسألة الثانية أو المقام الثاني أو الدرجة الثانية أو الصفّ الثاني.

والسبب في كلّ ذلك هو أنّ على الإنسان أن يتكتّم على ما عنده من أسرارٍ وأن يتماشى مع الناس ليُوردهم إلى الطريق.

ج. العُجب بالنفس

ثانيًا: الجهة الأخرى هي أنّك لو بيّنتَ الأسرار التي رزقك اللَه إيّاها فسوف يُسبّب لك ذلك العُجب بنفسك؛ لأنّ الفرض هو أنّ الإنسان لم يتجاوز نفسه بعد ليَرِدَ إلى حرم اللَه، بل حتّى لو كان قد وصل إلى حرم اللَه واتّصل باللَه مع عدم تجاوز عالم النفس، فإنّه لو بيّن مشاهداته وحالاته الحسنة لأصيبت نفسه بالغرور، لذا على الإنسان أن يكون في مأمنٍ من كيد النفس. نعم! لو تجاوز عالم النفس، واتصّل باللَه فحينها كلّ ما يفعله فهو فعل اللَه وليس فعل النفس.

صحيحٌ أنّ هذه كمالات ظهرت له، ولكنّها كمالاتٌ من اللَه، لا من نفسه، والكمال المأخوذ من اللَه لا بدّ أن يُنفق في سبيل اللَه، لو كان هذا الكمال من عندك أنتَ، فمباركٌ عليك كلّ ما تصنعه به، ولكنّ اللَه هو الذي آتاك إيّاه.

وأنتَ تأتي وتبيّن تلك الحالات والمكاشفات، مع أنّ النفس لم تصل إلى مقام الطهارة ذاك، فهي تنسب تلك الكمالات إلى نفسها، فإذا تعدّى الإنسان وتجاوز، بلغ ما يُطلق عليه العجب، إذ العجب هو رؤية النفس ذاتها كبيرةً، أي أن يرى الإنسان شيئًا من نفسه فيراها كبيرة، وهذا خطرٌ كبيرٌ؛ لأنّ طريق العرفان والسلوك هو خلاف العجب، وضدّ العجب.

التفتوا إلى أنّ السلوك دائمًا يجعل نفس الإنسان صغيرة، فإذا ما لاحظ الإنسان نفسه فعليه أن يقول أنا لست شيئًا، اللَه هو كلّ شيءٍ، ففي البداية كان يظنّ أنّه يتّصف بصفاتٍ كثيرةٍ: عالمٌ قادرٌ، متمكّنٌ، حيٌّ، مدركٌ، فعّالٌ، فهذا أحد أعمالي، وذاك من أعمالي، وذاك وذاك، فلانٌ أضرّ بشأني وكرامتي، فلانٌ صنع كذا، ودائمًا يقول: أنا! أنا!

وعندما يَرِد إلى السلوك شيئًا فشيئًا يرى أنّ كلّ ذلك ـ ويا للعَجب ـ كان عيبًا. ما معنى «أنا»؟ فهذا الإنسان الذي لا يمكنه أن يطرد عن نفسه ذبابةً، هذا الإنسان الذي يبلغ من العجز حدًّا يجعله يُصاب بالسكتة في لحظةٍ واحدةٍ، بحيث يتبدّل هذا اللسان الناطق، والفكر والحركة واللطف والنشاط والفوران يتبدّل كلّه إلى جسدٍ، ونقول أسرعوا في دفنه حتّى لا تؤذي رائحة تعفّنه الدنيا. ولو كانت هذه الكمالات لنا لما خسرناها، بل اللَه هو الذي أعطاها وهو الذي أخذها، فإذا جعلناها كان لها قيمة، وأمّا إذا جعلناها لأنفسنا فنحن مخطئون، وهذا هو طريق الشيطان والفرعنة، وحينئذٍ، فإنّ إفشاء الأسرار سيزيد ذلك العجب ويقوّيه.

العُجْب يعني: رؤية الشيء كبيرًا، الرضا عن النفس، الغرور بالنفس، الفخر بالنفس، والاعتزاز بها. إنّ وجود الإنسان **صفرٌ**، فكيف له أن يراه **واحدًا**؟!

إنّ رسول اللَه صلّى اللَه عليه وآله هو أوّلُ مخلوقٍ في العالم وأعظم مخلوق ومع ذلك أمره اللَه في القرآن الكريم أن يقول: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً**﴾[1]، وفي مكانٍ آخر: ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً**﴾[2]، وحقيقةُ الأمر هي كذلك؛ ولذلك نرى أنّ الأئمّة والأنبياء وخصوصًا الرسول الأكرم رغم مقاماتهم الرفيعة جدّاً لم يكونوا يتكلّمون عن هذه المسائل التي تُسبّب العُجب، لم تُسمَع منهم كلمةٌ واحدةٌ فيها مدحٌ للنفس: أنا كذا! أنا عندي الحالة كذا! بل كانوا يقولون: أنا عبدٌ ضعيفٌ مسكينٌ ﴿**لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً**﴾.

(١) سورة الأعراف (٧)، صدر الآية ١٨٨.
(٢) سورة الفرقان (٢٥)، ذيل الآية ٣.

كان الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام معًا في الطريق إلى الشام حين أحضرهما عبد الملك بن مروان، وعندما وصلا إلى أحد الجبال جاء إلى محضرهما رجلٌ نصرانيٌّ ـ ولهذه الحادثة قصّةٌ مفصّلةٌ ـ فقال: «أَنْتَ عَالِمُ هَذِهِ الأُمّةِ؟» فقال الإمام: «**لَسْتُ مِنْ جُهَّالِهَا**»[1]، فلم يقل: أنا عالمُ هذه الأمّة، بل قال: «**لَسْتُ مِنْ جُهَّالِهَا**»، لم يقل: أنا عالم هذه الأمّة، رغم أنّه في مقام التعليم والتربية.

فإذن، حتّى لو بلغ الإنسان مقام الإمام محمّد الباقر فلا يظنّن أنّه عالمٌ والعياذ بالله، بل هو عالمٌ بعلم الله، فربّما نام في الليل ثمّ أصبَح وقد غدا عِلمه صفرًا لا يملك منه شيئًا.

لقد أصيب بعض كبار العلماء في أواخر أعمارهم بحالة من النسيان حتّى لم يعودوا يُميّزون بين اليد اليمنى واليسرى، وكان أحدهم يذهب في النجف إلى زيارة الحرم ولم يكن يستطيع العودة إلى منزله؛ فكان يضع علامةً بالفحم أو بالطبشور على الجدران، ثمّ وعند عودته كان يضلّ أيضًا ولا يهتدي إليها، والحال أنّه كان من علماء الدرجة الأولى.

وقد نقل بعض الناس قصصًا حول ذلك، فكانوا يقولون: إنّ نسيان بعضهم قد وصل إلى درجة أنّ أحد خدّام مسجد السهلة دعا عالمًا منهم للعبادة هناك، فأحضر الخادم طعام الغداء وكان من التمر والعسل واللبن، ودعاه إليه، فكان ذلك العالم يضع إصبعًا في العسل، وبدلاً من أن يضع ذلك الإصبع في فمه كان يضع الإصبع الآخر! وهذا أمرٌ عظيمٌ، ولا يُمكن للإنسان أن يتصوّر أعظم منه، فقد سيطر حال النسيان عليه إلى حدٍّ جعل مدركاته الخفيّة أيضًا تضيع، فصار يشتبه بين أصابعه، وفقد شعوره إلى حدٍّ جعله يضع إصبعه الآخر في فمه ثمّ لا يُدرك أنّه ليس فيه طعم العسل، فعلى أيّ شيء يدلّ هذا؟! في حين أنّه كان قبل ذلك مؤلّفًا وكاتبًا ومُدرّسًا مشهورًا ومعروفًا.

(١) ***بحار الأنوار***، ج ٤٦، ص ٣٠٨.

- المستمع: هل يمكن أن يُقال: إنّ هذا بيد الله؟
- العلّامة: إنّه الله، الله.

ما دام الإنسان كذلك، فلماذا يقوم بالفخر؟! وما دامت حقيقة المسألة هي كذلك فلماذا يرى الإنسان أنّ ذلك من نفسه؟! إنّ رؤية النفس هذه التي في الإنسان هي أساس عمل الشيطان، وتعني أن لا ترى الله بل انظر إلى نفسك، ولذلك يقول في القرآن [على لسان الشيطان]: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[1]؛ أنا أفضل منه، وعنوان ﴿**أَنَا**﴾ هو المقدّم، فلا يقول: هو أقل مني، بل يقول: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾. هذه إحدى آثار إفشاء السرّ، وهي حصول العُجب.

د. عدم الوصول إلى المطلوب

ثالثًا: من الآثار الأخرى لكشف السرّ عدم وصول الإنسان إلى مطلوبه، وكلّ من أراد الوصول إلى غايته فعليه أن يحفظ سرّه.

يقول النبيّ: «**اُستُرْ ذَهَبَكَ وَذَهَابَكَ وَمَذْهَبَكَ**»[2] والمراد من الذهب: رأسمال العمر؛ لأنّ السارق جالسٌ في الكمين، وإذا اطّلع على سرّك جاء وضربك، فليس السارق سارق المال فقط؛ إذ هناك سُرّاق للإيمان، وسرّاق للنفس، وسرّاق للعقيدة، وسرّاق للهدوء.

وبعضهم حسودٌ، ونفوسهم تؤثّر على نفس الإنسان، وفي منتصف الليل تقوم نفوسهم الخبيثة بالتأثير سلبًا على الإنسان، فقد ورد في الصحيفة العلويّة الثانية أنّ

---

(١) سورة الأعراف (٧)، ذيل الآية ١٢.

(٢) لم نجد هذه العبارة المشهورة في العديد من المجامع الروائيّة وكتب الأخبار، رغم أنّ العلماء ينسبونها دائمًا إمّا للنبيّ صلّى الله عليه وآله وإمّا للإمام الصادق عليه السلام بنحوٍ مُرسلٍ، وقد ورد في كتاب ***التحفة السنيّة*** (مخطوط)، تأليف السيّد عبد الله الجزائري، ص ٣٣٠ نقلاً عن بعض الحكماء ما يلي: «وورد في وصايا الحكماء: "**استُر ذَهَبَكَ وَذَهَابَكَ وَمَذْهَبَكَ**"، ومُرادهم بالذهب: الشيء النفيس؛ جوهرًا أو عرضًا، حتّى أسرار العلوم والمعارف» إلى آخر كلامه. (م)

جبرائيل جاء وقال: «**يَا مُحَمَّدا! إنّ عِفْرِيتًا مِن الجِنِّ يَكِيدُكَ فِي مَنَامِكَ فَعَلَيْكَ بَآيَةِ الكُرْسِيّ**»[1]، يعني: يا رسول اللَه هناك شيطانٌ يُريد أن يؤذيك، ولذا عليك بقراءة آية الكرسي عند النوم لتكون في أمنٍ وأمانٍ ولا يتمكّن ذلك العفريت من إيذائك، يعني: عليك أن تسلّم نفسك إلى اللَه في حالة النوم أيضًا، وإلاّ فهناك عفاريت وشياطين، ورغم أنّك رسول اللَه فإنّه يريد أن يُؤذيك: فإذن:

چون كه اسرارت نهان در دل شود　　زان مرادت زودتر حاصل شود.[2]

يقول: إنّ حال الإنسان كحال تلك البذرة التي تبذر في الأرض، فلو خُبّئت تحت التراب، فإنّها تبقى وتربو، وشيئًا فشيئًا تنبت الجذور والبراعم ثمّ تصبح نبتةً وشجرةً، وأمّا لو رُشّت فوق الأرض، فستأتي الطيور وتلتقطها ولا يبقى لها أثرٌ.

إذن، على الإنسان أن يحفظ سرّه حتّى لا تبرد همّته، فالسرّ مثل جذوة النار، فلو كان للإنسان جذوة من النار في الشتاء، وكان عنده نوعٌ من الفحم شديد الاشتعال فأشعله ثمّ وضعه في مجرى الهواء البارد، فلو هبّت عليه نسمتان سيخبو وتذهب ناره، ولكنّه لو أخذه وغطّاه في مكانٍ وجعله في منقلٍ ورشّ عليه شيئًا من الرماد، فإنّه سيبقى يُدفّئ «الكرسيّ»[3] ليومٍ كاملٍ مع ليلته، فعندما كانوا يستعملون «الكرسيّ» في السابق كانت شعلةٌ من النار واحدةٌ تكفي لتدفئة الغرفة ليومٍ وليلةٍ أو على الأقل لاثنتي عشرة ساعةً؛ لماذا؟ لأنّهم يستغلون ذلك الفحم استغلالًا كاملًا، فهو يعطي الحرارة ويبثّ الدفء حتّى الذرّات الأخيرة منه، وهذا هو حال الإنسان كذلك.

---

(١) ***مكارم الأخلاق***، ص ٣٨.

(٢) ***المثنوي المعنوي*** (طبع ميرخاني)، الدفتر الأوّل، تحت عنوان: طلب ذلك الوليّ من الملك أن يختلي بالجارية لتحديد علّتها.
المعنى: إذا ما احتفظتَ بأسرارك في قلبك، فسوف تصل إلى مرادك بسرعةٍ.

(٣) **الكرسيّ**: آلة تدفئةٍ قديمةٍ كانت ولا زالت تُستعمل في إيران، وهي عبارةٌ عن طاولة تغطّى بلحافٍ كبير وتدفّأ بالنار أو بآلة التدفئة الكهربائيّة ويجلس حولها أفراد العائلة ويجعلون أرجلهم داخل اللحاف فيشعرون بالدفء. (م)

إنّ حقيقة الإنسان ترتبط بقلبه، وقيمة الإنسان بقلبه، قيمته بقلبه لا ببدنه، لا بمادّته، ولا بعالم مثاله وتخيّلاته، قيمة الإنسان بحقيقته الواقعيّة التي هي مركز الإدراكات المعنويّة، ومنها ينشأ ويترشّح عالم المثال، وبعده عالم البدن، قيمة الإنسان بقلبه، والله تعالى خلق هذا القلب لنفسه وجعله مركزًا ومحلًّا لتجليّاته حيث قال: «**لا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِيَ المُؤمِنِ**».(١)و(٢)

مواطن كتمان السرّ

أوّلًا: كتمان الحالات المعنويّة

وكتمان السرّ لا بدّ أن يكون ضمن مسألتين:

الأولى: الحالات التي يجدها الإنسان، كالرؤى الجيّدة مثلاً، فينبغي أن لا يُخبر أحدًا بهذه الأمور، حتّى عياله، حتّى أخاه، هل التفتّم؟ طبعًا هذا إذا كانوا في غير رتبته ودرجته! أمّا لو كانوا معه في نفس الرتبة والدرجة فلا إشكال.

- المستمع: إذا رأى رؤيا عن والدته، فهل هي خاضعةٌ لهذه القاعدة أيضًا؟
- العلّامة: إذا كانت من الرؤى المعتادة فلا إشكال؛ أمّا الرؤى المعنويّة والروحانيّة مثلًا...، فمن الواضح أنّ بعض أنواع الرؤى لا ينبغي أن تُنقل، أمّا الرؤى والمنامات العاديّة فلا إشكال فيها، فهذه ليست أسرارًا في الواقع؛ لأنّ هؤلاء الناس أيضًا يرون مثل هذه الرؤى ويقصّها بعضهم على بعض.

أما تلك الرؤى التي هي من الأسرار؛ كأن ترى الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وترى أنّه احتضنك وقبّلك ووضع في يدك خاتمًا من الزمرّد، وقال لك: «يا بنيّ! هذا هو

---

(١) ***عوالي اللآلي***، ج ٤، ص ٧.

(٢) ***أنوار الملكوت*** (فارسي)، ج ١، ص ٩١، التعليقة ١: «نقله العلامة المجلسي في *البحار*، ج ٢٠، ص ٢٩٠، الطبع الرحلي: "**لَمْ يَسَعْنِيْ سَمَائِيْ وَلَا أَرْضِيْ، وَوَسِعَنِيْ قَلْبُ عَبْدِيَ المُؤْمِنِ**" [أي لا تحتمل تجليّاتي الذاتيّة لا أرضي ولا سماواتي، ولكن يحتملها قلب عبدي المؤمن]». (المعلّق)

المقام الفلاني الذي ينبغي أن يُعطى لك» فهذا سرٌّ؛ لأنّ النبيّ له تأويل، والاحتضان له تأويل، وكلمة «يا بنيّ» لها تأويل، وخاتم الزمرّد له تأويل، ولو أدرك ذلك الآخرون فليس أمرًا حسنًا، سيسدّون طريقك، وستكيد لك نفوسهم كما تكيد تلك الشياطين.

و﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[1]، إنّ الذين يوسوسون للإنسان ويُوقفونَه عن العمل هُم من النفوس الشريرة والكافرة من الجنّ وكذلك من الناس على السواء، وربّما كان الناس أسوأ من الجنّ؛ لأنّ الإنسان أقوى من الجنّ، فالكفرة من الناس وذوي النفوس القويّة هم أكثر أذىً للإنسان.

أمّا الجنّ فأصل وجوده أضعف من الإنسان، إنّه ليس من عالم الملكوت، وليس من عالم الروحانيّات، الجنّ من عالم النار، وأصله من الدخان والنار، ووجوده أضعف من الإنسان، وبالطبع ـ وفقًا لآيات القرآن ـ فالجنّ منهم مؤمنون، ومنهم كافرون، ومؤمنوهم لا شأن لهم بالإنسان ولكنّهم ضعفاء، وعلى الإنسان أن لا يتعاطى حتّى مع مؤمنيهم؛ لأنّهم ضعفاء، وإذا ما تعاطى الإنسان مع الضعفاء صار ضعيفًا.

- المستمع: كنتُ أظنّ أنّ الجنّ أقوى!
- العلّامة الطهراني: لا أبدًا، هم أضعف بتمام معنى الكلمة.

عندها [إذا أفصح الإنسان عن السرّ] يأتيه هؤلاء الذين هم ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ويُقعِدونه عن العمل؛ ولذلك على الإنسان أن لا يتحدّث بالحالات التي تحصل له والرؤى والمكاشفات، فمثلاً: أنتم الآن جالسون هنا، وربّما ترون أُمّكم رحمة اللَه عليها فجأة، تأتي وتقول لكم: أيّها السيّد حميد كيف حالك؟ وتجلسان معًا وتتحادثان، أمّكم الحقيقيّة التي لا شكّ فيها، هل لكم شكٌّ في وجودي أنا؟ فكذلك لا يكون لكم شكٌّ في وجود أمّكم، فهذه تسمّى مكاشفةً، أي إنّ تلك الصور التي يراها الإنسان في عالم الرؤيا على شكل أطيافٍ ومناماتٍ، يُمكن أن تحصل للسالك في اليقظة.

(١) سورة الناس (١١٤)، الآية ٦.

وإضافةً إلى ذلك، الحال التي تحصل للإنسان كالحال التوحيديّة، فمثلًا: افترض أنّك في عبادةٍ، وبذلت جهدًا في أربعينيّةٍ، أو أربعينيّتين، أو ثلاث أربعينيّات، وحصل لديك خلوصٌ، والآن أنت في اليقظة، حين الصلاة أو غيرها، يُمكن أن تشاهد أنوارًا، أنوارًا عجيبةً، وبالطبع في البداية تكون ضعيفةً، ثمّ تزداد ثمّ تصبح كأنوار الشمس والقمر و...، فيجب أن لا تتحدّث عن هذه الحالات.

أو افترض أنّك حصلتَ على حالٍ توحيديّةٍ، كأن ترى أنّ كلّ قدرةِ العالم هي قدرةٌ واحدةٌ، القدرة التي في هذه الشجرة والقدرة التي في هذا الجبل هي قدرةٌ واحدةٌ، وهي قدرةُ اللهَ، والعلم الذي في جميع الموجودات هو علمٌ واحدٌ، وهذا ما يسمّى بالتوحيد الأسمائي.

أو ترى أنّ كافّة الأفعال والحركات فعلٌ واحدٌ، وهذا يسمّى التوحيد الأفعالي، فهنا فِعل الدكتور فلان والسيد فلان والسيد فلان كلّ ذلك منطوٍ في فعل اللهَ، وكلّه مقهورٌ تحت الإرادة الحقّة الحقيقيّة الإلهيّة، وهناك سيّدٌ واحدٌ، وديّارٌ واحدٌ، يأمر وينهى، والأعمال بيده فهو يختار ويشاء، سيّدٌ واحدٌ هو مَن يملك العلم، سيّدٌ واحدٌ هو مَن يملك القدرة، وهي الذات المقدّسة الإلهيّة، وهو المولى. اللهم مولاي مولاي، يا سيّدي، يا عمادي، يا مولاي يا ربّي، ليس لي مولىً سواك في عالم الوجود كلّه، وعبارة: «مولاي يا مولاي» الواردة في المناجيات والأدعية[1] هي بهذا المعنى.

فعلى الإنسان أن لا يتحدّث بهذه الأمور كيفما اتّفق؛ لأنها حركةٌ وسيرٌ في عالم التوحيد وهو من الأسرار، وإذا ما تحدّث بها الإنسان فإنّه سيضيع ويفسد.

والخلاصة وبصورةٍ عامّةٍ، إذا أراد الإنسان أن يتحدّث عن أمرٍ سوى الظواهر فليقل: يقول الإمام الباقر عليه السلام في تلك الرواية وفي ذلك الكتاب كذا وكذا، ولا

(١) ***بحار الأنوار***، ج ٩١، ص ١٠٩؛ ***البلد الأمين***، ص ٣١٩.

يقل مثلًا: أنا اتّصلتُ في سرّي مع الإمام الباقر، وقد ألقى إليّ ذلك الموضوع، وأنا أخبركم به. فهذا خطأ، وما يُسمع من بعضهم أنّهم يقولون: «أُمِرت بكذا، وأُلقِي إليّ كذا» فكلّه غلط، وكلّ من تكلّم بذلك اغترّ الناس به.

على الإنسان أن يتعامل مع عالم الخَلْق مِن هذه الطرق الطبيعيّة العامّة، نعم يمكن أن يصل الإنسان إلى مقامٍ يتّصل فيه بسرّ الإمام الصادق، فالآن هل سرّ الإمام الصادق ميّتٌ في عالم الوجود أم حيٌّ؟ هل ملكوت الإمام الصادق ميّتٌ أم حيٌّ؟ أقسم بالله إنّه حيّ؛ لا شكّ! فأنا ـمثلًاـ يُمكن أن آتي عبر هذه السلالم، أطرق الباب، وأنت تأتي وتفتح الباب، وتزول الحُجب من البين، ويصبح الأمس بواسطة طيّ هذه الأزمان حاضرًا، وآتي وألتقي بك، والله قادر أن يوفّق من يشاء إلى رفع الحجب الماديّة والاتّصال بالإمام الصادق أو الإمام الباقر، ولكن لو حصل ذلك فيجب أن لا يصاب الإنسان بالعُجب والغرور، وينبغي أن لا يُبيّن ذلك لأحدٍ، وعليه أن يحتفظ به لنفسه دون أن يُفشيه.

فمثلًا لو أدرك مسألةً ما، سواء كانت موافقةً للعلوم الرسميّة المتعارفة أم مخالفةً لها، فهذه لنفسه، وبالطبع يُمكن أن تكون بعض المدركات والمكاشفات خاطئةً، **ولذلك يجب أن يَعرُض الإنسان كافّة المكاشفات والأحلام على الأستاذ، فهو من يُدرك أيّها صحيحٌ وأيّها باطلٌ، والإنسان لا يمكنه أن يُحدّد، ولو عمل الإنسان برؤياه ومكاشفته فهذا غلطٌ، ويجب عليه حتمًا أن يعرضها على الأستاذ؛ لأنّه هو الذي يعرف.**

وبصورةٍ عامّةٍ، في الواردات والحالات التي ترجع إلى نفس الإنسان، ليس للإنسان الحقّ في أن يتحدّث بها إلى أحدٍ، ليس له الحقّ أن يتحدّث إلى أحدٍ مطلقًا؛ نعم الحديث للأستاذ ضروريٌّ، ولو أخفى الإنسان عن الأستاذ فهذا غلطٌ.

لأنّه إذا ما أخفى شيئًا فهذا يعني أنّه يعتقد أنّ لنفسه شأنًا وتعيّنًا وحجابًا، وينبغي أن لا يكون بين الإنسان والأستاذ حجابٌ.

ثانيًا: إخفاء الأستاذ وكتمان البرامج والتكاليف السلوكيّة التي يأمر بها

الثانية: من الأمور التي يجب أن يكتمها الإنسان: **البرامج والتكاليف** التي عليه أن يقوم بها، فمن باب المثال: يُقال له: من الأعمال التي عليك أن تقوم بها: أن تُصلّي النوافل مع الصلوات الواجبة، أو عليك أن تغتسل غسل الجمعة، أو أن تقرأ دعاء كميل ليالي الجمعة، أو عليك أن تُصلّي صلاة الليل، أو أن تصوم بعض الأيّام، أو أن تقول ـ مثلًا ـ ذكر «لا إله إلا الله» ألف مرّةٍ وأمثال ذلك.

- المستمع: تقولون هذا الآن بشكلٍ عامٍّ؟
- العلّامة: نعم، هذا كلّه بشكلٍ عامٍّ، كلّه مثالٌ وبشكلٍ عامٍّ.

فإذا قيل للإنسان ذلك فهو له، ولا يُمكنه أن يُخبر به الآخرين، فلو كان الإنسان جالسًا يقرأ الذكر وجاءه أحدٌ وسأله: أيّ ذكرٍ كنت تقرأ؟ فليقل: كنت مشغولًا بذكر الله، كنتُ في حال الدعاء، أمّا أن يقول ذكري هو «لا إله إلّا الله»، أو «لا إله إلّا هو» فلا يُمكن للإنسان أن يُخبر بذلك، **بل أصلًا لا يُمكن أن يُخبر بأنّي أتلقّى برنامجًا سلوكيًّا وعندي أستاذ، فهذا أيضًا لا يمكن للإنسان أن يُخبر به**؛ لأنّ السلوك دقيقٌ، فلو تحدّثت بذلك فإنّهم أيضًا سيأتون، وربّما لا يأتون، فالنفوس مختلفةٌ، وحينها ربّما نظروا إليك نظرةَ تحقيرٍ أنّه يأخذ دينه من فلان، يأخذ إيمانه من فلان، فما هذا الكلام؟ ألا يمكن للإنسان أن يأخذ من وجدانه وباطنه؟! لماذا يحتاج الإنسان إلى الأستاذ؟! يُمكن للإنسان أن يحمل كتاب «مفاتيح الجنان» ويعمل به، يحمل القرآن ويعمل به، لماذا الأستاذ؟! فهذه الأمور كلّها تجارةٌ ومخترعاتٌ وغلطٌ ومضرّةٌ!

أو ربّما تكون نفوسهم راغبةً، ولكن لا مصلحة لهم في ذلك، مقامهم مقامٌ آخر، فليست كلّ بذرةٍ تُبذر في الأرض في أيّ زمانٍ، فبعض البذور في هذا الفصل وبعضها الآخر في ذاك، فبذور الورد في وقت معيّنٍ وفي ذلك الوقت ينبغي أن تُبذَر،فتأخذ حظّها من الماء ومن الهواء ومن النور حتّى تنمو، أمّا لو جاء الإنسان في غير وقته لأدّى إلى الفساد في العمل، وإلى الضعف والفتور، وتذبل تلك الفسيلة وتموت، وتنعدم تلك البذور وتزول.

لذلك أوّلًا: ليس من الصحيح أن تذكر اسمًا، فالمسألة ليست مسألة اسمٍ؛ لأنّ الضرر ليس فقط في حقّ ذلك الطرف، بل هو لهذا الطرف أيضًا، فالإنسان إذا عُرِف هجمتْ عليه النفوس، والغايات مختلفةٌ، فليس الجميع يريدون العرفان، وليس الجميع يريدون السلوك، بعضهم يُريد أن تقضي دَيْنه، وبعضهم يُريد أن تبني له بيتًا، وبعضهم يُريد أن تؤمّن زوجًا لابنته العانس، وآخر يقول: ادع لي لأشفى من ذلك المرض، أو اقرأ دعاءً على هذا الماء، أو اشف مرض ابنتي، إنّها مصابةٌ بالفالج أو بكذا، أو إنّ ابني مصابٌ بالعمى فأبرئه.

أفهل للإنسان علم الغيب؟! وهل الإنسان إمامٌ؟! هل يمكن للإنسان أن يتخطّى إرادة اللَه مقدار ذرّةٍ؟! هنا تأتي مقولة: «**المَرءُ لِنَفسِهِ ما لَم يُعرَف، فَإذا عُرِفَ كانَ لِغيْرِهِ**»[1]، هل التفتّم؟! فإنّ هذا ينتهي تمامًا؛ ولذلك لا بدّ من الضبط، فإذا أراد الإنسان أن يقوم بعمله فعليه أن يقوم به بهدوءٍ وبلا ضجيجٍ، فإذا أكلت الطعام فقُل: الحمد للَه، وإذا شربتَ الماء فقُل: الحمد للَه، ولا يطّلعنّ أحدٌ على أنّ عندك هكذا ماء، وإلّا لجاؤوك من الأقاصي ولوّثوا عليك ماءك، وألقوا فيه القاذورات إلى حدٍّ لا يُمكنك أن تشرب منه لا أنت ولا غيرُك، يُضيّعونه؛ لأنّ نفوسهم ليست نفوسًا طاهرةً بأجمعها، فالغايات مختلفةٌ، يأتي أحدهم ويقول: لا بدّ أن تعطيني الإكسير، حتّى أحوّل النحاس ذهبًا.

- المستمع: لو سألوا، ورأى الإنسان المصلحة في أن يقول شيئًا آخر فهل في ذلك إشكال؟ فمثلاً يسألون: ماذا كنت تصنع؟ أقول لهم مثلاً لو ذهبت لأغتسل صباحًا: إنّي أصبت بنجاسة وذهبت لأتطهّر.
- العلّامة الطهراني: لا! لا ضرورة في أن يقول أصبت بنجاسة وذهبت لأتطهّر والحال أنّه لم يصب.

(١) ***إرشاد القلوب***، ج ١، ص ١٠٠، مع اختلاف يسير.

- المستمع: يعني هنا لا إشكال [في الإخبار]؟
- العلّامة: لا، لا إشكال. مثلاً لو كنتَ تقرأ دعاء، وقيل لك أيّ دعاءٍ تقرأ؟ تقول: أنا متوجّهٌ إلى اللَه، وواقعًا هناك توجّهٌ إلى اللَه، وهناك ذكرٌ، أمّا تلك الخصوصيّة وذلك الارتباط فينبغي أن لا تُخبر بهما أحدًا، يعني: على جنابكم أن لا تخبروا بأيّ وجهٍ من الوجوه أحدًا بأنّكم على ارتباطٍ بمَن، ولو اطّلع أحدٌ على أنّكم تسألوني بعض المسائل، فهي مسألةٌ في النهاية، مسألةٌ شرعيّةٌ، فالإنسان يسأل أيضًا مسائل شرعيّة ويجاب عنها وتقال له بعض الإرشادات، وهذا واضحٌ.

مثلاً: لو حصلتْ لديك حالٌ ما، فقلتَ: يا فلان أنت أيضًا تفضّل واذهب إلى ذلك المكان وستتغيّر حالك، فهذا خطأ؛ لأنّي أخبرتك بأنّ النفوس مختلفةٌ. هذه الضالّة التي تبحث عنها أنتَ وهذا الهدف والخصوصيّات التي أنتَ عليها الآن ليست متحقّقة عند الآخرين، أنتَ الآن في حالٍ تقول: أَحرِق كلّ حياتي وأرحني، فأنا الآن أعيش في أذى ومصيبةٍ، وهذا يختلف عمّن يأتي ويقول: يا سيّد أنا أريد الدنيا، تعال وأعدّ لي بستانًا! أَجْرِ لي قناةً! أعطني كذا وأعطني كذا!

إنّ طريق العرفان ولقاء اللَه والسلوك ليس ألعوبةً، ولم يأتِ الأنبياء والأئمّة ليلبّوا رغبات الناس وأهواءهم، ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾[1] لقد جاؤوا ليُعلِّموا الناس الحكمة ويزكّوهم ويمنحوهم النموّ والارتقاء، ونقصد بالنموّ: النموّ والارتقاء الروحي لا المادي، فهم لا يُكسبون الناس سمنةً وبدانةً جسديّةً، وليست وظيفتهم أن يُقدّموا لهم الأطعمة اللذيذة ويزيدون في أموالهم، فكلّ هذا يؤدّي إلى الوبال، بل جاؤوا ليرتقوا بهم، فالنبيّ يرتقي بالإنسان وينمّيه، هذه هي وظيفة النبيّ. وفي المقابل يأتي أحدهم ويأخذ بطرف ثوب النبيّ ويقول له: تعالَ

(١) سورة البقرة (٢)، قسم من الآية ١٢٩.

وأَجْرِ لنا نهرًا، واجعل لنا بإرادتك من هذا الجبل ذهبًا، وقد كان مشركو مكّة يقومون بذلك، وآيات القرآن تقول: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾[1].

حسنًا! والنبيّ يقول: حاضر، بسم اللَه هذا ينبوع؛ أفهل جاء النبيّ ليجري الينابيع؟ أم جاء ليجعلهم مؤمنين باللَه؟! إذا كان إجراء الينابيع يجعلهم مؤمنين فإنّ النبيّ يفعله، كما شقّ لهم القمر، وكما تكلّم معه ذلك الغزال على مرأى من الناس، وانتحبتْ الأسطوانة الحنّانة أمام أعين الناس.

- المستمع: فإذا أراهم فإنّهم يطلبون شيئًا آخر.
- العلّامة الطهراني: نعم؛ لأنّ تلك النفس التي لا تريد أن تقبل، إذا قُدّمت لها معجزةٌ ستقول هذا سحرٌ، وتقول: هذا تلاعبٌ على النظر وسحرٌ؛ لأنّ القلب إذا ما انقلب وفسُد لا يؤمن، تمامًا كمريض الحصبة، لو أحضرت له أفضل الطعام فإنّه يضعه جانبًا ويقول: له رائحةٌ سيّئةٌ، لا تُدنوه منّي، ما هذا الطعام ذو الرائحة السيئة الذي صنعتموه؟! مع أنّ الطعام لم يكن سيّئًا، هو الذي كان حاله سيّئًا، وكان مزاجه قد خرج عن حدّ الاعتدال، هو لا يشمّ بشكلٍ طبيعيٍّ.

إنّ الشرك والكفر والنفاق يُفسدون القلب، وإذا فسد القلب فمهما نصحته لا يفقه ما تقول، ومهما قلت له: «اللَه»، فإنّه لا يعرف اللَه، ومهما قلت له: «إيمان»، ومهما قلت له: «صدق»، ومهما قلت له: «أمانة»، فإنّه يُدرك بشكلٍ خاطئٍ ويُفسّر الأمر بشكلٍ خاطئٍ كذلك، تمامًا كمريض الحصبة الذي أعددت له طعامًا طيّبًا طاهرًا، طيّبته بالزعفران وأحضرته إليه فيقول: «أصلًا لهذا الإنسان عداوة معي لذلك أعدّ لي طعامًا سيّء الرائحة!!» إنّ حاسّة الشمّ عنده معطّلةٌ.

إنّ الأمراض المعنويّة مثل هذه الأمراض الجسميّة، تخرّب النفس، وتحرف المدركات وتبدّل القدرة على التشخيص، أنتَ الآن إذا صرخت بذلك الطبيب أن لماذا

(١) سورة الإسراء (١٧)، قسم من الآية ٩٠.

لم تأت الساعة الثالثة وجئت الساعة السابعة؟! ربّما كان يتّهمك في وجدانه أن لماذا يكلّمني بهذه الحدّة؟ فلتعمَ عيون المريض، فما أهميّة ذلك؟! فبعض الناس هم هكذا.

يقال: إنّ بعضهم ـ في غرف التعذيب زمان الطاغوت ـ كانوا يتلذّذون بالتعذيب! يتلذّذون! فلو مرّ يومٌ لم يعذّبوا فيه مسكينًا ولم يجلدوه ولم يروه ألوان العذاب فإنّهم يشعرون بالانزعاج في ليلتهم، إنّهم يأنسون بالتعذيب، فهذه نفسٌ، وهناك نفسٌ إذا رأت إبرةً في رجل أحدٍ، فلا يمكنها أن تنام الليل، ورغم أنّه لم يُدخلها هو في رجله، بل هي دخلتْ وصار صاحبها يبكي، فإنّ هذا لا ينام؛ أن لماذا دخلت الإبرة في رجل ذاك الرجل؟!

إنّ الأعمال التي نقوم بها والتي أمر الله بها وكلّفنا بها ليست مجرّد أعمالٍ خارجيّةٍ وبشريّةٍ تُفيد البدن فحسب، إنّها تغيّر النفس، فالتكاليف الإلهيّة من عباداتٍ وتلاوة قرآنٍ وعبوديّةٍ، وعلى رأسها عبوديّة النبيّ والأئمّة، هي بأجمعها تغيّر النفس، وتجعل النفس الشقيّة سعيدةً، تُربّي، تمامًا مثل قطعةٍ من الحديد وقعت في مستودعٍ وأصابتها رطوبةٌ، فتأتي أنتَ وتأخذها فترى أنّها قطعةٌ من الحديد، ولكن بعد أن جئت بها وجلوتها بمبردٍ خشنٍ، ثمّ بمبردٍ أنعم منه، ثمّ بمبردٍ أنعم، ثمّ صقلتها، ثمّ مسحتها بتلك المصاقل الناعمة جدّاً، فإنّها ستنجلي حتّى تغدو مرآةً ترى فيها وجهك، من أين حصل ذلك؟! لأنّ شقاءها قد تبدّل إلى سعادةٍ، لقد بُذلت جهودٌ على هذه الحديدة، فصار لديها هذه القابليّة بالتدريج.

وقد أعطى الله تعالى هذه القابليّة للإنسان، والنفوس تمتلك هذه القابليّة أيضًا. وأوامر الأنبياء هي لإخراج الناس من الظلمات: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾[1].

(١) سورة البقرة (٢)، صدر الآية ٢٥٧.

فإذن، كتمان السرّ واجبٌ أيضًا في مسألتين: **إحداهما: في الحالات والسير والمنازل والمشاهدات. والثانية: في البرامج والتكاليف الخاصّة بالإنسان**.

* * *

الجَلسَةُ الرَابِعَةُ

ضَرُورَةُ الاتّبَاعِ التَامِّ للأُستَاذِ فِيْ السَيْرِ وَالسُلُوكِ إِلى اللهِ

أَعُوذُ بِاللـهِ مِنَ الشَيْطَانِ الرَجِيمِ
بِسْمِ اللـهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ
وَصَلّى اللـهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطَاهِرين
وَلَعْنَةُ اللـه عَلى أَعْدَائِهِم أَجْمَعِين

تلخيصٌ لما تقدّم

هناك عددٌ من الأمور التي قرّرها الأساتذة الكبار وعلماء علم الأخلاق كمقدّمات لسبيل معرفة اللَه، وقد ذكرتُ سابقًا بأنّه على الإنسان أن يُراعيها بنحوٍ تامٍّ؛ وبالطبع جاءت هذه الأمور في الكتب الأخلاقيّة وفي كلٍّ من «*رسالة لبّ اللباب*» و«*رسالة السير والسلوك*» المنسوبة لبحر العلوم وكذلك في «*زاد السالك*» الذي هو من تأليف المرحوم الفيض [الكاشاني]؛ ولكنّنا نبّهنا على عددٍ من الأمور المهمّة جدّاً.

أحدها: **الهمّة العالية**، إذ ينبغي أن يكون قصد السالك هو اللَه، فلا ينحني لغير اللَه، فلا يطلب منامًا أو يقظةً أو مكاشفةً أو مقامًا أو علمًا، فجميع هذه الأمور تعني الفراق! على الإنسان أن يقوم بعمله من أجل اللَه، وبعد ذلك فليُعطِ اللَه ما يُعطيه.

الأمر الثاني: **الاستقامة والصبر والمثابرة**[1] بحيث لا يتعب الإنسان، فلا يخرج الإنسان من الساحة حينما تأتيه الامتحانات، بل يصبر ويتحمّل إلى أن يصل ـ إن شاء اللَه ـ إلى النتيجة.

---

(١) تعرّض سماحته للأمر الأوّل والثاني بنحوٍ من التفصيل في الجلسة الثانية من هذا الكتاب. (م)

والأمر الثالث: **كتمان السرّ**[1]، حين يحصل أمرٌ للإنسان، فعليه أن لا يُفشيه لأيّ شخصٍ، إذ لا يعرف حالة الإنسان إلّا اللَه، والآن لو أنّني قمتُ ببيان حالتي الباطنيّة لشخصٍ من الأشخاص ولم يكن لذلك الشخص استعدادٌ، لما أمكنه أن يستمع؛ ولذا لا ينبغي للإنسان أن يتكلّم. وأصلًا، ما معنى أن يستعرض الإنسان بأحواله الباطنيّة؟! فالآن لو رأى الشخص منامًا، أو حصلت له مكاشفةٌ، أو حصلت له حالةٌ؛ أو انكشف له مطلبٌ نوراني، فهذا الأمر مختصٌّ بنفس الإنسان.

وإظهار الحالة الخاصّة للغير كشفٌ للسرّ، واللَه لا يُحبّ كشف السرّ؛ ولذا أُمِر الإنسان أن يكون كتومًا في هذه المسائل حتمًا.

الأمر الرابع من الأمور المهمّة في السير والسلوك: الطاعة

ومن الأمور المهمّة جدّاً [في السير والسلوك] هي **الطاعة**، فنفس الإنسان يجب أن تكون مطيعةً، ما معنى أن تكون مطيعة؟ يعني: أن لا تُبدي رأيًا من تلقاء نفسها.

فنحن لدينا قرآن وسنّة ومنهاج، ويجب العمل طبقًا لها، مثلًا: يقول اللَه: «عليك أن تُصلّي»، والآن لو كُنّا في مكانٍ ولم يعد من صلاحنا أن نُصلّي، أو أنّ السُنّة والاستحباب هي أن نُصلّي صلاة المغرب والعشاء جهرًا، فنقول نحن: إذا صلّينا المغرب والعشاء جهارًا فذلك رياء، دعنا نُصلّيها إخفاتًا، وذلك مثلما سمعنا عن بعض الطوائف الصوفيّة التي تفعل ذلك، فهذا الفعل خاطئٌ.

إذا قال النبيّ: صلّوا صلاتكم جهارًا، علينا أن نقول: سمعًا وطاعةً؛ ولو حصل الرياء فما شأننا نحن؟! نفس صاحب الشريعة هو الذي أمر، هو يُحبّ الرياء في تلك الحالة، يعني: إذا قال: صلِّ صلاتك بصوتٍ مرتفعٍ، أو اذهب إلى أعلى المئذنة وقل: «أَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إلّا اللَه» وأَسمِع الناس صوتك، فعليك أن تصعد المئذنة في منتصف

(١) تعرّض سماحته لهذا الأمر بنحوٍ من التفصيل في الجلسة الثالثة من هذا الكتاب. (م)

الليل وأن ترفع صوتك، وعليك أن تُوصل صوتك إلى الناس، بحيث يستيقظ الناس من النوم، فأنا أناديكم.

وعليك [في الحجّ] أن تجعل رأسك حسيرًا، وأن تكشف عن قدميك كذلك، وأن ترتدي الإحرام، وأن تطوف حول الكعبة أمام جميع الناس مُظهرًا نفسك؛ إذ نفس هذا العمل هو إظهارٌ للنفس، وهو موجبٌ لرضا اللَه. ولكن لو قال الإنسان: أنا لا أريد أن أحلق رأسي؛ لأنّ الناس سيقولون: إنّ هذا السيّد ذهب وحجّ والآن يُريد أن يُبرز نفسه؛ أو يقول: لا أريد أن أمشي برجلٍ مكشوفةٍ، أو لن أُحرِم بالطريقة الكذائيّة، فهذا غلطٌ.

فإذن الطاعة أمرٌ لازمٌ، وليس هناك من نبيٍّ أرسله اللَه، إلّا وأمر الناس أن يُطيعوا شريعته؛ يعني: يجب على أهل تلك الأمّة أن يُطيعوا ذلك النبيّ.

وقد ورد لدينا في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُواْ اللَّه وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[1].

فيجب أن تُطيعوا اللَه وأن تطيعوا الرسول، وقد ورد الأمر بإطاعة اللَه في آيات القرآن، وكذلك ينبغي أن نُطيع النبيّ، فعلينا أن نسمع كلّ ما يقوله، الآن نحن نقبل بالقرآن، ولكن إذا قلنا بأنّ كلام النبيّ إنّما يصدر عن رأيه واجتهاده، ونحن لدينا في مقابله رأيٌ واجتهادٌ؛ فهذا الكلام خاطئ.

وكذلك أولي الأمر، فيجب علينا أن نُطيع أوامر الأئمّة، فلا يكفي أن نُطيع اللَه والرسول، بل يجب أن نُطيع الأئمّة؛ لأنّهم أولياء عرش الولاية والإمامة والحقيقة، فعلينا أن نتّبعهم في المنهج الذي يدلّوننا عليه.

لقد ذكر اللَه في سورة الشعراء كُلًّا من النبيّ لوط ونوح وشعيب و...، وذلك في خمسة مواطن على ما يبدو، ثمّ قال: لقد جاؤوا بأجمعهم ودعوا قومهم، وقالوا: ﴿**فَاتَّقُوا**

(١) سورة النّساء (٤)، صدر الآية ٥٩.

اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1]؛ [ولم يكتفِ بالأمر بالتقوى فقط] لأنّ التمسّك بالتقوى [لوحدها ليس بالأمر العسير]، وسوف يقول الجميع عن أنفسهم بأنّهم متّقون؛ بل لا بدّ أن تروا ما سُنّتي؟ وما هو كلامي؟

معنى الطاعة

ما معنى الطاعة؟ تعني: تخلّى عن نيّتك وإرادتك، وتصرّف بناءً لإرادتي، فإذا قال: حارب، أو قال: صالح، أو قال: تزوّج، فعلينا أن نمتثل؛ أو قال: لا تفعل، فإنّنا لا نفعل؛ وإذا قال: اسكن في هذا المكان، فعليك أن تُنفّذ؛ وإذا قال: اسكن في ذلك الطرف من الدنيا، فعليك أن تمتثل؛ وإذا قال: هاجر، ينبغي أن تُهاجر، وإذا قال: اذهب وحارب ومُتْ، فعليك أن تفعل؛ هذا هو معنى الطاعة.

وهذا العمل صعبٌ. لماذا؟ لأنّ الإنسان يُحبّ بطبعه أن يعمل طبقًا لرغباته وما تُريده نفسه، وكلّ إنسانٍ يُحبّ أن يكون مختارًا بنفسه.

أهميّة الطاعة وضرورتها

بعد ذلك يأتي الأنبياء ويسلبونه اختياره الشخصيّ، ويُربّونه في صراطٍ معيّنٍ؛ وإلّا فإنّ الإنسان إذا لم يكن تحت أمر النبيّ مطيعًا له، فسوف يكون مثل الشجرة البريّة، حتّى لو بقيت ألف عامٍ فلن تُثمر، بل ينبغي أن يأتي ذلك المُزارع ويُطعّمها ويُقلّم أغصانها ويرْعاها حتّى تُصبح قابلةً للاستفادة، إلّا أنّ الشجرة لا ترضى أن يقوم المزارع بتقليمها؛ لأنّ قطع الأغصان أو تطعيمها صعبٌ بالنسبة لها. أو أنّ تلك الشجرة تُحبّ شرب الكثير من الماء، إلّا أنّ ذلك سيجعل جذورها تتعفّن وتفسد؛ فيجب أن يأتي المُزارع ويُتابع أمور هذه الشجرة، فيسقيها الماء بنحوٍ صحيحٍ، ويتولّى تربيتها في الظروف المناسبة ويُطعّمها في موضع التطعيم ويُقلّم ما ينبغي تقليمه؛ حتّى تُصبح هذه الشجرة قابلةً للاستفادة، وتصل إلى كمالها. وكلّ زهرةٍ كذلك أيضًا؛ يجب أن تُربىّ على يد المُزارع، وهذا هو حال الإنسان أيضًا.

(١) سورة الشعراء (٢٦)، ذيل الآية ١٠٨.

افترضوا أنّ مريضًا جاء إلى الطبيب، وقال: «أنا مريض».

ـ «ما هو مرضك يا سيّدي؟»

ـ «لديّ وجعٌ في بطني، وأرجو منك أن تُعالج وجع بطني».

فيُعاينه الطبيب، ويقول: «يا سيّدي، مرضك ليس في البطن أصلًا! بل مرضك في القلب».

فيقول: «من أين تقول بأنّ مرضي في القلب؟ بطني هي التي تؤلمني».

إنّ الطبيب يقول: «لديك مرضٌ في القلب، وعليك أن تذهب فورًا إلى المستشفى، وأن تعمل تخطيط قلب، وأن تأخذ صورةً للقلب».

حسنًا، إذا لم يرغب هذا الشخص بأن يطيع أمر الطبيب، فقد قضى على نفسه منذ البداية، فعليه أن يذهب إلى المستشفى وأن يُطيع كلام الطبيب، وأن يعمل تخطيط القلب وأن يأخذ صورةً لقلبه، ثمّ يأخذونه إلى غرفةٍ ويقولون له: «لا يتكلّمنّ أحدٌ معه»؛ ويُعلّقون ورقةً أمام الغرفة مكتوب عليها: « الزيارة ممنوعةٌ»؛ ويقولون له: عليكَ أن تبقى في غرفتك يومين أو أسبوعين، ويُمنع عليك أن تتكلّم مع أيّ شخصٍ، وينبغي أن يبقى المُغذّي (المصل) في يدك، وفي بعض الأيّام ـ مثلًا: يوم في الأسبوع ـ عليك أن تَحقِن الإبرة الفلانيّة؛ وفي اليوم الفلاني أو كلّ يومٍ عليك أن تأخذ ثلاثة أقراص صباحًا وظهرًا ومساءً، فإذا أطاع الكلام واقعًا سوف يُشفى.

وينبغي أن لا يقول: «في السابق كُنتُ أخطب لمدّة ساعةٍ، ولذا لن أطبّق هذه الأوامر؛ لماذا يقولون لي الآن: اسكت؟! وأنا الذي كنتُ آكل الكباب والأرز، لماذا لا يُعطونني الطعام، ولماذا يضعون المُغذّي في يدي؟! وأنا الذي كنتُ أرفع الأثقال، فلماذا يقولون لي الآن: لا تنزل عن سريرك؟! وأنا أرى أنّه كي تُصبح حالتي أفضل، فبدلًا ممّا ذكره جناب الطبيب بأن آخذ الحقنة الفلانية مرّةً في الأسبوع، سوف آخذها كلّ يومٍ كي

أتعافى بنحوٍ أسرع؛ أو هذه الأقراص الفلانيّة ليست جيّدة لمزاجي، هم قالوا: خذ ثلاثة أقراصٍ في اليوم، وأنا سآخذ قرصين فقط، واحدٌ في الصباح والآخر في الليل».

حسنًا، لقد أضرّ هذا الشخص بنفسه مئةً بالمئة من خلال هذه التدخّلات، ومشى في مسيرٍ خاطئ؛ لماذا؟ لأنّ ذلك الطبيب ذهب وصرف قدراته في هذا المجال، وأصبح مُتخصّصًا في هذا الفنّ؛ يعني: أصبح مجتهدًا في هذا الفنّ، وهذا المريض جاهلٌ بالنسبة له.

و**لا شكّ بأنّه على الجاهل أن يضع يده في يد العالم**[1]، فإذا كان الإنسان مريضًا ولم يكن طبيبًا بالنسبة لمرضه، فيجب عليه أن يذهب إلى المُتخصّص، إلى مُتخصّصِ العين أو القلب أو الأذن أو الرئة بحسب مرضه، فالمتخصّص هو الذي يستطيع أن يفهم ما هو مرض هذا الشخص، وأن يعرف ما هو وجعه، ويعرف كيف يُعالجه، فهو قد عمل في مجال الطبابة، وأعلم منه بذلك.

ولو عمل المريض طبقًا لتعليماته، فسوف يصل إلى كماله؛ وسوف تتحسّن حالته رويدًا رويدًا، ولكن بالطبع عليه أن يصبر، فهناك وحدةٌ ومرارةٌ نوعًا ما في المستشفى، والآن لو قال الأطباء لشخصٍ اعتاد أن يكون بين الناس: «يجب أن لا يتكلّم معه أحدٌ لمدّة أسبوعين، ويجب أن لا يتناول طعامًا لذيذًا وذا نكهةٍ أصلًا، ويجب أن يُوضع المُغذّي (المصل) في يده، ويجب أن يُحقن بالإبر، وفي بعض الأحيان لا بدّ من إجراء عمليّات جراحيّة عليه»، فإذا قال: «أنا لا أقبل أن يتمّ تخديري، ولا تفتحوا بطني، ولا ينبغي أن تمسّ السكين جسمي»؛ فسوف يقولون له: «هناك غدّةٌ في بطنك، فمُباركٌ لك بها».

فإذن، على الإنسان أن ينظر ماذا عليه أن يفعل، وعليه أن يُجري العمليّة ويلتزم بالتعليمات والتوصيات حتّى يتعافى، فإذا كان الإنسان عاقلًا، فإنّه يقوم بهذا الفعل،

---

(١) لمزيدٍ من الاطلاع على لا بديّة رجوع الجاهل إلى العالم، راجع: ***معرفة الإمام***، ج٣، الدرس ٣١؛ و***الدرّ النضيد في الاجتهاد والتقليد والمرجعيّة***، ص ٧٤؛ و***ولاية الفقيه في حكومة الإسلام***، ج٢، ص ١٤٧.

يعني: يجب عليه أن يُسلّم نفسه إلى الطبيب مئةً في المئة؛ وأيّ تدخّلٍ منه فهو اشتباهٌ، فأنا لا أعرف شيئًا عن هذه المسألة، ولا أعرف ما هي مادته، ولا أعرف ما هو الكورتيكوستيرويد، ولا أعرف من أين استخرجوه، ولم أبحث في الأمر، إنّني جاهلٌ في هذه المسألة بكلّ ما للكلمة من معنى، وأرى أنّ الطبيب عالمٌ، فإذا قال لي: قُم بهذا الفعل. [فينبغي أن أقول:] سمعًا وطاعةً، وإذا قُمنا بهذا الفعل استفدنا، وإذا لم نفعله فلا شكّ أنّنا أوقعنا أنفسنا في التهلكة بأيدينا.

والمسألة في الأمور المعنويّة هي كذلك أيضًا، بل لا يقتصر الأمر على الأمور المعنويّة، بل في كلّ شيءٍ أيضًا؛ فإذا أراد الإنسان أن يبني بيتًا، يجب عليه أن يذهب إلى مهندسٍ؛ كيف نبني هذا الأساس؟ كم حجمه؟ وأيّ مادّةٍ نستخدم؟ وما هو وزن هذا البناء مثلًا؟ وما مقدار الأساسات؟ عليه أن يحسب قدرة تحمّل المواد والأساسات، ثمّ يرسم خريطةً ويُقدّمها للشخص؛ وفي هذه الحالة يكون المنزل قد بُني بنحوٍ صحيحٍ. والآن لو أنّ الإنسان أتى وتدخّل من نفسه، وقال: يا سيّدي لا حاجة لهذا الأساس هنا، وهذه الأرض صلبةٌ، فلا حاجة للخرسانة، ولن أضع إسمنت؛ فسوف يسقط المنزل وينهدم. أو يقول المهندس مثلًا: يجب بالنسبة لهذا الإسمنت الذي تستخدمه أن تضع مقابل كلّ كيس من الإسمنت ثلاثة أكياس من التراب؛ فيقول الشخص: لا، أنا سوف أضع أربع أكياس بحيث أوفّر في الإسمنت.

ففي نهاية المطاف ذلك الشخص خبيرٌ في المسألة، وقد حسب جميع الحسابات، وتخصّص في هذا الجانب، ويجب على الإنسان أن لا يتدخّل في عمله.

إذا أراد الإنسان أن يشتري سجّادًا، يجب عليه أن يذهب إلى أهل الخبرة، وإذا أراد أن يخيط ثيابًا، فإذا لم يكن هو نفسه خيّاطًا، عليه أن يذهب إلى الخيّاط؛ وإلّا إذا أراد أن يقصّ القماش بنفسه، وأن يخيط الملابس بنفسه فسوف تكون إمّا ضيّقةً عليه أو واسعةً، أمّا الخيّاط، فقد صرف عمره في هذا العمل.

بناءً على هذا، نحن جُهلاء في كلّ الأمور باستثناء التخصّص الذي تخصّصنا فيه، ولا خجل في هذا الأمر؛ وعلى الإنسان أن يعود في كلّ أمرٍ هو جاهلٌ فيه إلى المتخصّص في ذلك الفنّ، ولا شُبهة في ذلك، وحينئذٍ يكون قد عمل طبقًا للقرآن؛ لأنّ القرآن يقول: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

والأشخاص الجهلاء عليهم أن يأخذوا الأحكام من المُجتهد، لأنّهم لا يعرفون، وهذا المجتهد يقول: أنا ذهبتُ واجتهدتُ وأعرف كيف أستنبط الأحكام من الكتاب والسنّة، وأن أبيّنها لكم. طبعًا هو لا يُريد أن يقول: هذا الأمر مُختصٌّ بي، ولي فضيلةٌ عليكم؛ لا، ليس هناك أيُّ فضيلةٍ؛ أنا ذهبتُ وصرفتُ رأس مالي الوجودي في هذه المسائل، وأنتم صرفتموها في تلك المسائل، فأنتم تُعينونني في تلك المسائل، وأنا أعينكم في هذه المسائل، وجميع أفراد البشر يعملون مع بعضهم البعض بهذا النحو، وسوف يُعطيهم اللَه أجرهم كلٌّ بحسب نيته.

بعض فوائد إرشادات الأستاذ الأخلاقي

١- إرشاداته تجعل العبادات مؤثّرةً

بناءً على هذا، فالطاعة من اللوازم الحتميّة، ولا يقتصر الأمر على أنّه يجب على الإنسان الطاعة في الأمور الشرعيّة والمسائل والأحكام الظاهريّة فحسب، بل ينبغي أن يكون مطيعًا حتّى في الإرشادات الأخلاقيّة والأمور الباطنيّة؛ لأنّ الإنسان إذا قال فقط: «أنا أصلي وأصوم أيضًا، وأقرأ القرآن وأؤدّي الصدقة وهذه الأمور العامّة كافيةٌ بالنسبة لي»، فهذا ليس كافيًا؛ لماذا؟ لأنّه ينبغي أن تكون هناك ميزة في تلك الصلاة بحيث تجعل الإنسان يتقدّم؛ وإلّا فمن الممكن للإنسان أن يُصلّي تسعين عامًا، ويبقى على ما هو عليه، ولا يتطوّر قلبه أصلًا، ولا يتقدّم، ومع انقضاء العمر وعدم طيّه لمرحلةٍ من المراحل أو لمنزلٍ من المنازل فيكون مغبونًا؛ لأنّ الإنسان يقول: «أنا أصلّي، وصلاتي تكون بحيث تُسقط التكليف أيضًا».

(١) سورة النحل (١٦)، ذيل الآية ٤٣.

وأمّا معلّمه الباطني، فيأتي ويعطيه إرشاداتٍ للصلاة، ويُنير له الطريق، فيقول: «صلِّ هذه الصلاة مع حضور القلب، وحضور القلب يكون بهذا النحو، مثلًا: ينبغي أن يُفرّغ نفسه بعيدًا عن الضوضاء والضجّة والناس والازدحام وأمثال ذلك لمدّةٍ من الزمن، وعند الصلاة لا تجعل صورةً أمامك، ولا تجعل مصباحًا أمامك، ولا يكن أمامك بابٌ مفتوحٌ، وعلى الإنسان أن يمتنع عن مكروهات الصلاة، وعليك أن تفرش سجّادةً، وعليك أن تُركّز حواسك، وأن تلتفتَ إلى أنّ هذه الصلاة التي تُصلّيها إنّما تُصلّيها للّه، وإلى أنّك تتكلّم فيها مع الله ـ **فالصلاة هي كلام العبد مع الله، وقراءة القرآن هي كلام الله مع العبد** ـ وعليك أن تلتفت إلى أنّ هذه الصلاة التي تُصلّيها للّه، هل يُجيبك الله أيضًا أم لا، هل يقول لك: لبيك، أم لا يقول؟! فلربّما قال الله لك: لبيك قبل ذلك، بحيث أنّه وفّقك للصلاة، فلو أنّه لم يقل لك: لبّيك، لما أمكنك أن تُصلّي».

وهذه الإرشادات تُعطى للإنسان، وهي تُوقظه وتلفت نظره إلى أنّه ينبغي أن يُصلّي، إنّ الله لم يكن بحاجةٍ إلى أن يُكلّف البشر كي يركعوا له ويسجدوا، وأن يقوموا بأمرٍ تكراريٍّ دائمًا بحيث لا يكون لهذا العمل جوهرٌ ومغزى، ولذا ينبغي أن يكون في العمل قربى، يعني: ينبغي للصلاة أن ترفع الحجاب عن الإنسان، وأن تحصّل له القُرب؛ أصلّي صلاتي مُتقرّبًا إلى الله، يعني: صلاتنا هذه تُقرّبنا إلى الله.

الاقتراب من ماذا؟ من أن يذهب الإنسان إلى السماء أو في الجبال والصحاري أو تحت الأرض، هل يقترب هناك من الله؟! الله ليس له مكانٌ، إنّ الاقتراب من الله هو الاقتراب من ناحية سير النفس وعرفان النفس، ورفع الحُجُب عن النفس؛ مثل: البُخل، والحسد، والكبر، والرياء، والغفلة.

إنّ الأستاذ يأتي ويُبيّن هذه الأمور للإنسان، فيقول له: يا سيّدي! إذا أردتَ أن تُصلّي، فعليك أن تكون هكذا أوّلًا، يجب أن تتّجه نحو القبلة، ويجب أن تكون صلاتك بهذا النحو، ويجب أن يكون خاتمك بهذا النحو، وعليك أن تتعطّر، وينبغي أن لا يكون

لباسك ذا لونٍ غامقٍ، فالملابس السوداء والرماديّة والبُنيّة ليست جيّدة بشكلٍ عامٍ لأن تكون لباسًا للمُصلّي، لا بدّ أن تكون ملابس الإنسان بسيطةً وذات لونٍ جميلٍ، ينبغي أن يكون لونها فاتحًا، فيكون لونها أبيضًا أو أصفرًا؛ لأنّ الملائكة تُحبّ هذه الألوان، وتكره الألوان الغامقة، تكره المنزل الذي يكون أسودًا وذا لونٍ غامقٍ؛ ولا تحتفظ بكلبٍ داخل منزلك، ولا تضع فيه صورةً؛ لأنّ الملائكة لا تدخل إليه أبدًا؛ ولا تترك القمامة في الليل في المنزل أبدًا، ضعها في الخارج؛ وإذا تركْتها في المنزل، فضع غطاء الزبالة عليها، ضع عليها غطاءً؛ لأنّ الملائكة لا تأتي.

فإذن، نحن لا نستطيع أن نقول: إنّ اللَه أراد منّا أن نُصلّي صلاةً، وقد صلينا تلك الصلاة؛ فماذا يُريد منّا بعد ذلك؟ رفعٌ للتكليف! ليست الصلاة رفع للتكليف؛ وهي ليست لعبةً، وليست مسرحًا للدمى المتحرّكة.

إنّ الصلاة دستورٌ لتكاملنا، وقد أُمِرنا بها على أساس الحقّ، إنّنا إذا صلينا تقدّمنا؛ ولكن إذا كرّرنا عملًا من تلقاء أنفسنا ومن دون إرشادٍ وهدايةٍ باطنيّة لمدّة تسعين عامًا، فسوف يكون هذا الأمر من ضمن تكرار المُكرّرات، ولن يفيدنا في شيءٍ؛ فمن جهة إسقاط التكليف، تمّ إسقاط التكليف، ولكنّها لم تُعطي للإنسان درجةً ولا مقامًا، فيأتي الإنسان إلى الدنيا أعمىً ويرحل عنها أعمى، ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[1]، أيّ عمىً هو المقصود؟ هل هو عمى العين؟ لا؛ لأنّه ورد لدينا في القرآن: ﴿**فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتي فِي الصُّدُور**﴾[2]، فلا يُطلق أصلًا على الأشخاص المصابين بالعمى في الدنيا بأنّهم عُمي، فهذا ليس هو العمى، إنّ العمى هو عبارةٌ عن عمى تلك العيون الموجودة في قلب الإنسان، ذلك هو العمى.

(١) سورة الإسراء (١٧)، الآية ٧٢.
(٢) سورة الحجّ (٢٢)، ذيل الآية ٤٦.

بناءً على هذا، فالشخص الذي تكون عينه عمياء في هذا المجال هو الأعمى، فتأتي الصلاة وتفتح عين الإنسان؛ وحتّى لو كانت عيناه الدنيويّتان عمياوتين، إلّا أنّ تلك العين [الباطنيّة] تُصبح مفتوحةً.

وذلك المعلّم الروحاني يقوم بهذا الإرشاد، يعني: هذا هو فنّ المعلّم الأخلاقي. مثلًا: في الصلاة، لا يقتصر على أن يستنبط ويجتهد في أنّ صلاة الظهر ينبغي أن تكون أربع ركعاتٍ، وإذا شكّ بين الثانية والثالثة بطلت صلاته[1]، وأنّ الشكّ في الصلاة الثنائيّة والثلاثيّة توجب بطلان الصلاة، أمّا الشكّ في الرُباعيّة فلا يُبطلها؛ لا يقتصر في بحثه فقط على هذه الناحية الخاصّة وعلى حدود الصلاة وحسب، بل ذهب ووصل إلى أسرار الصلاة، فكتب أسرار الصلاة أو تعلّم أسرار الصلاة؛ ووصل إلى ماهيّة أسرار الصلاة، فعلم ماهيّة القنوت، وماهيّة السجود، ومعنى أن يهوي الإنسان على التراب من أجل اللَه، ومعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، ومعنى الصلاة من الأساس.

وهذه المسائل ليست مجموعةً من المسائل التي تقتصر على كونها ظاهريّةً؛ ولذا هناك مجموعة من الدساتير الكليّة في جميع أمور الإنسان من الصلاة والطهارة والصوم والحجّ والمعاملة والنكاح، وذلك المعلّم والمُربّي الأخلاقي والروحاني والعرفاني الذي يعرف هذه الدساتير ويعرف أحكام الشريعة، يأتي ويغوص في باطن سرّها، ويجعل الإنسان يمشي في ذلك المستوى المعنوي، ويجعله يواجه ذلك المعنى النوراني كي يستفيض الإنسان من هذه الظواهر.

ولو أنّ الإنسان عمل بهذه الظواهر لمدّة ألف سنة، ولكن لم يكن عمله توأمًا مع الحقيقة، فلن تأخذ هذه الأعمال بيده؛ مثلما لو أنّ الإنسان أخذ جوزةً فلم يستفد ممّا في داخلها ومن خواصّها، ولم يستفدّ إلّا من قشرتها؛ ولو قال شخصٌ كذلك أنا لا أريد قشرها، فسوف أذهب وآكل لُبّها فقط، فكذلك لا فائدة في ذلك. إنّ اللَه يقول للإنسان:

(١) الشكّ بين الثانية والثالثة مُبطلٌ للصلاة إذا كان في الصلاة الثلاثيّة (المغرب)، أو في الرباعيّة بشرط أن يكون الشكّ قبل إتمام السجدة الثانية. (م)

(٢) سورة الفاتحة (١)، الآية ٥.

إنّ حقيقة خاصيّة الجوز واللوز موجودةٌ في بذرة الجوز واللوز، وخاصيّة التفاح موجودةٌ في نفس التفاحة وليس في غيرها، وعلى الإنسان أن يأكل التفاح حتّى يحصل على خاصيّتها، وعليه أن يأكل الجوز حتّى يحصل على خواصّه.

وعلى الإنسان أن يقوم ويصلّي، وعليه أن يُحرّك بدنه باتّجاه القبلة، فيركع ويسجد مع ذلك المعنى وتلك الحقيقة بحيث يتّجه من خلال البدن إلى كعبة اللَه، ولا يُعطّل بدنه؛ وكذلك عليه أن يتجّه إلى اللَه من خلال مثاله وقوّته الإدراكيّة، وكذلك من خلال قلبه؛ فينبغي أن تُصلّي جميع شراشر الإنسان للَّه؛ هذه الصلاة صلاةٌ كاملةٌ، وهذا هو الحرم، ولو أنّ اللَه وفّق الإنسان لأن يُصلّي ركعتين بهذا النحو؛ فإنّ ذلك سوف يكون حديثًا مع اللَه.

أين هو اللَه حتّى نُريد أن نجد اللَه؟! هل اللَه في السماء؟ في الشرق؟ في الغرب؟ تحت الأرض؟ أم أنّ اللَه معنا؟ إنّه مُحيطٌ بكلّ موجودٍ من الموجودات، وقبل أن نتكلّم، فإنّ اللَه معنا، إنّ اللَه معنا نحن، إنّ اللَه أمامنا.

«ما رَأَيتُ شَيئًا إلّا ورَأَيتُ اللَهَ قَبلَهُ وبَعدَهُ ومَعَهُ»[1]، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول: أنا لم أنظر إلى شيءٍ إلّا ورأيت اللَه قبل هذا الشيء وبعده ومعه، حسنًا! لو أنّنا صليّنا صلاةً كهذه الصلاة، ألن نرى اللَه؟! هل سنراه في السماء؟! إنّ اللَه موجودٌ في وجودنا وسرّنا، ألن تُحصّل هذه الصلاة النورانيّة للإنسان؟! ألن تُقرّبه؟! ألن تجعله

(١) ***توحيد علمى وعينى*** (فارسي)، ص ١٩١، التعليقة: «لقد ذكر المرحوم صدر المتألّهين هذا الحديث بهذه العبارة في ***الأسفار الأربعة***، الطبعة الحجريّة، ج ١، ص٢٦ ووفي الطبعة الحروفيّة، ج ١، ص ١١٧؛ كذلك ذكره المرحوم السبزواري في حاشيته على *شرح منظومته* في ص ٦٦ من طبعة ناصري، حيث ذكره في باب كيفيّة تقوُّم المعلوم بالعلّة. وقال المرحوم صدر المتألّهين بعد ذكره للرواية مرفوعةً إلى أمير المؤمنين عليه‌السلام بهذه العبارة: ورُوِي: "معهُ" و"فيه"، يعني: **"ما رأيت شيئًا إلّا و رأيت اللَهَ معه و فيه"** وقال المرحوم العالم الرباني الحاجّ الميرزا جواد آغا ملكي التبريزي ـرضوان اللَه عليهـ في ***أسرار الصلاة***، ص ٦٥: قوله عليه‌السلام (يعني أميرالمؤمنين عليه السلام): **"ما نظرتُ إلى شيءٍ إلّا و رأيتُ اللَهَ قبلَه وبَعدَه ومعه"**، وقال في رسالة ***لقاء اللَه*** (النسخة الخطّيّة)، ص ٧: قال الإمام الصادق عليه‌السلام: **"ما رأيتُ شيئًا إلّا ورأيتُ اللَهَ قبلَه وبعدَه ومعه"**».

يتحرّك؟! إنّ هذه الحركة تلزم عن هذا العلم، فهذا السلوك هو بنفسه علمٌ.

في السابق كان هناك مناهج علميّة وتربويّة في الحوزات الكبيرة، فكان مُعلّمو علم الأخلاق والمجتهدون الكبار يقومون بتربية تلامذتهم، كان البعض يتكفّل بإدارة أمور الناس، ولكن بعض المجتهدين الكبار كانوا مربّين أخلاقيّين؛ ففي الأزمنة السابقة كان هناك **الشهيد الأوّل**، و**الشهيد الثاني**، و**ابن مسكويه**، و**ابن فهد**، و**ابن طاووس**، و**المرحوم السيّد مهدي بحر العلوم**؛ وفي الأزمنة الأخيرة هناك **الآخوند الملّا حسين قلي الهمداني**، وتلامذته المبرّزين، فهؤلاء كانوا أساتذةً كبارًا في العرفان والأخلاق، وكم هي عجيبة المراتب والمعاني التي طواها هؤلاء، لقد كان كلّ واحدٍ منهم أعجوبةَ زمانه، وكان كلّ واحدٍ منهم وحيد عصره، وكان كلّ واحدٍ منهم **وَتدًا في الأرض**؛ وكان عملهم هو هذا؛ وكانوا يُربّون الأفراد الذين يطلبون هذا المقام.

فليس جميع الأفراد يطلبون هذا المقام، ولا يتحمّلونه أيضًا؛ ولذا فقد أعلن اللَه للجميع: «من أراد فليأتِ، ومن لا يريد فلا يأتِ؛ فالاختيار بأيديكم»[1].

إنّ اللَه عزّ وجلّ قال للإنسان: صلِّ الصلاة الواجبة، ولكنّ اللَه لا يُسيطر على الإنسان بحيث يأتي ويأخذ بيد الإنسان ويُصحّح تفكير الإنسان من خلال الزناجير، قال: أنا أوجب الصلاة، فإذا أردتَ أن تُسقط التكليف وأن لا تذهب إلى النار، فهو حسنٌ أيضًا، وصلِّ صلاتك هذه، وقُم بأعمال الخير والمبرّات، ونحن لا نذهب بك إلى جهنّم، وسنجعلك من أصحاب اليمين أيضًا، ولكن إذا أردتَ أن تجعل فكرك مفتوحًا، وأن تَصِل إلى مقام الإنسانيّة، وأن تُصبح إنسانًا كاملًا، وإذا أردتَ أن توصل القوى والاستعدادات والقابليّات التي منحك اللَه إيّاها إلى الفعليّة والتحقّق، فهذا الأمر مُحالٌ بدون معرفة اللَه وبدون لقاء اللَه.

---

(١) هذا المعنى متكرّرٌ جدّاً في آيات القرآن الكريمة، فعلى سبيل المثال نجد أنّه ورد بشكلٍ واضح في قوله تعالى: ﴿**مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ**﴾ (سورة الشورى (٤٢)، الآية ٢٠). (م)

٢- الأستاذ الأخلاقي يُعلّم السالك كيف يزيل الحجب وكيفيّة المراقبة

«**عَبدي أَطِعني حَتَّى أَجعَلَك مِثلي (أو مَثَلي)**»[١]، وعند ذلك سوف يعرف الإنسانُ اللَهَ كما ينبغي أن يعرفه؛ سيرى اللَه بدون حجاب، وليس من وراء نظّاراتٍ رماديّةٍ أو حمراء أو صفراء أو سوداء، حيث يُمكن للشخص الذي يضع نظّاراتٍ رماديّةٍ أن يرى الأشياء، ولكنّه سيراها رماديّةً، وسيقول: الشمس رماديّةٌ والقمر رماديٌّ، والأنوار رماديّةٌ، والجدار رماديٌّ، والبرتقال رماديٌّ، والعنب رماديٌّ، والورق رماديٌّ؛ وسيرى الشخص الذي يضع نظّارةً حمراء جميع الموجودات حمراء؛ وإذا وضع نظّارات صفراء فكذلك الأمر؛ وإذا وضعها خضراء فكذلك؛ فهل الموجودات بهذا اللون واقعًا؟ لا بل هذا ناشئٌ عن الحجاب، هناك حجابٌ موضوعٌ أمام عينيه بعد ذلك حينما يأتي ذلك النور الأزلي الذي يُظهر الموجودات بنوره الواقعي، فيتصرّف من نفسه، يتصرّف تصرّفًا نفسيًّا، يقول: حسنًا، ضع تصرّف النفس هذا جانبًا، وعند ذلك شاهد الأمور بلا تصرّف النفس، انزع النظّارات الرماديّة والحمراء والخضراء عن عينيك، وانظر من خلال العينين التي منحهما اللَه لك، انظر من خلال النظّارات التي لا تتصرّف، تلك البيضاء المحضة والشفّافة، لكي تتعرّف على كل موجودٍ، فحينما يضع الإنسان النظّارات الحمراء، فإنّه سيرى كلًّا من الشيء الأحمر والشيء الأبيض أحمرًا؛ ولكن حينما يضع نظّرات بلا لون، فسوف يقول: هذا أحمر وذاك أبيض، هذا أصفر وذاك أخضر.

عندما ينظر الإنسان بنظّارات البُخل والحسد والكِبر والحُبّ والرياسة وكذا وكذا وبنظّارات الانغمار في الشهوات، أو بنظّارات الجبّاريّة والعياذ باللَه، و...؛ وافرضوا أنّه

---

(١) ***معرفة المعاد***، ج ٣، ص ٢٠، الهامش (٢): «أورد هذا الحديث في «***كلمة اللَه***» ص ١٤٠، وقال في ص ٥٣٦ عند ذكر سنده إنّه نقله عن ثلاثة كتب: **الأوّل**: «***عدّة الداعي***» لأحمد بن فهد الحلّيّ. **الثاني**: «***مشارق أنوار اليقين***» للحافظ رجب البرسيّ. **والثالث**: «***إرشاد القلوب***» للديلميّ. ثمّ قال بعد بيان هذا الحديث إنّه ورد أيضاً بهذه الكلمات: "**يَا بْنَ آدَمَ أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ؛ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ غَنِيّاً لَا تَفْتَقِرُ يَا بْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ؛ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيّاً لَا تَمُوتُ؛ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ؛ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ**"».

يُصلّي صلاته أيضًا، ويصوم أيضًا، وفي ليلةٍ من الليالي يستغفل نفسه ويُطيل شعر لحيته فإنّه يُصبح مقدّسًا [بنظر الناس] ولكن لا فائدة في ذلك.

إنّك ترى في بعض الأحيان تاجرًا في البازار يُعاوض مئتي تومان بشكلٍ ربويٍّ مع علبةٍ من الكبريت؛ هذا الأمر ليس صحيحًا، وإذا كان الإنسان يُريد طريق اللَه فيجب أن لا يعمل هكذا، افترضوا أنّه يحتال، يحتال بحيلةٍ شرعيّةٍ، والحيلة الشرعيّة تُصحّح الموضوع، مثلًا: الشرع يقول: إنّ الربا محرّم أيّها المحترم، فيأتي هذا الشخص ويأخذ مئتي ألف تومان بالربا، ويعمل حيلةً شرعيّةً لذلك، فهذا خطأ.

إنّ المعلّم الأخلاقي يقول للإنسان: في منتصف الليل عليك أن تُناجي اللَه؛ وحينما تذهب إلى باب السوق وتتعامل مع زبونٍ غريبٍ وريفيٍّ، فهناك يجب أن يكون الوضع كالوضع في الليل ومنتصف الليل [فأنت هنا تتعامل مع اللَه أيضًا]؛ وإذا احتلتَ بقرشٍ من النحاس، فذلك جُرمٌ وتلبيسٌ، والاحتيال هو عملٌ خاطئ.

ليس العرفان في السجّادة والليل والمناجاة والعتمة؛ العرفان يعني: التعامل في السوق، يعني: التعامل في الكليّة، يعني: التعامل في الشارع، يعني: التعامل في الباص، يعني: التعامل مع الزوجة، يعني: التعامل مع الطفل، يعني: التعامل مع الجار، يعني: التعامل مع كلب المنزل، والتعامل مع قطّة المنزل، فجميع هذه الأمور معاملة، ما معنى ذلك؟ يعني: يجب عليك أن تُعطي زوجتك حقّها، وأن تُعطي قطّة المنزل حقّها، وأن لا يتكلّم الإنسان مع خادمه بنحوٍ سيّءٍ، وإذا أراد الخادم أن يتناول الطعام فعليك أن تعطيه الطعام، وعلى الإنسان أن يتناول الطعام معه، وأن لا يرى أنّ طعامه أعلى من طعام الخادم؛ وعلى الإنسان أن يتناول الطعام مع سائقه، وأن لا ينظر لمن يعمل تحت يده على أنّهم تحت يده؛ سواء أكان عبدًا أم كان مستخدمًا مثلًا أو كذا...، لقد عيّن اللَه له هذا المسير، وعيّن لك هذا المسير أيضًا، فمِن أين نعلم بأنّه ليس أعلا منك؟! ومِن

أين نعلم أنّ قلبه ليس أصفى، وأنّ إدراكه بين نفسه وبين اللَه ليس أفضل؟! فاللَه جعله أسود اللون وجعلنا بيضًا، جعله فقيرًا وجعل هذا الشخص غنيّاً، جعل هذا رئيسًا وذاك مرؤوسًا.

نموذج من سيرة النبيّ الأكرم والأئمّة عليهم السلام ومنهجهم في التعامل

[على الإنسان أن يفعل] مثلما كان يفعل الإمام الرضا عليه السلام، حيث كان يجمع جميع غلمانه ويجلس معهم على سفرةٍ واحدةٍ ويتناول الطعام؛ وكان يستأنس جدّاً[1]؛ هذا يُسمّونه: عرفان.

ومعلّم العرفان يُبيّن بأنّه على الإنسان أن يكون مثل الإمام الرضا، على الإنسان أن يتّخذ الإمام أسوةً وأن يتصرّف مثله، [يأتي شخصٌ ويقول:] الآن شخصيتي تقتضي أنّني إذا دخلتُ مكانًا فينبغي أن يدخل خلفي عشرة أشخاصٍ وأن يُعظّمونني، إنّ هذا الكلام اعتباطيٌّ، «**إنّ الطريق هو مثلما ذهب أصحاب الطريق**».

لقد كان النبيّ أعظم رجلٍ، كان أعظم رجال العالم، وأعظم موجودٍ في عالم الخلقة؛ فكيف كان؟ كيف كان يمشي؟ كيف كان تواضعه؟ كان يجلس مع الغلمان، وكان يأكل مع الغلمان[2]، وكان النساء يأتون إليه ويُحضِرون إليه الأطفال ليُسمّيهم، فكان يُجلسهم في حضنه، وكان الطفل يبول في حضن النبيّ؛ فكانت تقوم قيامة الناس! أمّا النبيّ فكان يقول: «حسنٌ جدّاً! أعطوني قليلًا من الماء، لم يحصل أمرٌ مهمٌّ، لماذا هذا الصياح؟! فليُنهي الطفل بوله، لماذا كلّ هذا الصياح؟» ثمّ كان النبيّ يقوم بغسل ثيابه بنفسه، ولم يكن يُعطيه لزوجاته؛ وبالطبع الثوب يَطْهُر بكفٍّ من الماء.[3]

كان النبيّ يمشي يومًا من الأيّام في أحد الأزقّة، وكانت هناك امرأةٌ تجلس إلى جانب الزقاق، فنادته: «يا رسول اللَه! تعال واجلس إلى جانبي»، فذهب النبيّ وجلس عندها،

(١) ***عيون أخبار الرضا***، ج ٢، ص ١٨٤.
(٢) ***مكارم الأخلاق***، ص ٢٦.
(٣) ***سنن النّبي***، ص ١٢٢، ح ١٨؛ نقلًا عن ***مكارم الأخلاق***، ص ٢٥.

فقالت له: «كُل من طعامي هذا»؛ فتناول النبيّ لقمةً ووضعها في فمه، فقالت: «يا رسول اللَه! أُحبُّ أن تستخرج تلك اللقمة التي في فمك وأن تُعطيها لي». فأخرجها النبيّ، فتناولتها.[1]

ما سرّ ذلك؟! وما هي رؤيته واقعًا؟! فهذا النبيّ مع ذلك المقام ومع ما له من كمالٍ، ينظر إليها بنظرةٍ إلهيّةٍ، إنّها مخلوقٌ للَّه، وهي مرتبطةٌ باللَه، إنّها إنسانٌ، تقول له: تعالَ واجلس بجانبي، إنّه طلبٌ صغيرٌ، ثمّ تطلب منّي أن تعالَ وتناول من طعامي، بعد ذلك تأتي وتطلب هذا الأمر منّي؛ حسنًا؟ فأنا أقول: «الآن بما أنّني نبيّ، إذن ليس من شأني أن أجلس معكِ»، في هذا الموطن هذا الأمر ممنوعٌ، فالشأنيّة هنا لا تنفع.

هنا تأتي أمثال تلك الآيات القرآنيّة التي تزجر وتحذّر وتقول: «إيّاك أيّها النبيّ! إيّاك أن تقترب من هؤلاء الكفّار، فإنّك لو اقتربت من الشرك وعبادة الأصنام والعناد و... بمقدار رأس إبرة فإنّنا سوف نُسقطك من جميع الوجود»[2].

إنّ نورانيّة النبيّ معناها الجلوس مع امرأةٍ من أبناء السبيل تجلس على طرف الزقاق وفقيرةٍ وتجلس على التراب؛ والنبيّ يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمين، أنا أفقر الفقراء، وأيّ فقيرٍ أفقر منّي؟»[3] وهذه هي الحقيقة، فإنّ النبيّ إذا عاد إلى نفسه، فإنّه يرى نفسه فقيرًا جدّاً، اللَه هو الغنيّ وحسْب، كلّ شخصٍ يدّعي الغنى لنفسه فهذا الادّعاء باطلٌ، وسوف يُريه اللَه بأنّ ادّعاءه باطلٌ؛ فإذا ادّعى الإنسان الغنى لبدنه، فسوف يُريه اللَه بأنّ

---

(١) ***بحار الأنوار***، ج ١٦، ص ٢٢٥.

(٢) إشارةٌ إلى مضمونٍ ورد في عددٍ من الآيات، ومن ضمنها قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلًا * إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصيرًا**﴾ (سورة الإسراء (١٧)، الآيتان ٧٤ و ٧٥)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصير**﴾ (سورة البقرة (٢)، الآية ١٢٠). (م)

(٣) لقد وردت في المجامع الروائيّة عباراتٌ بهذا المضمون: «**فأيُّ فقيرٍ أفقرُ منّي**»، «**أصبَحتُ فقيرًا ولا أجِدُ أفقرَ مِنّي**»، «**ولا أحدَ أفقرَ مِنّي إليك**»، «**لا أجِدُ أفقرَ مِنّي إليك**» و غيرها، وقد وردت عن كلٍّ من النبيّ عيسى والإمام الحسن المجتبى والإمام علي بن الحسين عليهم السلام وغيرهم. (م)

هذا الادعاء غلطٌ، وسوف يأخذ منه [قوّة] بدنه؛ وإذا اعتمد الإنسان على عينه، أو على إدراكه، أو على فهمه، أو على أيّ شيءٍ آخر، ففي نهاية المطاف هناك الموت، وستأتي الجرّافة وستُسوّي التراب، ثمّ تذهب، وينتهي الأمر.

فإذن على الإنسان أن يقول: يا إلهي، هذه العين التي منحتني إيّاها هي نعمةٌ وآيةٌ من آياتك، فوفّقني لكي أنفقها في سبيلك؛ ويدي لك، وقلبي لك، وإدراكي لك، وكلّ نعمةٍ أنعمتَ بها عليّ هي لك، وهي ليست لي، فأنا فقيرٌ. وقولك: «أنا فقير» يعني: أنّك عبدٌ، يعني: أنّ عليك أن تُطيع كلام المولى، يعني: أن تقول: أنا مطيعٌ.

تأتي هذه المرأة وتقول: يا رسول اللَه تعالَ واجلس معي؛ وهذا النبيّ هو عبدٌ للَّه، فيستجيب إلى طلبها ويقول: سمعًا وطاعةً؛ هذا يُقال له: عبدٌ.

«أشهَدُ أنّ محمّدًا عَبدُهُ ورَسولُه»، إنّ الشهادة في هذه العبارة على العبوديّة مُقدَّمةٌ على الشهادة على الرسالة، ومقام العبوديّة أعلى من الرسالة؛ فأوّلًا ينبغي أن يكون الإنسان عبدًا حتّى يجعله اللَه رسولًا، لا أنّ اللَه يجعله رسولًا أوّلًا ثمّ بعدها يُعطيه مقام العبوديّة، هذا غلطٌ؛ فطالما لم يُصبح الإنسان عبدًا فهو غير مؤهّلٍ للرسالة.

العبد يعني: ذلك الشخص الذي خرج من جميع أنانيّته ورأيه الشخصي وفكره الشخصي، ومثله مثل ذلك المريض في المستشفى بالضبط، يجب أن يخرج من جميع إرادته؛ ويجب أن يكون مثل الشمع [يتشكّل بأيّ شكلٍ يُريد صاحبه أن يُشكله فيه]، وأن يُسلّم نفسه إلى يدي الطبيب، فإذا وجّهه إلى تلك الجهة قال: سمعًا وطاعةً. وإذا وجهه إلى تلك الجهة؛ سمعًا وطاعةً. سأحقنك بإبرةٍ هنا؛ سمعًا وطاعةً. وسأحقنك هناك؛ سمعًا وطاعةً. يا سيّد لا تتناول اليوم الطعام؛ سمعًا وطاعةً. ويا سيّد تعال تحت سكّين الجرّاح؛ سمعًا وطاعةً.

أمّا أن يسأل: كم سوف يطول تخديري العام؟ [فيخبرونه]، ثمّ يقول: هذا المقدار من التخدير كثيرٌ عليّ! يُقال له: يا سيّد التدخّل في هذا الأمر ممنوع! فلماذا تُضيّع وقتك؟!

هذه هي القاعدة، هذا من يُطلقون عليه بأنّه عبدٌ، وهذا المقام مقامٌ عالٍ جدّاً، فكم لديه من الصفاء! وكم لديه من الخضوع!

لو أنّ الإنسان نظر إلى حالة النبيّ هذه واقعًا، فإنّه سيرى أنّه يعيش في أيّ عالمٍ، وكيف أنّه يرى أنّ جميع وجوده في مرأى ومنظر اللَه عزّ وجلّ، وأنّه في حال تكلّمٍ ومناجاةٍ دائمةٍ مع اللَه، يعني: كان مع اللَه دائمًا، واقعًا كان في حالةٍ من السرور الشديد.

تأتي هذه المرأة وتقول: تعالَ واجلس عندي، فهل يشعر النبيّ في نفسه في البداية شعورًا بعلوّ القدر والرفعة ثمّ يتنازل ويأتي ويجلس؟! لا، فلو كان كذلك لكان خطأ؛ بل إنّ النبيّ على درجة من الصفاء والنقاء كالماء الزلال بحيث إنّه بمجرّد أن قالت: تعالَ واجلس، ذهبَ وجلسَ؛ هذا المقام هو الذي يُطلق عليه: «مقام العبوديّة»؛ ويتمّ تحصيل هذا المقام على إثر إطاعة أمر اللَه عزّ وجلّ.

نتيجة الطاعة

لقد جاء رسول اللَه والأئمّة ليجعلونا نمشي في هذا المنهاج، يعني: من أجل أن يُوضّحوا الفكرة للإنسان، ويقولوا: «أيّها البشر! أنتم بشرٌ، وسوف تصلون إلى مقام التوحيد وأنتم مظهرٌ لجميع أسماء اللَه وصفاته، أنتم خليفة اللَه، والقابليّة والاستعداد الممنوحان لكم من اللَه هما قابليّةٌ واستعدادٌ غير متناهيان؛ وإذا ما صرفتموهما في سبيله، فسوف تُصبحون مثل سلمان وأبي ذرّ والمقداد ورُشيد وكُميل والأصبغ بن نباتة وحبيب بن مظاهر، فهؤلاء لم يدرسوا في الجامعات، ولم يكونوا يعرفون مصطلحات العلوم. نعم، لا شكّ في هذا الأمر أبدًا».

ولكن على إثر الطاعة نجد أنّ النبيّ قال عن سلمان: «**سَلمانُ مِنّا أَهلَ البَيت**»[1]، لقد أصبح منّا أهل البيت، منّا!

(١) ***بحار الأنوار***، ج ١٧، ص ١٦٩.

ما الذي أدّى إلى ذلك؟ الطاعة، فقد وصل إلى النبيّ وآمن به؛ قُم بهذا العمل؛ سمعًا وطاعةً. وقُم بذلك الفعل؛ سمعًا وطاعةً. ولم يكن يُبدي رأيًا من نفسه، ولم يكن يأمر النبيّ بأمرٍ، ولم يكن يدلّ النبيّ على الطريق.

أمّا عُمَر وأمثاله فبعد أن أسلموا؛ بدؤوا يُرشدون إلى الطريق، وينتقدون، وكانوا يقومون بتوجيه أفعال النبيّ [إلى وجهة معيّنة]؛ يا رسول اللَه! لو أنّك تفعل كذا لكان أفضل؛ يا رسول اللَه! قم بهذا الفعل.

لقد جاء عُمر في غزوة تبوك إلى النبيّ وقال: «يا رَسولَ اللَه لا تَفعَلْ!»[1]. فهو لم يخرج من نفسه، وبقي في قالب نفسه.

ثمّ جاء عُمر بعد ارتحال رسول اللَه وأزال «**حَيَّ علَى خَيرِ العَمَل**» من الأذان، وقال: نحن إذا قُلنا: «**حَيَّ علَى خَيرِ العَمَل**»، فمعنى ذلك: أنّ الصلاة هي أفضل الأعمال؛ وبالتالي لن يذهب أحدٌ إلى الجهاد، ولذا أزيلوا هذا الفقرة، فأزالوها. وما زال الأمر كذلك حتّى الآن.[2]

حسنًا، ألا يفهم رسول اللَه هذا الكلام؟! فأيّ جهادٍ في سبيل اللَه هو الذي له فضيلةٌ؟ ذلك الجهاد الذي يكون في ظلّ الصلاة أم الذي يكون بدون الصلاة؟! هل على الإنسان أن يكون مصليّاً أوّلًا ثمّ يُصبح مجاهدًا؟ أم يكون مجاهدًا أوّلًا ثمّ يُصلّي؟! إنّ ذات الإنسان يجب أن تكون مصلّيةً للَّه. إذن الصلاة هي **خَيرُ العَمَل** لا الجهاد، الإسلام من أجل الصلاة، والجهاد من أجل الصلاة، والمسلم يذهب إلى الحرب حتّى يُصبح الكفّار من أهل الصلاة، ولكي يقتربوا من حرم اللَه، وليُعطيهم معراجًا، «**الصَّلَاةُ قُربانُ كُلِّ تَقيٍّ**»[3]؛

---

(١) لمزيدٍ من الاطلاع على اعتراضات عمر على رسول اللَه صلّى اللَه عليه وآله وسلّم، راجع: ***معرفة الإمام***، ج ١٠، ص ٢٢٦ إلى ٢٣٤. (م)

(٢) ***سيرة الحلبي***، ج ٢، ص ١٠٥، نقلًا عن ***موطأ مالك***؛ ***البداية والنهاية***، ج ٣، ص ٢٣؛ ***صحيح مسلم***، ج ٢، ص ٣؛ ***مسند أحمد***، ج ٣، ص ٤٠٨.

(٣) ***الكافي***، ج ٣، ص ٢٦٥.

إنّها تخرج جميع نفوس البشر من الهواجس والأماني والحُجب النفسانيّة، وتسوقها نحو عالم الأنس والخلوة مع اللَه، هذه هي خصوصيّة الصلاة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: ما أعلَمُ شَيئًا تحتَ السّماءِ أفضَلَ وأشْرَف مِن هَذه الصَّلاة[1]؛ [ويقول الله عزّ وجلّ:] ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾[2] وذكر اللَه هو الصلاة، وهي أعلى وأكبر من كلّ شيءٍ.

ثمّ نأتي نحن ونقول: لن نذكر «**حَيَّ عَلَى خَيرِ العَمَل**»؛ كي يذهب الناس إلى الجهاد، إلّا أنّه جهادٌ خالٍ من الصلاة؛ ولذا نجد أنّهم جاهدوا، واستولوا على الدنيا، ولكنّهم لم يجعلوا أهل الدنيا مصلّين حقيقيّين.

هذا مُضادٌّ لمنهج أمير المؤمنين، فإنّ منهج أمير المؤمنين يقول: يجب أن يكون الإنسان مصلّيًا أوّلًا، ثمّ يذهب إلى الجهاد، إنّهم تركوا الصلاة وذهبوا إلى الجهاد! فاستولوا على الدنيا، ولكن لم يُوجِدوا مصلّين، فذهب كلّ شيء، وإلى الآن لا توجد صلاةٌ في الدنيا.

ونحن بدورنا نسير خلف إمام الزمان، وهو يأتي ويصنع مُصلّيًا؛ ويجعل الناس مُصلّين؛ ويجعل الناس تتحرّك من الباطن باتجاه اللَه، ويُوصلهم.

خلاصة الأمر، جميع ذلك كان على إثر الطاعة، وسلمان إنّما وصل إلى مقام أولياء اللَه على إثر الطاعة، فرَفَع الحُجب وأَخرَج جميع قابليّاته وأوصلها إلى الفعليّة وأصبح إنسانًا كاملًا، والآن لو أنّ الإنسان لم يطوِ سبيل الطاعة، ومشى طبق ذهنه وسليقته، فحتّى لو كان يدرس، ولو كان مُجتهدًا أيضًا، ولو حصّل مقاماتٍ عاليةٍ أيضًا، فإنّه لا يستطيع أن يُحصّل هذه الحالات القلبيّة.

---

(١) ***الكافي***، ج ٣، ص ٢٦٤: «عن معاوية بن وهب قال: سَألتُ أبا عبد اللَه عليه‌السلام عن أفضَلِ ما يَتَقَرَّبُ العِبادُ إلى رَبِّهم و أحَبِّ ذلك إلى اللَه عزّ وجَلّ ما هو؟ فقال: "**ما أعلَمُ شَيئًا بَعدَ مَعرِفةِ اللَهِ أفضَلَ مِن هذه الصَّلاة.**"»

(٢) سورة العنكبوت (٢٩)، مقطع من الآية ٤٥.

مثلًا الشخص الذي يُريد أن يحلّ معادلةً من الدرجة الثانية، فحتمًا يجب أن يذهب إلى ذلك الصفّ، وإلّا لا يُمكن أن يرسم منحنى من الدرجة الثانية؛ فهو لا يستطيع أن يستنتج جذرًا من هذا المجهول، وأن يحسب أنّ كذا وكذا يُساوي كذا؛ بل يجب حتمًا أن يأتي إلى الصفّ، وأن يذهب إلى أستاذٍ ليتعلّم ذلك.

إنّ درس الطهارة والمعرفة والأخلاق هو درس رسول اللَه، وهو ينطبق مع سنّة رسول اللَه؛ فماذا كان يفعل؟ قال النبيّ: يجب أن تنهض في الليل، ويجب أن تُناجي، ويجب أن تخلو مع اللَه، وأن تبثّ شكواك للَّه؛ فالصلاة هي بثّ الشكوى للَّه، وعرضٌ للحاجة على اللَه، وطلبٌ لـ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، فإنّ معنى «**اللَهُ أكبَر**»: هو أنّه ما من موجودٍ مؤثّرٍ إلّا اللَه، فـ«**اللَهُ أكبَرُ مِن أن يُوصَف**»[1]؛ وحينما يكون «**اللَهُ أكبَرُ مِن أن يُوصَف**» فلماذا يعير الإنسان اهتمامًا للشيطان؟! لماذا يخاف من الشيطان؟! يعني: يأتي الشيطان ويُقارع اللَه؟! ويتقدّم على اللَه، ويُؤخّر حكم اللَه، ويُسيطر على اللَه؟! لا، لا يحصل ذلك، **اللَهُ أكبَرُ مِن أن يُوصَف**.

حينما يقول الإنسان: اللَه، فهذا نورٌ، فمن خلال كلمة «اللَه» واحدة، يُضاء مصباحٌ ذو ألف شمعةٍ أو أكثر، ويُضاءُ منزلٌ، وتذهب جميع الظلمات، ومن خلال «اللَه أكبر» واحدة، تأتي شمسٌ فوق السماء وتُنير الأرض، وهذه الإنارة قلبٌ، فماذا يُمكن للشيطان أن يصنع هناك بعد الآن؟! إنّ الشيطان هو للأشخاص الذين لا يقولون: اللَه أكبر، والذين يقبعون في الغفلة، والمغرورين بأنفسهم، فهؤلاء يعيشون في عنادٍ وتكذيبٍ وجحودٍ.

لقد ورد في القرآن المجيد: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾[2]، فهذا الإنكار لهم، وليس للأشخاص الذين يقولون: نحن نُريد أن نكتسب سرّ التسليم، ويا اللَه أرِنا الطريق! ونحن مُخلصون لك أيضًا، ونحن نمشي أيضًا، فإنّ اللَه يُحبّ هؤلاء، ويستقبلهم بالأحضان، ويجعلهم تحت كنفه، ويمسح على رؤوسهم ـ وطبعًا هذه العبارات للتشبيه ـ

(١) ***الكافي***، ج ١، ص ١١٧.
(٢) سورة النمل (٢٧)، مقطعٌ من الآية ١٤.

وتشملهم رحمته، ويُرسل ملائكته، ويجعل قلبهم مسرورًا، ويزهرهم، ويشرح صدورهم؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[1]، ينشرح صدرهم، يعني: يخرجهم من الضيق، وتجلس معاني الإسلام والتسليم في صدورهم، فالعالم ليس ضيّقًا بالنسبة له، وله سعةٌ وسيطرةٌ على العالم، وله حكومةٌ على العالم؛ يعني: يرى أنّ جميع الموجودات مرتبطةٌ باللَه، وكلّما قابل موجودًا فإنّه ينظر إليه من وجهة نظر اللطف والرحمة، وليس من وجهة نظر الغضب؛ لأنّ الجميع مُسخّرٌ ليد قدرة اللَه عزّ وجلّ، وهو ينظر إلى الموجودات بنفس هذه النظرة الإلهيّة لا بالنظر النفسي؛ لأنّه أصبح عبدًا وخرج من نفسه، فما معنى أنّه أصبح عبدًا؟ يعني: أطاع اللَه عزّ وجلّ، وعند ذلك نرى بأنّ المخالفين حتّى لو كان صوتهم عاليًا، إلّا أنّهم لا يستطيعون فعل شيءٍ.

نتيجة ترك الطاعة

لقد جاء عُمَر وأصبح خليفةً، وحارب إيران وفعل كذا وفعل كذا، وقد وصلت حكومته في ذلك الزمان إلى تلك البقاع؛ ولكن نفس إبداء الرأي؛ يا رسول اللَه! افعل هذا الفعل. يا رسول اللَه! افعل ذلك الفعل. نفس إبداء الرأي هذا أدّى إلى ضياعه كذلك؛ فهل كان رسول اللَه أقلّ في عقله منك؟! واقعًا، هل كان عقله أصغر؟! هل كان إدراك رسول اللَه أقل؟! هل تقبل أنت برسول اللَه وبالنبوّة وبالنورانيّة والولاية؟! أنتَ الذي وصلتَ للتوّ إلى النبيّ، ألم ترَ جميع تلك المعجزات والكرامات من النبيّ؟! فما معنى هذه الأوامر إذن؟! لماذا تُؤذي النبيّ؟!

لقد كانوا يُؤذون النبيّ حتّى نزلت آيات القرآن، ففي نهاية المطاف النبيّ لديه خجلٌ وحياءٌ؛ مثلًا: كانوا يأتون إلى داخل منزل النبيّ، حسنًا كان للنبيّ تُسع حجرٍ؛ وكانت كلّ واحدةٍ من زوجاته في حجرةٍ؛ لم تكن عشرة منازل، بل عشر حجرٍ؛ وهؤلاء كانوا يأتون مثلًا إلى غرفة النبيّ ويجلسون لتناول الطعام، وكانوا يُطيلون الجلوس

(١) سورة الزُّمر (٣٩)، صدر الآية ٢٢.

ساعتين ويتحدّثون، فماذا يصنع النبيّ؟! هل يقول: قوموا واخرجوا من منزلي، كان يخجل أن يقول ذلك، لقد كان النبيّ رجلًا حَيِيّاً، أي: كان كتلةً من الحياء؛ وعند ذلك كيف تنزل آيات القرآن لتفهيم الناس أن لا تذهبوا وتؤذوا النبيّ إلى هذا الحدّ، حينما يدعوكم اذهبوا، ولكن إذا دعاكم فلا تذهبوا قبل الميعاد بساعةٍ وتنتظروا حتّى يضع لكم صحن الطعام، ﴿**فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا**﴾[1]، ففي هذه الآية دلالةٌ على أنّهم كانوا يؤذون النبيّ.

لا تذهبوا إلى نساء النبيّ، ولا تتكلّموا معهنّ إلّا من وراء حجاب، كانوا يذهبون ويتكلّمون معهنّ، ويقولون مثلًا: إذا ارتحل النبيّ عن الدنيا فسوف نتّخذكنّ أزواجًا لنا، وأمثال ذلك؛ فجاءت آيات القرآن لتبيّن أنّه: لا يجوز الزواج بنساء النبيّ بعد النبيّ أبدًا[2]، فقد نزلت آيات القرآن وهدّدتهم، والآن انظر أنتَ في أيّ وضعٍ كان النبيّ؟!

لقد كان العلّامة الطباطبائي أستاذنا، وكان سماحته موجودًا يُمثّل تجسّمًا للحياء، مثله مثل معصومٍ من المعصومين، كان كُتلةً من الحياء، وكلّما أردتُ أن أضرب مثالًا بأنّه إذا أراد الإنسان أن يعرف الأئمّة، وأن يفهم كيف كان مقام الإمام، فعليه أن ينظر إليه فهو آيةٌ، وعند ذلك نعرف ما هو مقامهم. لقد كان العلّامة الطباطبائي رجلًا حَيِيّاً.

يقول القرآن المجيد عن النبيّ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[3]، وروح النبوّة أعلى من العلّامة [الطباطبائي] بمئة درجةٍ بل بألف درجةٍ، أصلًا لا يُمكن المقارنة بينهما لنعرف ما الأمر هناك! ولكن في بعض الأوقات كانوا يأتون ويُؤذون النبيّ، وكانوا يأمرونه، بينما لم يكن أمير المؤمنين وسلمان يفعلون ذلك، كان أمير المؤمنين يقول: أنا

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣)، مقطعٌ من الآية ٥٣.

(٢) سورة الأحزاب (٣٣)، الآية ٥٣: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسينَ لِحَديثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظيما**﴾.

(٣) سورة القَلم (٦٨)، الآية ٤.

عبدٌ من عبيد النبيّ، أنا خادمٌ للنبيّ، وروحي فداءٌ للنبيّ؛ لو وضعني تحت الصخرة وقطّعني قطعةً قطعةً وقال: اذهب، فسوف أقول: سمعًا وطاعةً؛ تعالَ، سمعًا وطاعةً؛ مُتْ، سمعًا وطاعةً؛ حارب، سمعًا وطاعةً؛ صالح، سمعًا وطاعةً؛ اذهب إلى اليمن وخذ الجزية وأحضرها، سمعًا وطاعةً؛ ولذا حصّل على تلك المقامات وتلك الدرجات، والآن هذا هو*نهج البلاغة* كتاب أمير المؤمنين عليه السلام.

فأين نهجُ بلاغةِ عُمَر؟! وأين نهجُ بلاغةِ أبي بكر؟! وأين نهجُ بلاغة عثمان؟! لقد كانت خلافتهم أكثر زمانًا، إذ كانت خلافة أمير المؤمنين خمس سنواتٍ، كانت خلافةً مختصرةً، وقد جُمعت هذه الخُطب في هذه المدّة، فقد جلس الإمام طيلة خمسةٍ وعشرين عامًا في منزله وكان يعمل مزارعًا، يزرع ولا يتدخّل في نظام السياسة، فأين خُطب عُمَر؟! وأين أوامره؟!

هذه الخُطب [للإمام علي] التي تُمثّل كلّ جملةٍ منها عالمًا من الحكمة والإدراك والوصول إلى تلك التُخوم والبطون من المعارف، وكأنّه جالسٌ في حرم اللَه، فيُخبر عن عالم العرش والكرسي وعن العالم الربوبي وما سوى اللَه، من أجل ماذا كلّ هذا؟ من أجل أنّه كان يقول: «**أَنَا عَبدٌ مِن عَبيدِ مُحَمَّد**»[1]، يعني: أنا عبدٌ؛ فإذا قال لي النبيّ: «يا عليّ! افعل هذا الفعل» فلا أقول بعد ذلك للنبيّ: «الآن يا رسول اللَه؟! من الجيّد لو أنّك تفوّض هذه المأموريّة إلى شخصٍ آخر؛ فأنا مُتعبٌ، أو لا أستطيع القيام بها».

- «يا علي! اذهب واملأ القربة بالماء».

ففي معركة بدر، كان الليل مظلمًا، والجوّ جوّ حربٍ، والوقت متأخّرٌ، والمكان مليءٌ بالأعداء، فأعطى النبيّ قربةً إلى سعد بن أبي وقّاص،أن اذهب إلى البئر الفلاني وأملأها وأحضرها، ولا تخف؛ فلم يستطع، ولم يذهب أيّ شخصٍ طلب منه النبيّ!

(١) ***الكافي***، ج ١، ص ٨٩.

فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام القربة[1] [وذهب لوحده، وكانت الصحراء مليئةً بالظلام، كانت صحراء مظلمةً، سوداء وباردةً، وكان جميع الأعداء قد أحاطوا بأرض بدر، فذهب إلى داخل البئر، وملأ القربة بالماء، ثمّ خرج وأخرج القربة من البئر، وحينما تحرّك باتّجاه النبيّ، هبت ريحٌ شديدةٌ جدّاً ثلاث مرّات، بحيث أنّ أمير المؤمنين جلس من شدّة الريح؛ ثمّ ذهب إلى محضر النبيّ.

- «يا عليّ! لماذا تأخّرتَ؟».
- «لقد هبّت الريح ثلاث مرّاتٍ».

فقال النبيّ: «تلك الرياح الثلاث هي جبرائيل وإسرافيل وميكائيل، وكان مع كلّ واحدٍ منهم ألف ملكٍ، نزلوا من السماء ليُباركوا لك عملك وليهنّئوك على ما فعلت، فإنّ الملائكة افتخروا بك، وباهوا بك، وهؤلاء الثلاثة آلاف مَلَك سوف يُساعدونك غدًا، وسوف يكون النصر على يديك»].[2]

* * *

(١) بما أنّ صوت سماحة العلّامة الطهراني ـ رضوان الله عليه ـ لم يكن مسموعًا هنا، لذا فإنّ تكملة هذه الفكرة من المحاضرة أُخذت من محاضرةٍ أخرى لسماحته بعنوان: «ميزان تقييم الأعمال». (م)

(٢) راجع: ***مناقب آل أبي طالب*** (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ٤٠٦؛ ***ينابيع المودّة*** (للقندوزي)، ص ١٢٢.

الجَلسَةُ الخَامِسَةُ

أرْكَانُ المُرَاقَبَةِ الخَمْسَةِ

أَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَجِيمِ
بِسْمِ اللـهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ
وَصَلّى اللـهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطَاهِرين
وَلَعْنَةُ اللـهِ عَلى أَعْدَائِهِم أَجْمَعِين

يعدّ العظماء بعض الأمور ضروريّةً للسائرين والسالكين في الطريق إلى اللهَ[1].

الركن الأوّل: الصمت والسكوت

إنّ أحد تلك الدساتير هو «**الصمت**»، والصمت يعني: السكوت.

ولدينا روايةٌ باسم «الرواية المعراجيّة» وهي تبدأ بعبارة «يا أحمد .. يا أحمد» وقد أوردها المرحوم المجلسي في المجلد السابع عشر من كتابه *بحار الأنوار* نقلاً عن

---

(١) يقول العلّامة الطهراني قدّس سرّه: «سألتُ العلّامة الطباطبائي يومًا: «في أيّة حالةٍ يكون العمل الكذائي مؤثّرًا؛ أو كيف يكون أكثر تأثيرًا؟ فأجاب: «بالمراقبة! بالمراقبة!» ثم فسّر ذلك قائلًا: هل تعرف ما معنى المراقبة؟ إنّ المراقبة تعني:

صَـمت و جوع و سـهر و عز لت و ذكرى به دوام
نـاتمـامـان جـهـان را كـنـد ايـن پـنـج تمـام

[يقول: صمتٌ وجوعٌ وسَهَرٌ وعُزلةٌ ودوام الذِّكر؛ هذه الخمسة ستجعل غير الكاملين في العالم كاملين]»

الإرشاد للديلمي[١]، ولا يعلم إلّا اللَه ما تمّ بيانه من أسرارٍ حول الصمت والسكوت في هذه الرواية وأنّه يا أحمد! .. يا أحمد! أولئك الذين وصلوا إلى درجة الصدّيقين والمقرّبين وعبروا الدرجات، بالتأكيد اختاروا السكوت طريقًا لهم.[٢]

ولدينا روايةٌ عن رسول اللَه صلّى اللَه عليه وآله وسلّم، يقول فيها: «**لَوْلا تَمريجٌ[٣] في قُلوبِكُم وتَكْثِيرٌ في كَلامِكُم لَرَأَيْتُم ما أَرَى ولَسَمِعتُم مَا أَسْمَعُ**»[٤]، أي: لولا هذا الاضطراب والتشويش والاختلاف في قلوبكم، ولولا هذا التكلّم الزائد، لكنتم مثل المرآة وبالطبع كنتم سترون ما أراه، وكنتم ستسمعون ما أسمعه.

وكذلك ورد في حديثٍ نبويٍّ آخر عن رسول اللَه صلى اللَه عليه وآله وسلّم أنّه يقول: «**لَوْلا أَنَّ الشَّياطينَ يَحُومُونَ حَولَ قُلوبِ بَني آدَمَ لَرَأَوا مَلَكوتَ السَّماواتِ والأَرضِ**»[٥].

علاقة الكلام بالقلب

ما علاقة كثرة الكلام بالقلب؟ انظروا! إنَّ لكلام الإنسان وحديثه أثرًا وجوديّاً ينشأ من نفسه ومن إرادته، فإنّ النفس ترى شيئًا ما، وتتصوّر صورةً، ويُصبح لديها أُمنِيةً، فتلاحظ صورةً ناجمةً عن المعنى أو عن الصور الذهنيّة، وعندها يُلقي الإنسان ذلك المعنى الذي أرادته نفسه على الآخرين في الخارج، وليس هناك من طريقٍ آخر لإلقاء ذلك المعنى غير اللسان، فإذن الكلام ليس منفصلًا عن القلب، بل هو أثرٌ يحكي

---

(١) بحار الأنوار، ج١٧، ص ٧ إلى ٩ من نسخة الكمباني، وج ٧٤، ص ٢٧ من طبعة دار التراث العربي؛ الإرشاد ج ١، ص ٢٠٣؛ ولمزيدٍ من الاطلاع على هذه الرواية، راجع كتاب ***معرفة اللَه***، ج ٢، ص ٥٧. (م)

(٢) إشارة إلى هذا المقطع من الرواية: «**يَا أَحْمَدُ عَلَيْكَ بِالصَّمْتِ فَإِنَّ أَعْمَرَ مَجْلِسٍ قُلُوبُ الصَّالِحِينَ وَالصَّامِتِينَ**». (م)

(٣) أصل المَرْج: الخلط؛ والمَرَج: الاختلاط، راجع: المفرادات للراغب الأصفهاني، ج ١، ص ٧٦٤. (م)

(٤) الميزان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٢٧٠.

(٥) ***بحار الأنوار***، ج ٦٠، ص ٣٣٢، مع أدنى تفاوت.

عن القلب وعن النيّة؛ فإذن الحديث تعبيرٌ عن النفس وحقيقة الإنسان، الحديث تعبيرٌ عن صاحب النفس، وإشارةٌ إلى الشقيّ والسعيد، إنَّ أفكار الإنسان ونواياه وعقائده، وإرادته هي من آثار نفس الإنسان، والكلام إنّما يحكي عنها فإنّ الوجود نازلٌ عن تلك المعاني المنطوية في النفس، يعني: عندما نُنزّل رغبة النفس أو طلبها أو إرادتها إلى الأسفل، فإنّنا ننزّلها بواسطة الكلام والبيان والإشارة؛ فإذن حديث كلّ فردٍ يُمثّله، ويُمثّل شخصيته وحركته لأنَّ كلامه يُظهره؛ هذه هي العلاقة بين الكلام والقلب.

الآن، لماذا لا ينبغي للإنسان أن يتكلّم؟! نعم، إذا كان قلبه صافيًا وطاهرًا مطهّرًا وقد سلك ووصل كالصدّيقين والمقرّبين، فإنّ كلامه عين الحقّ، سواءً قلَّ أم كثُر، وحتّى لو استمرّ من الليل حتَّى الصباح، فلن يختلف الأمر، كالخطب التي ألقاها أمير المؤمنين عليه السلام، والوصايا التي أوصى بها، فإنّها حقٌّ؛ لأنَّ هذا الكلام لا ينبع من النفس وإنّما من اللَه، بالتالي كلامه عين الحقّ، سواءً قلَّ أم كثُر.

السكوت يحتاج إلى تدريب وتمرين

وأمّا من يُريد العُبور، فينبغي عليه أن يُصحّح حديثه وأن يتحكّم به، وكي يتحكمّ بحديثه يجب عليه أن يتحكّم بقلبه أوّلًا كي لا ينتقل الحديث إلى اللسان مباشرةً؛ لوجود ارتباطٍ بين الحديث والقلب، ولذا ينبغي على الإنسان أن يختار السكوت كي يهدأ القلب ولا يضطرب، فعندما تأتي تلك المعاني إلى ذهن الإنسان عليه أن لا يذكرها بلسانه، بل عليه أن يتوقّف هناك، وأن لا يتيح لتلك المعاني ولو كانت معاني خاطئةً أن تظهر.

فمن باب المثال: إن غضب الإنسان وأراد أن يشتم، فإذا لم يحفظ لسانه فسوف يشتم، ولكن لو كان في نيته أن يشتم، إلّا أنّه منع الكلام وضبط نفسه هناك ومنعها، وعضّ على جرحه ومنع نفسه ولم يسمح لها بصدور تلك الألفاظ السيئة، فإذا تكرّر هذا المعنى وأصبح مَلَكةً للإنسان، عندها لن تطرأ له النوايا السيئة مجدّدًا، فإذا أراد الشخص أن يتحدّث بقسوةٍ مع شخصٍ، ولكنّه منع نفسه لوجه اللَه عشر مرّات، عندها لن تعود

له نيّة القسوة مجدّدًا، ولن يُفكّر في القسوة مُجدّدًا، ولن يتكرّر التفكير بذلك الفكر الخَرِب، والتحكّم بذلك هو تحت سلطة اللسان أيضًا، يعني: طريقة ضبط القلب هو حفظ اللسان، يُقال: أطبق اللسان كي لا يخرب القلب؛ فعلّة السكينة الذي تظهر على القلب تعود إلى وجوب سكوت اللسان؛ وإلّا إذا تحرّك اللسان فسيصبح القلب في حالة تَمريجٍ دائمٍ وسيبقى مضطربًا على الدوام؛ لأنّ اللسان يُمثّل القلب، وله علاقة مباشرة مع المدركات القلبيّة.

تشبيه جميل للمرحوم القاضي يُبيّن فيه تأثير الكلام على القلب

كان المرحوم الحاجّ الميرزا السيّد علي القاضي رحمة اللَه عليه ـ وهو أستاذ العلامة الطباطبائي وغيره من أساتذتنا ـ يضرب مثالًا لطيفًا وجميلًا حيث كان يقول: عندما يختار سالكُ طريقِ اللَه السكوتَ، فبواسطة هذا السكوت كأنّه ترك شوائب النفس تترسّب، ففيما مضى كانت المياه تصل عبر القنوات وكان الناس يرمون الماء الملوّث في الخزّان والأحواض، ثمّ يتركونها مدّةً من الزمن إلى أن تترسّب الجزيئات والقاذورات وعندها يصبح الماء صافيًا فيستعملونه.

ينبغي على السالك أن يكون ساكتًا وهادئًا بالتأكيد لتترسّب رواسبه، فلو كان ماء الحوض أو ماء الخزّان في حالة حركةٍ دائمةٍ فإنّه لن يترسّب أبدًا وسيبقى ملوّثًا، وبالتالي حتّى تترسّب تلك الشوائب والقاذورات الكامنة في النفس ينبغي بالتأكيد أن يكون الإنسان هادئًا، والهدوء إنّما يحصل بواسطة السكوت، فالسكوت يُسكِّن هذه المياه، فتترسّب جميع الشوائب، ثم تتحجّر بحول اللَه وقوّته.

يعني: إذا ترسّبت هذه الشوائب، ولكنّها لم تتحجّر بعد، فلو ضرب الإنسان الماء بالعصا مرّتين فسوف تتوحّل المياه مرّتين، وأمّا إذا استمرّ على تلك الحال واستقام فسوف تتحجّر تلك الشوائب، إنّ تلك الأحجار التي نراها اليوم على صورة طبقةٍ في الأنهار والبحار والجبال، كانت في السابق طينًا ووحلًا، وعندما استقرّت تحجّرت وتحوّلت إلى حجارةٍ لا يُمكن أن تتحرّك بأيّ وجهٍ من الوجوه، وعندها حينما تتحرّك

النفس تكون قد حرّكت ماءً صافيًا، ويكون ذلك الشيطان قد تحجّر هناك، ولم يعد قابلًا للحركة، لأنّ الشيطان يعني: الشوائب، الشيطان يعني: القذارة التي تحجّرت ولم تعد قابلةً للحركة.

ولذا قال النبي: «**مَا مِن آدميٍّ إلّا ومَعهُ شيطانٌ**»، قيل: يا رسول الله! ومعك شيطانٌ أيضًا؟ فقال: «**نعم، ولكِنَّ شَيطاني أَسلَمَ بِيَدي**»[1]، إذ لو لم يكن للنبيّ نفسٌ، لما أصبح صاحب مقاماتٍ، فهذا الشيطان إنّما أوجده الله العليّ الأعلى، وله نموذجٌ وظهورٌ جعله الله في جميع النفوس، وهو موجودٌ في النبيّ أيضًا، ولكنّ النبي تغلّب على هذا الشيطان وجعله مُسلّمًا لأمره، فللنبي نفسٌ ولكنّه أحسن استغلال نفسه، ولم يُسئ استغلالها، ولكن إذا ترك الإنسان العنان للشيطان وأودع نفسه له وسلَّمَه نفسه إليه، فهنا يكون قد خرّب العمل.

تجلّيات الله لا تحصل إلّا في ظل هدوء النفس

بناءً على هذا، طريق السير والسلوك هو من أجل هدوء النفس؛ لأنّ تجليات الله لا تكون إلّا في ظلّ هدوء النفس، ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[2]، إنَّ موجودات العالم تدعو الإنسان إلى نفسها، وكلّ موجودٍ يُلقي الإنسان في التمريج والتشويش والاضطراب ويجعل خواطره قلقةً ومضطربةً وحزينةً، وفي بعض الأحيان تتغلّب الخواطر على الإنسان وتجرّه نحوها، والقلب يطمئن فقط بذكر الله، فيدفن جميع ذلك في مقبرة النسيان، فلا يعود لخاطرةٍ أو فكرةٍ أو خيالٍ من وجود، ولا شيء من ذلك أبدًا؛ لأنّ القلب قد اطمئن بذكر الله، وترسّبت قاذورات النفس تلك وتحجّرت، وذلك كلّه بواسطة السكوت، ولذا فإنّ أحد الدساتير هو السكوت.

---

(١) ***مجمع الزوائد***، ج ٨، ص ٢٢٥.

(٢) سورة الرّعد (١٣)، ذيل الآية ٢٨.

مراتب السكوت

الآن، كم ينبغي للإنسان أن يسكت؟ يختلف الأمر؛ يختلف الأمر في المنازل والمراحل المختلفة، ففي البداية يقولون للسالك: ينبغي أن تلتزم السكوت عن زوائد الكلام، وليس فقط عن الغيبة والكذب وأمثال ذلك، بل ينبغي أن يبتعد الإنسان حتّى عن الكلام العادي الذي يتكلّم به الإنسان عادةً ولكن لا يكون له فائدةٌ دنيويّةٌ ولا أخرويّةٌ، إذ على الإنسان أن يضع قفلًا على فمه وأن لا يتحدّث بكلامٍ زائدٍ.

فرضًا، لو شاركَ الإنسان في مجلسٍ ما، وتحدّث لمدّة ساعةٍ وتسلّى ثمَّ وقف وتساءل: بماذا تفوّهتُ؟ ماذا كان هذا الكلام وما هي نتيجته؟ وهل كانت له نتيجة دنيويّة؟ هل كانت له نتيجةٌ أخرويّةٌ؟ هل رفع روحي إلى الأعلى؟ هل منحني صفاءً؟ هل كان فيه صلاحي؟ لا! إنّ الجلسات (القعدات)، المسامرات الليليّة، المحادثات النهاريّة والاختلاط وتمضية الوقت، مثلما لو قالوا: لقد تعبنا، لذا دعنا نذهب إلى ذاك المكان لتمضية الوقت، إنَّ هذه الأحاديث تُسبّب ظلمةً وسوادًا في القلب، وتجلب القسوة، وليس من اللازم أن تكون تلك الجُمَل محرّمةً، بل على الإنسان أن يتجنب الكلام في بعض الأمور المباحة أيضًا والذي يكون لا طائل ولا فائدة منه، وينبغي أن يكون المفتاح بيد نفس الإنسان، وعلى الإنسان أن يفكر أوّلًا بما يُريد أن يتكلّم به ثمّ يقوله، لا أنّه يتكلّم أوّلًا ثمَّ يُفكّر هل هذا الكلام الذي تفوهتُ به صحيحٌ أم خاطئٌ؟

لأمير المؤمنين عليه السّلام جملةٌ عجيبةٌ، حيث يقول: «**وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ**»[1]، أي أنّ العاقل عندما يُريد أن يتكلّم فإنّه يُدرك أوّلًا ويفهم ثمّ يتكلّم بعد ذلك. بالطبع لا يشتبه أيضًا، وهو على صوابٍ مئةً

(١) *نهج البلاغة* (عبده)، ج٢، ص٩٤: «**وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ؛ لأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ، لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ وَمَاذَا عَلَيْهِ**».

بالمئة؛ لأنَّه فكّر وكان بيانه طبقًا لتفكيره، أمّا الجاهل فيتكلّم أوّلًا ثمَّ يُفكّر: هل كان كلامي صحيحًا أم غلطًا؟

السكوت يشمل التكلّم والسماع

ينبغي للسالك أن يجعل ضبط لسانه بيده مئةً بالمئة، وعليه أن يُفكّر في كلّ كلمةٍ يُريد أن يتفوّه بها، وأن يرى هل هذا الكلام صحيحٌ من الأساس أم خاطئٌ؟ وما الفائدة المترتّبة عليه؟ وضبط اللسان هذا يشمل الكلام والمسموعات أيضًا؛ لأنّ ما يسمعه الإنسان يجلب تمريج القلب أيضًا، فلا ينبغي للإنسان أن يستمع كل شيءٍ، بل يكتفي بالأمور المفيدة له.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته لهمّام في وصف المتقيّن في *نهج البلاغة*: **«وَقفوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُم»**[1]، يعني: المتّقون هم أولئك الأشخاص الذين وقفوا أسماعهم على العلوم التي تنفعهم، فإنَّ العلوم التي في الدنيا كثيرةٌ، والأخبار كثيرةٌ، وبالتالي يجب على الإنسان أن يتخيّر ما ينفعه ويتّجه إلى تحصيله.

ومن هنا فإنَّ المجالس والمحافل والتجمّعات والخطب وكلّ ما يتمّ عرضه، جميعها لها حُكم المسموعات بالنسبة للإنسان، وينبغي للإنسان أن يُفكّر ماذا ينتخب لنفسه منها، فحتّى لو كانت أمورًا مُحقّةً وليست من الباطل، ولكن السؤال: بماذا تنفعنا؟

فلو أنّني أنا العبد الجالس هنا الآن، أتيتُ وتحمّلتُ المشقةَ حتّى الصباح، فاستطعتُ من خلال الرصد والزيج وأمثالها أن أُعيّن مقدار المسافة بين «أورانوس» و«نبتون»، فقُل لي بكلّ إنصافٍ: ما الفائدة المرجوة من هذا الأمر بالنسبة لي؟! حتّى لو كان أمرًا مُحقّاً وصحيحًا، إلّا أنّني أكون بذلك قد أتلفتُ ليلةً من عمري باتباع أمرٍ لا فائدة منه بالنسبة لي، فإنَّ مُنكر ونكير لن يأتوا عند الموت ويسألوني: يا سيّد! لماذا لا تعرف المسافة بين «أورانوس» و«نبتون»؟ بل سيسألونني: مَن ربُّك؟ كم تعرف اللَه؟

(١) ***نهج البلاغة*** (عبده)، ج ٢، ص ١٦٠.

فإذن ينبغي على الإنسان أن لا يتكلّم كثيرًا، ولا ينبغي أن يُنصِت للأمور التي لا تفيده أيضًا، بل عليه أن يتفوّه بما فيه مصلحته، وأن يستمع إلى ما فيه صلاحه.

نماذج من الكلام الذي يُعدّ زائدًا والذي لا يُعدّ زائدًا

إنّ الأُنس بالعيال والجلوس معهم والاختلاط هو أمرٌ لازم ولا يُعدّ من الكلام الزائد، إلّا إذا كان يُضرّ بالتحكّم باللسان، فمثلًا: إذا أردتم أن تجلسوا مع أهل بيتكم وأن تتحدّثوا معهم، فهنا لا تضبط لسانك بل قم بالحديث بكلّ ما ترغب به، ولكن بالطبع لذلك حدودٌ أيضًا، أو إذا كنتُم تريدون أن تأنسوا بأبنائكم، أو تريدون أن تذهبوا إلى البقّالة لشراء شيءٍ ما، فحتماً ينبغي أن تتكلّموا، ولكن إذا أراد البقّال إتلاف وقتكم كأن يقول مثلا: «يا سيد! الهواء باردٌ اليوم.. الهواء حارٌّ اليوم.. لم تُمطر، لماذا بيتك بلا أضواء؟» فعلى الإنسان أن يسكت ويرحل.

إذا ذهب الإنسان إلى المسجد وجلس فأتى شخصٌ وجلس إلى جواره [وقال:] «السلام عليكم»؛ [يُجيبه:] «وعليكم السلام». هذا المقدار كافٍ، فلِمَاذا يختلط الإنسان به، ففي نهاية المطاف ليس لهؤلاء الأفراد نفسٌ ملكوتيّةٌ، بل هم من عالم الطبيعة وتملأ أذهانهم الأفكار الدنيويّة، فما إن يجلسوا إلى جوارك حتّى يشرعون بالكلام: «يا سيّد! ارتفعت الأسعار اليوم! يا سيّد! لماذا حصل كذا؟ يا سيّد! لما يحدث كذا؟»؛ لأنّ أذهانهم مشوّشةٌ ومضطربةٌ، وذلك التشويش والاضطراب يُلقى به إلى ذهن المستمع من خلال اللسان؛ ونفس هذا التشويش الذي حصل له، ينتقل للمستمع أيضًا، السّلام عليكم، عليكم السّلام؛ كيف حالك؟ الحمد للَه، وكفى، لا تتجاوز أكثر من ذلك، وبالخصوص مع قُساة القلوب وذوي النفوس الثقيلة والعياذ باللَه، فإنّ هؤلاء يُتعِبون السالك ويُؤذونه جدّاً، في بعض الأحيان يرى الإنسان أنّه حينما تحدّث مع شخصٍ ما لمدّة خمس دقائق، فكأنّ جبلًا قد وقع على رأسه، وفي المقابل البعض الآخر ليسوا كذلك، نفوسهم طاهرةٌ ولطيفةٌ وجيّدةٌ، ولو تحدّثتَ معهم لمدّة ساعةٍ فإنّك لا تشعر بالتعب.

إذن، بصورةٍ مجملةٍ وكليّةٍ، الصمت يعني: السكوت. وفي المرحلة الفعليّة فلتتكلّم بمقدار ما يلزم من قراءة القرآن، والزيارة، والدعاء، والصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأُنس بالعائلة، وفي نطاق العمل الجراحي[1]، ولا تتكلّم بأكثر من ذلك.

- المستمع: في كلّ الأمور؟ فهل الأمر كذلك بالنسبة للمناجاة والدعاء؟
- العلّامة: لا! لا! الطريق مفتوح بالنسبة للدعاء؛ إنّ الأمر يتعلّق بنطاق العمل، العمل خارج المنزل.

فمثلًا: أنت تعمل الآن في مستشفى، فلتتكلم بذلك المقدار النافع لك، فتقول مثلًا: يا سيّد فلان، فلتذهب ولتحضر هذا الملف! فلا تكرّر ولا تصرّ ولا تلحّ، هل التفت؟ جملةٌ واحدةٌ فقط، اذهب وأحضر الملف! ولا تناقش الناس كثيرًا، ولا تُطلعهم على أسرارك، ولا تُبدي لهم أحوالك، فلتُبقِها بداخلك، ولا تبدِ إلّا المقدار اللازم، وكفى! ليكن هناك قفلٌ على الفم، ولا تتجاوز ولا تفسح المجال لبيان ذلك المقدار الذي يبديه اللسان عن قلبك ونيتك، والقيام بهذا العمل ـ وهو ضبطُ اللسان ـ مهمّةٌ شاقّةٌ.

لقد وَرَدَ عن أحوال بعض السالكين القدماء أنّهم كانوا يضعون حصاةً في أفواههم، وكلّما أرادوا بيان أمرٍ عن غفلةٍ، فإنّهم لا يبيّنوه، فربّما أرادوا أن يُبينوه ولكن هناك حصاة في فمهم فيلتفتون: هل ما يريدون قولَهُ صحيحٌ أم لا؟ فإذا كان جيّدًا، يُخرجون الحصاةَ ويتكلّمون ثمّ يعيدونها إلى مكانها؛ إلى هذا القدر! إنّها مهمّةٌ صعبةٌ؛ لأنّ الإنسان قد اعتاد الكلام دائمًا، ولا بدّ أن يضبط نفسه وأن يقوم بالمجاهدة كي يَعبُر عن مسألة الصمت.

(١) مراد سماحته: أنّه لا بأس من التكلّم الضروري في مجال عمل الإنسان، كلّ بحسبه، وهنا أعطى لجناب الدكتور مثالًا من واقع عمله كونه طبيبًا جرّاحًا. (م)

الركن الثاني: المحافظة على الصّحة وسلامة المزاج

والمسألة الأخرى هي: **حفظ الصحّة والغذاء**، فينبغي على الإنسان أن يتناول الأطعمة التي تُفيده، ولا ينبغي أن يتناول الأطعمة التي لا تنفعه ولا فائدة منها، وعادةً لا يُفكّر الناس بخصائص الأغذية وفوائدها عند تناولها، فمن باب المثال: يتناولون المُكسّرات والبذورات وأمثالها، ولكن هل رأيتم أحدًا يتناولها لخصائصها؟

- المستمع: يأكلونها للاستمتاع بطعمها.
- العلّامة: نعم، ينبغي ترك هذا الفعل جانبًا!

ينبغي على الإنسان تناول الأطعمة المفيدة لبدنه بحيث لا يَضعف، كما ينبغي أن يتناول الطعام الذي يحلّ مكان الطعام الذي يتحلّل من بدنه؛ لأنّه إذا عجز البدن، فإنّ الروح لا تستطيع أن تُؤدّي وظائفها. كان المرحوم السيد جمال الدّين الكلبايكاني ـ رحمة اللَه عليه ـ الذي ورد اسمه أكثر من مرّةٍ في كتاب *معرفة المعاد*، كان يُصرّ علينا جدّاً بأن نُحافظ على المزاج! نحافظ على المزاج! وكان يقول: إذا لم تحفظ مزاجك وأسرعت في المشي، وقمتَ برياضاتٍ غير صحيحةٍ، فإنّ بدنكم سيُصبح عليلًا، وعندما يكون البدن عليلًا، سوف تبقى خادمًا للبدن إلى آخر العمر، والبدن مَركبٌ لك، وينبغي عليه إيصالك إلى الهدف، فإن لم يتمكن من إيصالك إلى المقصد أصبح عليلًا وعندها ينبغي أن تأتي النفس وتخدم هذا الحيوان [يعني: بدلًا من أن يخدم البدن الحيواني النفس، تُصبح النفس هي التي تخدم البدن]! وإذا توقّف البدن عن العمل، لم يعد بإمكان الإنسان فعل شيءٍ، وهنا ينبغي أن تأتي النفس الشريفة وتصبح خادمةً للمركب.

إنّ المزاج مهمٌّ جدّاً، فلا ينبغي أن يُتخم بالطعام إلى الحدّ الذي يصبح فكره مشوشًا ولا يتمكّن من العمل أو مزاولة النشاط؛ ولا أن يُقلّل من تناوله للغذاء بحيث لا يمتلك القوّة على العمل، ولا يصل إلى بدنه بدل ما يَتَحَلَّل منه.

ينبغي تنظيم أوقات وجبات الطعام، فلا يأكل قبل أن يشعر بالجوع، وعندما يتناول الطعام يتوقّف قبل أن يشبع، فيختار ما هو مفيدٌ لبدنه، يختار ما هو مُفيد للبدن أيّاً كان فليكن، حتّى لو كان الكباب مثلًا، فهو يصبّ في مصلحة نفسه ولا يوجد في هذه المسألة عنوان الزهد وأمثال ذلك، فتناول الطعام هنا له عنوان السلوك.

الزهد يعني الحركة التقرُّبيّة نحو اللَه، فإذا قيل لمن يُريد الحركة نحو اللَه في مقدّمات حركته: يجب عليك تقوية مزاجك! فينبغي عليه التنفيذ؛ لأنّه إذا لم يفعل سيراوح مكانه، وإذا نفّذ تحرّك، فإذن تناول الكباب لا يُخالف الزهد، بل هو عين الزهد، وإذا لم يأكل، وضغط على نفسه، أو لم يراعِ مزاجه أصلًا فقد تخلّف عن القافلة وفات الأوان.

ينبغي على الإنسان أن يُفكّر في خصائص الغذاء الذي يتناوله، وينبغي عليه أن يعمل بالدساتير المعطاة له؛ فعليه أن يغسل يديه قبل تناول الطعام وبعده، وعليه أن يبدأ طعامه ويختمه بالملح، وعليه أن يقول: «بسم اللَه» في بداية الطعام، وأن يقول: «الحمد للَه» بعد الانتهاء من الطعام، وأن يمضغ الطعام جيّدًا، وأن يأكل عن اشتهاء، ويختار الأغذية المفيدة لبدنه، يعني: من وجهة نظر السلوك لا ينبغي أن يكون لديه نقصٌ في المزاج، فإذا أصبح المزاج عليلًا فلن يتمكّن الإنسان من السير.

إنّ هذه المسألة مسألةٌ مهمّةٌ جدّاً.

الركن الثالث: اعتزال أبناء الدنيا ومعاشرة الأولياء الإلهيّين

أحد الأمور الضروريّة الأخرى: **الابتعاد عن محيط القلق والتشويش والاضطراب**؛ لأنّ الإنسان حينما يكون في هذه المعارك من التشويش والاضطراب، فسوف تُؤثّر عليه العلاقات المسمومة، والتعامل المسموم، والكلام المسموم، سوف تُؤثّر على روح الإنسان وتدمرها.

قاعدة سلوكيّة مهمّة: النفوس كالأوعية المتّصلة

إنّ النفوس كالأوعية المتّصلة، إنّ أحد القواعد الفيزيائيّة، قاعدة الأوعية المتّصلة، وقاعدة الأوعية المتّصلة هي التالي: إذا أضيف سائلٌ لأحد الأوعية فسوف يتساوى مستوى السائل في الجميع، **والقلوب بهذا النحو أيضًا، فعندما يحصل ارتباطٌ بين قلبين كما يحصل بين الأوعية المتّصلة، فإنّ المعاني التي تقع في أحدهما تذهب إلى الآخر**، فإذا كان الوعاء الأعلى ملكوتيّاً فسيجعل الوعاء السفلي ملكوتيّاً أيضًا وبنفس المستوى، ولكن إذا كان الوعاء الأعلى ملوّثًا، كأن يحتوي على خلّ العنب، أو خلّ الخُصرم، أو سائل متعفّن، فسوف يتلوّن الوعاء السفلي بلونه أيضًا، ولذلك يجب على الإنسان أن لا يجالس الأفرادَ الخبيثين، أو عبّاد الدنيا، ومَن كان همّه وغمّه الدنيا؛ لأنّهم يجذبون قلب الإنسان ويجلبونه إليهم.

«**مَن أَصبَحَ وأكبر هَمِّهِ الدنيا فليس مِنَ اللهِ في شيَء**»[1]، فالبشر حتّى لو كانوا جيّدين وكانوا مُصلّين ويُؤدّون جميع التكاليف، إلّا أنّهم على فئتين: فئةٌ تُؤدّي الصلاة وتصوم أيضًا لكنّ مقصدهم الأساسي هو الدنيا، أي: إنّهم لا يبيعون الدنيا بالله، فإذا أتى أمر الله وأتت في مقابله مصلحةٌ ماديّةٌ، فإنّهم يُقدّمون المصلحة الماديّة، وفي معاشرة هؤلاء ضررٌ على الإنسان، يعني: مثل تلك الأوعية المتّصلة، يجذبون قلب الإنسان إلى سطحهم، والإنسان إذا ارتبط بأيّ واحدٍ من هؤلاء فإنّهم يجذبونه إلى بؤرتهم الوجوديّة ويدعونه إلى أفكارهم، فكلّ مَن يدعو الإنسان، أو يسلّم عليه أو يجيب على سلامه أو يستأنس به، فإنّ نفسه تجذب ذلك الإنسان نحوها، سواءً كانت هذه النفس جيّدةً أم سيّئةً، قبيحةً أم حسنةً.

يجب على السالك أن يبقى مُتيقّظًا كي لا يكون طُعْمةً للذئب، بل يفتح أمامه باب حديقة الرحمة، يجب عليه أن يذهب دومًا إلى النفوس الملكوتيّة والروحانيّة، فيتعامل

(١) ***مجموعة ورام***، ج ١، ص ١٣٠، مع أدنى تفاوت.

مع أمير المؤمنين عليه السّلام ومع ميثم ومع تلك الأرواح الطيّبة الطاهرة، ولا يذهب إلى الطرق المنحرفة، والتحكّم بهذا الأمر بيد الإنسان نفسه.

إنّ ما ذكره هذا العبد[1] من أنّه ينبغي على المرء أن يصبح فاقدًا للوعي، صحيحٌ، وفقدان الوعي أمرٌ لا إراديٌّ، ولا يحصل باختيار الإنسان، فإنّ الإنسان لا يُفقد نفسه الوعي، ولكنّه يقوم بمقدمات ذلك، فما معنى المقدّمات؟ معناها أنّهم يقولون: أيّها السيّد العزيز اذهب إلى غرفة التخدير ونَمْ هناك، فيقول الإنسان: حاضر! يقولون له: في الليل لا تتعشّى، فيقول الإنسان: حاضر. ولا يمانع عندما يأخذون ضغط دمه صباحًا؛ فيذهب ويرقد على السرير ثمّ يضعون الخرطوم في أنفه ويقولون له: خُذ نفسًا عميقًا، فيقول: حاضر. وحين تكون في حالة فقدان الوعي يفعلون ما ينبغي القيام به، طبعًا اللَه أعلم بما يقومون وهو في حال فقدان الوعي وحال السُكر، ولكنّ هذه المقدّمات باختيار الإنسان. يقولون للإنسان: نم على السرير، فينام، أو يضعون الأنبوب ويأمرونه بأخذ نفسٍ عميقٍ فيفعل متبسمًا لا باكيًا؛ لأنّها جميعًا لطفٌ ورحمةٌ وسرورٌ، فهي دعوة الحبيب، ودعوة المحبوب وينبغي على الإنسان أن يلبيّها، وعندها يُصبح بحالٍ جيّدةٍ جدّاً جدّاً.

أهل الدنيا يجذبون الإنسان باتّجاه الدنيا

على كلّ تقديرٍ، إجمالُ المسألة هو أنّه ينبغي على الإنسان أن يتجنّب الأفراد من أهل الدنيا الذين تكون الدنيا غايتهم، أيّاً كان ذلك، فذلك الشخص الذي مقصده الأساسي هو الدنيا يسحب الإنسان إلى الدنيا مهما كان لباسه، ومهما كانت هيئته، ومهما كانت شاكلته، وكلّ ما سوى اللَه فهو دنيا، وعلى الإنسان أن يكون كمَن يتألّم ويبحث عن العلاج، فعليه أن يُفكّر كيف لا يُصبح طُعْمةً لهذا الشخص؛ لأنّ نفس معاشرته مع

(١) يعني نفسه. (م)

هكذا شخص تجعل منه طُعْمةً، فيجب أن ينأى بنفسه، خصوصًا إذا كان ذلك الشخص صاحب نفسٍ قويّةٍ؛ لأنّ النفوس مختلفةٌ، فالبعض ذوو نفسٍ قويّةٍ، ويجذبون الفرد الآخر بسرعةٍ كالمغناطيس، وخصوصًا الأفراد اللطيفين فإنّهم سريعًا ما يتمّ صيدهم بسبب لطافتهم، وعندها إذا كان ذلك الشخص ذا نفسٍ قويّةٍ فإنّه يجذبه ويجلبه من حيث لا يشعر، يعني: لا شعوريًا، يجب على الإنسان أن يكون فطِنًا في هذه المواطن بحول الله وقوّته.

كيف يختار الإنسان الرفيق والمعاشر

وإذا أراد الإنسان أن يُعاشر أيّ فردٍ وأن يتردّد عليه وأن يذهب أو يتكلّم معه وأن يُرافقه، أو أن يختار رفيقًا له، أو أن يُكنّ لشخصٍ محبّةً، فعليه أن يُفكّر: هل لهذا الشخص دورٌ في كمالي وحالاتي المعنويّة أم لا؟ هل يُقرّبني من الله؟ هل يُقرّبني من الحقيقة؟ هل يُدنيني من الشريعة؟ هل يُقرّبني من الحقيقة أم لا؟ هل سيجذبونه هؤلاء من يده ويُقرّبونه من الأباطيل والوهم وعالم الخيال أم لا؟ وعالم الخيال أصبح واضحًا:

سودائيانِ عالم پندار را بگو سرمايه كم كنند كه سود و زيان يكيست[1]

[يقول: قُلْ لِمن صار مزاجه سوداويًّا بسبب تردّده على عالم الخيال، قلّل من رأس مالك هناك لأنّ الربح والضرر هناك سيّان].

معنى العزلة في السلوك إلى الله

إنّ السالك إذا انقطع عن السيئين والأشرار، والأفراد من غير أهل الله، فإنّه يكون دخل في العزلة، ومعنى العزلة: الابتعاد عن النفوس الشريرة والخبيثة، ولا تعني العزلة أن يعيش الإنسان على الجبل أو في الغار، أو أن يُغلق باب منزله، فالعزلة هي عزلة

---

(١) ***توحيد علمى وعينى*** (فارسي)، ص ٣٠٧، الهامش ٢: «هذا الغزل في ***ديوان حافظ الشيرازي***، القطع البغلي، الذي بخطّ جواد شريفي والذي طُبع باستثمار من الشركة التضامنيّة لمحمّد حسن العلمي وشركاؤه، في ص ٥٣. وهو غير موجودٍ في العديد من النُسخ الأخرى من *ديوان حافظ*».

النفس، وابتعاد النفس عن الجراثيم والهواء المُلوّث بالأمراض، وعن مجال الأفكار المُلوّثة التي تُصيب كلَّ من تعرّض لذلك الفضاء المُلوّث بالعدوى شاءَ أم أبى، أي: إنّ الإنسان يقي نفسه وينأى بها، وبعد ذلك يُؤدّي أعماله.

الارتباط بالصلحاء والأولياء الإلهيّين أمرٌ مهمٌ للسالك

وفي المقابل الارتباط مع الصلحاء، ومع أولياء اللَه، ومع مَن كان ألمه هو اللَه، وفكره هو اللَه، ويذكر اللَه عن إخلاصٍ، هو ارتباطٌ جيّدٌ وضروريٌّ، أي: إنّه يُقوّي الإنسان ويمنحه الطاقة، فالسالك يحتاج إلى رفيقٍ، ولا يستطيع السلوك بمفرده، فهو يحتاج إلى صاحبٍ في أوقات التعب حتمًا، يتلاقيان ويقرآن القرآن، أو يشرحان الأشعار سويّاً، أو يُفسران نهج البلاغة، أو يتناولان المعارف الإلهيّة، أو يتحدّثان عن أحوال العرفاء والعظماء وأهل اليقين والصِدِّيقين، فيشرح هذا لذاك، وهذا ممّا يجلب النشاط.

ولكن إذا لم يكن للسالك رفيقٌ، فسوف يتعب، كالإنسان إذا أراد أن يعبر صحراء من الصحاري، فصحيحٌ أنّ عبور الصحراء أمرٌ ممكنٌ؛ ولكن لو كان لدى الإنسان رفيقٌ أنيسٌ، فسوف يتمّ عبور تلك الصحراء الطويلة بكلّ يُسرٍ، وسوف يعبرها بسرورٍ. ولكن إذا عبرها وحيدًا، فسيتعب ويشعر بالكسل، نعم سيتمّ عبورها ولكن بمشقةٍ.

ولذلك، أحد الدساتير هي أنّه على الإنسان أن يتجنّب الأفراد الذين لا ينفعونه، ويُلوّثون روحه، الذين يُوجب الحديث معهم اضطراب الإنسان، ويُسبّبون له الانزعاج ويُشْكِلون عليه وينتقدونه، فتجدهم يقولون: يا سيد لماذا لم تفعل هذا الفعل؟ لماذا فعلتَ ذلك الفعل؟ ليتك فعلتَ كذا، لكنتَ أصبحت صمصام الدولة مثلًا! إنّك طبيبٌ يا سيّدي، وعليك أن تقدّم رسالةً في الدنيا! على الإنسان أن يبتعد عن هؤلاء، وعليه أن يتلو الفاتحة على هذا الكلام؛ لأنّهم أفرادٌ يميلون نحو الخيال فقط، وقد نزلوا عن عالم الوحدة والنور الإلهي وعلقوا في هذا المكان.

حينما يرى الإنسان في قلبه أنّه يطوي طريق الله وأنّه يعمل لله، عليه أن لا ينصت إلى هؤلاء، وعدم الإنصات إليهم معناه أن لا يتحدّث معهم، بحيث يتمكّنوا من إلقاء هذه الأمور، وعليه أن يختار السكوت كي لا يتمكّنوا من ترك أثرٍ في الإنسان.

إذن فالدستور الأوّل كان **السكوت**، والدستور الثاني **المراقبة في الغذاء** وفي الأطعمة المفيدة للإنسان، وهذا هو الدستور الثالث: **العزلة**، أي أن يرفع احتياجاته، وأن يُفكّر بنفسه، وأن يخرج من التشويش والاضطراب ومن المشاهد المليئة بالحركة التي تعود وتضرب ذلك الماء الذي كان يُريد أن يترسّب فيه الوحل والشوائب فتجعله مشوّشًا ومضطربًا، عليه أن لا يرى تلك المشاهد، وأن لا ينصت إلى تلك الكلمات، بل إنّ مطالعة أيّ كتاب يُوجد التشويش للإنسان فهو مضّرٌ أيضًا؛ «**وَوَقّفوا أَسماعَهُم عَلى العِلمِ النّافِعِ لَهُم**»[1].

افرض لو أنَّ هذا العبد قرأ كتابًا طوال المساء إلى الصباح، وكان يتضمّن العديد من العلوم أيضًا، وكانت هذه العلوم علومًا حقّةً أيضًا، غير أنّها تُسبّب اضطراب البال وتشويش الذهن، لا الهدوء، فهذا ليس بجيّدٍ، فليطالع السالك أيُّ كتابٍ يمنحه روحًا وطمأنينةً ويبثّ الحياة فيه.

الركن الرابع: الاستيقاظ عند السحر

الدستور الآخر من بين هذه الدساتير هو **الاستيقاظ عند السحر**، فيجب على الإنسان أن يستيقظ قبل أذان الصبح بعدّة دقائق بحيث لا يكون نائمًا عند أذان الصبح وبين الطلوعين، يعني: النوم مكروهٌ بين أذان الصبح وطلوع الشمس؛ فعليه أن يقرأ القرآن ويقرأ الأذكار ـ وسوف أذكر ما الذي ينبغي عليه أن يفعله ـ إلّا إذا كان للإنسان عذرٌ أو لم يكن حاله مساعدًا، أو كان متعبًا، أو مريضًا، أو كان لديه انحطاطٌ في جسمه، أو مثلًا حصل له أرقٌ في الليل، أو بنحوٍ كلّي [كان لديه مانعٌ]...، فإذن الاستيقاظ آخر الليل وبين الطلوعين هو من الأمور المهمّة.

(١) ***نهج البلاغة*** (عبده)، ج ٢، ص ١٦١.

الركن الخامس: المداومة على ذكر الله

من الأمور المهمّة الأخرى هو أن **يكون فكر الإنسان متجهًا نحو اللَه دائمًا**، فينبغي أن تكون ضالته هي اللَه؛ يفعل هذا الفعل ويفعل ذلك الفعل، ولكن ما هو مقصده؟ اللَه، يبحث عن اللَه.

فآلة التسجيل التي وُضعت هنا، إنّما وُضعت لوجه اللَه، فحتّى لو كان هذا العمل هو عمل هذا الفرد، ولكنّ الهدف هو اللَه، وأنتَ تجد اللَه من خلاله، وعندما تذهب لعملك من أجل المريض فاللَه موجودٌ هناك؛ لأنّك تبحث عن اللَه، غاية الأمر أن اللَه دخل إليك عن طريق المريض وجعله وسيلةً وطريقًا للوصول إليه، فأنتَ لا تتعامل مع المريض بل مع اللَه، فعندما تتحدّث إلى معاونك فأنتَ تتعامل مع اللَه! وعندما تتحدّث مع المحاسب فأنتَ تتعامل مع اللَه! وعندما تتعامل مع من يعمل تحت يدك في العمل فأنتَ تتعامل مع اللَه! هؤلاء صورٌ مختلفةٌ وشبكاتٌ مختلفةٌ وجميعهم يمتلكون ارتباطًا باللَه، إلّا أنّ اللَه الموجود فيهم هو ضالتك، والهدف من التعامل معهم جميعًا هو إيجاد اللَه.

ولذلك نرى أنّ الفرد الذي يحترق قلبه شوقًا ليعثر على اللَه، يتعامل معهم جميعًا، ولكنّ تلك الحرقة تبقى في قلبه، فلا يشبعونه، مثلًا: ذلك الفعل الذي قام به لَهُ حرقته الخاصّة أيضًا، فهو يرغب مجددًا أن يعلم ما هو التجلّي التالي؟ يُريد أن يخطو خطوةً أخرى، هذه هي الخطوة الأولى، ويجب أن يخطو الخطوة الثانية والثالثة والرابعة؛ هذه الصلاة هي الخطوة الأولى، الثانية هي الصوم، الثالثة هي الأنس بالعائلة، الرابعة هي رفع الحاجات الجسديّة، فجميعها خطوات للوصول إلى الهدف، ولكن اللَه متواجدٌ فيها جميعاً، «**اللَه فَوقَ كُلُّ شيَء**» وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في جميع هذه الخصوصيّات.

معنى ديمومة الذكر وأهميّة ذلك

الدستور الآخر هو: **الذكر الدائم**، والذكر الدائم يعني: أن يكون ذكر السالك هو اللَه دومًا، وطالما لم نصل إلى اللَه، ولم يحصل لنا مقام القرب ولم نحصل على منزلةٍ فينبغي أن تبقى غصّة ذلك في قلبنا؛ ينبغي أن تبقى هذه الغصّة موجودةً حتّى يُفتح للسالك الباب، فإذا لم تكن هذه الغصّة موجودةً، فحسنًا، سوف يكون شخصًا عاديّاً.

هذا هو ما يحرّك الإنسان تجاه اللَه، هذه هي القوّة المحرّكة، هذه هي الطاقة، فالطاقة المحرّكة للسالك ولكلّ مؤمنٍ باتّجاه اللَه هي تلك الحرقة التي تنبع من اللَه وتشعّ في القلب، ينظر الإنسان فيرى أنّه قاصرٌ عن كلّ شيءٍ وليس هناك في العالم بأسره مَن يستطيع أن يمدّ يد العون إليه سوى اللَه، ولا يستجيبُ أحدٌ إلى ندائه سوى اللَه، وفي ذلك الوقت يطلب اللَه، واللَه عزّ وجلّ لا يقول دفعةً واحدةً: بسم اللَه! تفضل! بل حسنًا، عليك العبور عن النفس، ينبغي أن تتحرّك، وينبغي أن تتقدّم خطوةً خطوةً، إنّ اللَه يستطيع أن يساعده دفعةً واحدةً ولكنّه لا يفعل؛ لأنّ اللَه يُريد أن يُكمّله.

ولو أنّ ذلك النور الأزليّ أتى دفعةً واحدةً، لأحرقه وأزاله، إلّا أنّ اللَه رحيمٌ، يُقدّمه صفًا صفًا، ودرجةً درجةً، ومرحلةً مرحلةً إلى أن يصل؛ فلا يحصل لدى الإنسان مرضٌ في المعدة، ولا يصبح مجنونًا، ولا يهيم في الصحراء، ولا يترك المنزل ويعيش خارجه، بل يتحرّك مع جميع هذه الأمور ويذهب إلى حرم اللَه.

وهذا دستورٌ كاملٌ جاءنا به القرآن والرسول؛ بحيث يعيش الإنسان في شؤون الكثرة إلّا أنّه يطوي المراحل بشكلٍ جيّدٍ في طريق اللَه بواسطة هذه القوّة المحرّكة الموجودة في القلب؛ وإلّا لو أنّنا طلبنا من اللَه أن امنحنا نور جلالتك الآن، وأوصلنا إلى المقصد الآن! ألا يستطيع اللَه؟!

قصّة الحطّاب الذي طلب المحبّة الخالصة من الله

ينقل المرحوم الأنصاري ـ رحمة اللَه عليه ـ هذه القصّة، حيث قال:

ذهب النبيّ موسى مرّةً من المرّات إلى جبل الطور من أجل المناجاة، فأتى إليه حطّابٌ وقال: يا نبيّ اللَه، حينما تذهب إلى مناجاة اللَه، اطلب من اللَه أن يرزقني محبّته، تلك المحبّة الخالصة؛ توسّل إليه، وبكى، وقال: سأصبح عاشقًا له، أريد الآن أن يُلقي في قلبي محبّته الخالصة تلك؛ رحل النبيّ موسى وقَبِل طلَبهُ؛ فقال اللَه تعالى: منحناه ذلك رغم أنّه ليس في مصلحته.

وبعد أن عاد موسى، رأى أنّ جسده قد قُطِّع قطعةً قطعةً واستقرّت كلّ قطعةٍ على أحد أشواك البراري.[1]

ماذا يعني ذلك؟ يعني: أنّه مُنح المحبّة، محبّة اللَه ليست مثل مصباح ذي شمعتين أو أربع شمعاتٍ بل كمصباحٍ ذي ستّة آلاف فولت دفعةً واحدةً، ثم يأتي شخصٌ ليس لديه القدرة على تحمّل ستّة آلاف فولت فيقول: ينبغي أن تُدخلني الآن، ويبكي، ويُمسك بتلابيب النبيّ موسى: «يا نبيَّ اللَه! أريد كلَّ شيء»، ليس اللَه بعاجزٍ، إنّ اللَه رحيم ـ لو أراد اللَه أن يستجيب فلن يبقى شيءٌ، سنقول له: تعالَ وانزل إلى هنا! ودعنا نحن نذهب ونجلس في الأعلى! ـ إنّ اللَه رحيمٌ، فإنّه يمنح الستّة آلاف فولت تلك، ويُوصل الإنسان إلى مقام رسول اللَه، ويجعل أمير المؤمنين أميرَ المؤمنين، ولكن بالتدريج، خطوةً خطوةً، عن بصيرةٍ ومعرفةٍ وليس بجنونٍ وبلا مبالاةٍ، وليس باضطرابٍ ولا تشويشٍ وليس مع السرعة والاستعجال؛ فينبغي على الإنسان اجتياز

---

(١) يروي أبو حامد الغزالي قصّةً شبيهةً لهذه القصّة في كتاب ***مكاشفة القلوب*** وذلك كما يلي:
«مرّ عيسى عليه السّلام بشابٍّ يسقي بستانًا، فقال الشابُّ لعيسى: سَل ربّك أن يرزقني من محبّته مثقال ذرّةٍ.
فقال عيسى: لا تُطيق مقدارَ ذرّة. فقال: نصف ذرّةٍ.
فقال عيسى عليه السّلام: يا ربّ ارزقه نصف ذرّةٍ من محبّتك.
فمضى عيسى عليه السّلام فلمّا كان بعد مدّةٍ طويلةٍ مرّ بمحلّ ذلك الشابّ فسأل عنه، فقالوا: جُنّ وذهب إلى الجبال. فدعا عيسى ربّه أن يُريه إياه. فرآه بين الجبال فوجده قائمًا على صخرةٍ شاخصًا طرفهُ إلى السماء، فسلّم عليه عيسى عليه السّلام، فلم يَرُدَّ عليه. فقال: أنا عيسى.
فأوحى اللَه تعالى إلى عيسى: **"كيف يسمع كلام الآدميّين من كان في قلبه مقدارُ نصفُ ذرّةٍ من محبّتي؟ فوعزّتي وجلالي لو قَطَّعته بالمنشار لَما علم بذلك"**». (م)

هذا الأمر، كما ينبغي عليه أن يجتاز ذلك الأمر، وذاك الأمر الآخر أيضًا، ولكلّ واحدٍ من هذه حساباتٌ خاصّةٌ به.

ينبغي أن يرتقي الإنسان في السير والسلوك بالتدريج

إذا أراد هذا العبد الفقير أن يذهب من هنا إلى باب المنزل، فكم مترًا من هنا إلى باب المنزل؟ افرضوا أنّها مئة مترٍ، فإذا لم أطوِ المتر الأوّل فهل يمكن أن أطوي المتر الثاني؟! ينبغي طيّ المتر الأوّل، ثمّ المتر الثاني، وعندما أخطو الخطوة الأولى فستبقى آثار الخطوة الأولى خلفي وستبقى تلك الخصوصيّات التي للخطوة الأولى، لقد تمّ طيّ تلك العمارة التي كنتُ فيها في الخطوة الأولى، فعندما خطوتُ الخطوة الأولى وبدأتُ بخطو الخطوة الثانية ذهب كلّ ما هو خلف ظهري، وعندما أترك الخطوة الثانية وأخطو باتجاه الخطوة الثالثة، فالأمر كذلك، وإذا لم أترك الخطوة الثانية فالخطوة الثالثة غير ممكنة التحقّق.

وهذه الخطوات تُسمّى مُعِدّات، فإذا لم يخطُ ثالث خطوةٍ، فلا يمكنه تجاوز الخطوة الرابعة، ولا يمكن طي مئة متر بخطوةٍ واحدةٍ، أيّ: لا يُمكن للإنسان أن يطوي مئة قدمٍ بخطوةٍ واحدةٍ، بل ينبغي عليه أن يتقدّم مترًا، وبعد ذلك تبقى آثار ذلك المتر في ذاكرته، ولكنّه لا يراه بعد الآن؛ لأنّه متّجهٌ إلى الأمام، وفي المتر الثاني يرى مشاهداتٍ، ثمّ يخطو المتر الثالث وكلّ ما رآه في المتر الثاني يُصبح خلفه، ويرى مشاهداتٍ في المتر الثالث، ثمّ يذهب إلى المتر الرابع، ويسير هكذا إلى أن يصل إلى باب الحرم، إنّك تذهب إلى حرم السيّدة زينب سلام اللَه عليها وتقف في قبال الحرم، ثمّ تدخل الحرم، في حين أنّك تستطيع من البداية أن تشعر من الأوّل بجميع هذه المسافة من هنا إلى هناك بخطوةٍ واحدةٍ، وينطبق الأمر نفسه على المعنويّات. وعلى الرغم من أنَّ اللَه قادرٌ على أن يُكمّل جميع البشر في لحظةٍ، بحيث ينامون هذه الليلة ويستيقظون صباحًا مثل سلمان الفارسي. أليس اللَه بقادر؟! ولكن ما الفائدة في ذلك؟!

أهميّة الذكر في السير والسلوك

عندما خلق اللَه هذا الكون، وخلق الشيطان ومنحنا نفسًا؛ كي نتحرّك باتجاهه مع العشق والشوق، ولو لم يكن هناك تكليفٌ لَمَا كان هناك شيطانٌ، ولَمَا كانت النفس، ولا كانت المجاهدة، ولبقينا في ذلك العالم السابق على هذا العالم، ولكُنّا في جنّة الخلد تلك، وهي تعني: عالم الاستعداد والقابلية التي لم تصل إلى الفعليّة، ومنح الإنسان هذه الحرقة وهذه الحركة وهذا الاختيار، وجعل الإنسان في حالة سعيٍ وحركةٍ باتجاه اللَه، هو نتيجة جميع العوالم.

لذلك لا يوجد شيءٌ أفضل للإنسان من هذه القوّة المحرّكة وهي ذكر اللَه التي تحرّكه باتّجاه اللَه. ينبغي على السالك أن يذكر اللَه على الدوام، فذكر اللَه هو المصباح الذي يُضيء في القلب، وعندما يكون هذه المصباح مضاءً فلا خوف ولا ضرر؛ لأنّه يمتلك مصباحًا، وعندما يغفل فمعنى ذلك أنّ المصباح مطفأ، وعندها يأخذون الإنسان حيث يريدون، ولكن عندما ينادي الإنسان: «يا اللَه!» يأتي اللَه إلى القلب، فمن أين للإنسان الخوف؟ فإذن أحد الأمور اللازمة هو ذكر اللَه، ذكر اللَه يعني: اسم اللَه، وذكر اللَه على الدوام، يعني أن يكون الإنسان ذاكرًا للَه دائمًا.

صمت وجوع وسهر وعزلت وذكرى به دوام

ناتمامـــان جهـــان را كنـــد ايـــن پـــنج تمـــام

[يقول: صمتٌ وجوعٌ وسَهَرٌ وعُزلةٌ ودوام الذِّكر؛ فهذه الخمسة ستجعل غير الكاملين في العالم كاملين][1].

---

(١) ***الشمس الساطعة***، ص ٨١: بالنسبة إلى لزوم رعاية هذه الأشياء الخمسة، فقد وردت روايات تفوق حدّ الإحصاء نذكر منها فقط روايةً واحدةً ذُكرت في «*مصباح الشريعة*» في الباب ٢٨ من الكتاب، يقول: قَالَ الصَّادقُ عَليه السّلامُ: «**لا رَاحَةَ لِمُؤمِنٍ إلّا عِندَ لِقَاءِ اللَهِ تَعَالَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفي أرْبَعَةِ أشْيَاءَ: صَمْتٌ تَعْرِفُ بِهِ حَالَ قَلْبِكَ وَنَفْسِكَ فيما يَكُونُ بَينكَ وَبَين بَارِئِكَ، وَخَلْوَةٌ تَنجو بها مِنْ آفَاتِ الزَّمَانِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَجُوعٌ تُمِيتُ بِهِ الشَّهَواتِ وَالوَسْوَاسَ، وَسَهَرٌ تُنَوِّرُ بِهِ قَلْبَكَ وَتُصَفي بِهِ**

غير الكاملين يعني: الأفراد السالكين ولكنّ سفرهم لم يكتمل، فهم غير كاملين ويريدون أن يصبحوا فاكهةً حُلوةً، فالشجرة التي تُعطي ثمرة الكمثرى، تُعطي في البداية بُرعمًا، ثم حبّة صغيرة، ثمّ تنمو رويدًا رويدًا ويكون لونها أخضر، ثم أسود وأخضر ثمّ يُصبح لونها أفتح بعد ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة لمذاقها، فأوّلًا يكون مرّاً ولاذعًا، وعندما تنمو قليلًا يتحسّن لونها وطعمها إلى أن يصل إلى مرحلةٍ تُصبح معها كمثرى، والكمثرى ملك الفاكهة وهو حلو المذاق ومليءٌ بالماء ومرغوبٌ وله قيمةٌ، وهنا لم تعد هذه الفاكهة مضرّةً بالمعدة، هذا هو الإنسان الكامل، الإنسان الكامل هو الذي كمل.

مزيدٌ من التوضيح والبيان لمعنى مراعاة المزاج

والخمسة التي تُكمّل غير الكاملين، هي: التحكّم في الكلام، [والانعزال عن أهل الدنيا، والاستيقاظ عند السحر ودوام الذكر] ومُراعاة المزاج على النحو الأصلح، فقد يرى الآن الإنسان شيئًا ولكن لا تكون له رغبةٌ أو شهيّةٌ الآن ليتناوله، إلّا أنّ اللَه يقول: يجب عليك أن تأكل، فيجب أن يأكله خلافًا لشهيته، لماذا؟

لقد رأى هذا العبد بعض التجّار في السوق في ليالي النيروز حيث يكونون منغمسين في العمل إلى الحدّ الذي يجعلهم يغفلون، مثلًا: يتوجّب عليه تناول وجبة الغذاء عند الظهر ولكنّه لا يأكل، وتأتي الساعة العاشرة ليلًا فلا يتناول وجبة العشاء أيضًا. وقد اتفق أنّ أحدهم هو من أقاربي، وهو شابٌّ يخيط القمصان ـ نسأل اللَه له العافية ـ إنّه خيّاط يخيط القمصان وبقي هكذا لعدّة ليالي مع اقتراب برج الحَمَل، لقد كان عدد الزبائن كبيرًا، وكان مشغولًا بالعمل دومًا. وكان على المسكين قرضٌ، وعنده عيال، يعني: ربّما لذلك كان يقسو على نفسه، وعلى كلّ حالٍ، انشغل بعمله، ورأوا أنّه ولعدّة ليالٍ لم ينم ولم يأكل، فأصابته سكتةٌ، وكانت سكتته بسبب هذا التصرّف، حسناً، عندما يكون عنده هذا

طَبْعَكَ وَتُزَكِيّ بِهِ رُوحَكَ». وهنا أتى على ذكر الأشياء الأربعة الأخرى غير دوام الذكر، ومن المعروف أنّ دوام الذكر من أهمّ المقاصد كذلك. (ملاحظة: تمّ التصرّف بالنصّ قليلًا بعد ملاحظة الأصل الفارسي). (م)

العشق لذلك العمل، فإنّه لا يشعر بالجوع، ولا يشعر بالنوم! ولكن، في تلك اللحظة التي تصيبه السكتة القلبيّة، لا يأخذ تلك الأمور بالحسبان، إنَّ اللَه يقول: إذا كان لديك قرضٌ، فليكن لديك قرضٌ، وأنا سأعطيك ما يُسدّد قرضك، وعليك أن تخيط للناس القمصان بمقدارٍ لا يُصيبك بسكتةٍ قلبيّةٍ ولا يُهدّدك بالمرض! وإلّا فإنَّ جميع هذا المال الذي ستجنيه من عمل الخياطة لن يوازي عُشر المصاريف التي ستتكبّدها لاحقًا، بل لن تبلغ واحدًا بالمئة منها.

قاعدة سلوكيّة مهمّة: خير الأمور أوسطها

إذن في كلّ عملٍ يجلب العشق والشوق للإنسان، إذا أصبح ذلك العشق والشوق شديدًا، فسيبتعد الإنسان عن النوم والطعام؛ فعلى الإنسان أن يلتفت وينتبه، وأن تكون السيطرة بيده؛ لأنّ اللَه يُريده أن يتحرّك باتجاهه هو، وبالتالي عليه أن يسلك سبيلًا متوسطًا أيضًا، «**خَيرُ الأُمورِ أَوسَطُها**»[1]، **فإنَّ أفضل الأعمال هي الأعمال التي لا إفراط فيها ولا تفريط، لا سرعة فيها ولا بُطء**، و«**أفضل أمّةٍ، النَّمَطُ الأَوسَط**»[2] هم الأفراد المعتدلون، هم الذين يطوون الطريق بنشاطٍ ومن دون أيّ مرضٍ أو أذى أو قلق؛ فيكونون ذوي عمرٍ طويلٍ وذا صحّةٍ وسلامةٍ جيّدةٍ.

كان المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ وتدًا على الأرض، وقد عاش أربعةً وثمانين عامًا؛ هل انتبهتم؟ وهذا الحاجّ هادي الأبهري الذي نقلتُ عنه في هذا الكتاب عدّة مسائل[3] لقد كان رجلًا ذا بصيرةٍ، وقد عقد مع العبد عقد الأخوّة؛ وبالطبع لقد كان رجلًا أميّاً، إلّا أنَّه عاش عمرًا مديدًا فقط من خلال التقوى؛ ولكن هذه المسائل هي المسائل التي على الإنسان أن يعمل عليها، وأن يُسيطر عليها ويضعها في برنامجه وخطّة

(١) ***الكافي***، ج ١، ص ٥٤٠.
(٢) ***بحار الأنوار***، ج ٤، ص ٤١.
(٣) ***معرفة المعاد***، ج ١، ص ١٠٨؛ ***الروح المجرد***، ص ٩٨.

حياته، وليس هناك من عجلةٍ أو تسرّعٍ في الأمر، بل يضع العمل بيد اللَه، ويعمل طبقًا للدستورات التي كلّفه اللَه بها، و﴿**وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ**﴾[1].

اين همه اللَهِ تو لبّيـــــك ماســـت اين دعا و سوز و دردت پيك ما ست[2]

[يقول: إنّ كلّ كلمة «يا اللَه» تتفوّه بها هي قول اللَه لك «لبيك» قبل أن تتفوّه بها، وكلّ دعاءٍ وحرقةٍ وتألّمٍ إنّما هو رسولٌ من اللَه إليك].

فلو لم ينظر إلينا اللَه بعين الرحمة لما جرت هذه الكلمات على ألسنتنا، ولو لم ينظر إليك اللَه بعين الرحمة لما أوجد لديك هذا الألم، لما أوجد لديك هذه الحرقة للبحث عن اللَه، هذه النظرة هي نظرة محبّة؛ فلا ينبغي أن نصرخ ونقول: إلهي، لماذا نناديك ولا تجيب؟

سيقول اللَه: لقد أجبتك مسبقًا عندما تمكّنتَ من مُناداتي، لقد أجبتُك عندما تمكّنتَ أن تدعوني! فاسجد الآن سجدةَ الشُكر، وقل: يا اللَه! سبحانك! بجمالك وجلالك وكمالك تكرّمتَ ونظرتَ إلى هذا العبد المسكين نظرةَ رحمةٍ وذلك في خضمّ هذا العالم المليء بالاضطرابات وهذه الأفكار والمخاوف، وهذه المعتقدات الباطلة التي تجعل كافّة الأفراد ـ منذ أن كانوا نطفًا باردةً في الأصلاب في عالم الطبيعة هذا ـ يعيشون ما يقارب الأربعين والخمسين عامًا، فيأتون عميانًا ويرحلون عميانًا، وتكون أعينهم مغلقةً، فالحمد للَه الذي منحنا البصيرة، منحنا البصيرة كي نرى موضع أقدامنا ونشكرك على هذا المقدار الذي منحتنا إيّاه من البصيرة وسوف نتّبعها أيضًا، ونسألك المزيد.

فإذن، أشكرك على ما أوليتني، وأسألك ما لم تعطني، وأطلبه منك أنتَ؛ لأنَّ كلّ هذه الاستعدادات هي لك وكذلك الفِعليّات، نقصنا منك وكمالنا منك أيضًا، وهذه

---

(١) سورة البروج (٨٥)، ذيل الآية ٢٠.

(٢) **مثنوي**، المجلد الثالث، القسم ٧:

ايـن همـه اللَه تـو لـبّـيـك مـاســـت اين نياز و درد و سـوزت پيك ماســـت

القابليات والاستعدادات تخطو خطوةً تلو الخطوة نحو الكمال إلى أن تصل إلى الفعليّة؛ فنشكرك على هذا المقدار من البصيرة الذي منحتنا إيّاه، الحمد لله، ونسألك أن لا ترفع يدك عن النعم السابقة التي منحتنا إيّاها، وأن تمسك بأيدينا.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]، فالله هو الذي خلق كلّ مخلوقٍ بأفضل وجهٍ ثمّ لم يتركه بل هداه إلى كماله، والحمد لله أن كانت نظرةُ رحمتِك شاملةً لنا وأبصرتنا هذا الأسلوب وهذا الفكر وبصّرتنا بهذا المسير، ثمّ إنّ الهداية فيه بيدك أنت؛ فأمسك بأيدينا! وخذنا إليك! فنحن لسنا إلّا عبيدًا.

بنده را پادشاهی نیاید　　از عدم کبریایی نیاید
بندگی را خدایی نیاید　　از گدا جز گدایی نیاید
من گدا من گدا من گدایم

[يقول: لا يليق رداء الملوكيّة بالعبد، ولا يليق الكبرياء بالعدم المحض، ولا تليق الألوهيّة بالعبوديّة، ولا يجدر بالشحّاذ إلّا الاستجداء، وأنا شحّاذٌ أنا شحّاذٌ أنا شحّاذٌ]

بندهام گر به خویشم بخوانند　　راندهام گر ز پیشم برانند
آستانم چو بر در نشانند　　پاسبانم چو بر ره بمانند
هر چه گوید جز او را نشایم

[يقول: إن دعاني إليه كنتُ عبدَه، ولو نهرني كنتُ طريداً شريدًا، ولو أوقفني حاجبًا لصقتُ ببابه كالإطار، ولو توقّف في الطريق كنت حارسًا وخفيرًا، إذ لا يليق بي إلّا ما يدعوني]

گر بخوا ند به خویشم فقیرم　　ور برانند ز پیشم حقیرم
گر بگوید امیرم امیرم　　ور بگوید بمیرم بمیرم
بندهٔ حکم و تسخیر رأیم

(١) سورة طه (٢٠)، ذيل الآية ٥٠.

[يقول: لو دعاني كنتُ فقيرًا، ولو طردني فأنا في ذاتي حقيرٌ، لو قال: أنّي أميرٌ صرتُ أميرًا، ولو قال: مُتْ لمتُّ وفنيتُ، فأنا لحكمكَ عبدٌ ولرأيك مُسخّرٌ]

از عدم حرفِ هستى نشايد دعوىِ كبر و مستى نشايد

خاك را جز كه پستى نشايد از فنا خود پرستى نشايد

من فنا من فنا من فنايم[1]

[يقول: لا يليق بالعدم حديثُ الوجود، ولا يليق به ادّعاء الكبر والسكر، ولا يليق بالتراب إلّا الذلّ والضعة، ولا يليق بالفناء عبادة النفس، وأنا فناءٌ أنا فناءٌ أنا الفناء]

فنحن السائلون وأنت الغنيّ، ونحن الفقراء وأنت الغنيّ، ونحن العبيد وأنت الربّ، وقد أتينا الآن بأمرك وسلكنا صراط العبوديّة، ونسألك أن لا تقطع عنّا نظرة الربوبيّة والمحبّة! فلتستمرّ هذه النظرة تجاهنا، وأمسك بيدنا، واهدنا إلى حيث الاطمئنان والسكينة والنور والرحمة المحضة؛ وليس لا تقطع عنّا القلق.. القلق عبارة عن أمر جزئي، لاقيمة له، فعندما يأتي نور اللَه، فما معنى القلق؟! وما هو الاضطراب؟! عندما تضاء شمعةٌ في الغرفة المظلمة فلن يبقى فيها ظلامٌ بعد ذلك.

* * *

(١) ***ديوان أشعار الحاجّ الميرزا حبيب اللَه الخراساني.***

الجَلسَةُ السَادَسَةُ

المُراقَبَةُ وَالتَزكِيَةُ والمُواظَبَةُ فيِ السَيرِ وَالسُلوكِ

ألقيت في الثالث من شوّال، عام ١٤١١ هجريّة قمريّة

في مدينة مشهد المقدّسة

أَعُوْذُ بِاللـهِ مِنَ الشَيْطَانِ الرَجِيمِ
بِسْمِ اللـهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ
وَصَلّى اللـهُ عَلى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطَاهِرين
وَلَعْنَةُ اللـهِ عَلى أَعْدَائِهِم أَجْمَعِين

تمهيد

إنّ طيّ طريق اللَه لا يكون بالكلام والأقوال فقط؛ بل يكون مقرونًا مع العمل، وكلّما عَمِل الإنسان سينجح ويترقّى بمقدار عمله، وكلّما ترك العمل سيتأخر ويتراجع.

لقد صعد رسول اللَه صلّى اللَه عليه وآله في فتح مكّة على جبل الصّفا، وآنذاك كان جميع بني عبد المطّلب مجتمعين حوله، وكان جمعًا عظيمًا، حيث انتصروا على الكفّار وصار المشركون مطرودين ومهزومين ومنبوذين، وأصبحوا أذلّاء وطلقاء، وباتت القدرة والعظمة والعزّة والشوكة لرسول اللَه وأصحابه وبني هاشم وبني عبد المطّلب، فألقى حينها رسول اللَه خطبةً مختصرةً جدّاً، وبدوري أعرض عليكم مفادها، قال صلّى اللَه عليه وآله: اعلموا يا بني عبد المطّلب! بما أنّ الغلبة والعزّة كانت للإسلام وقد نصرنا اللَه وجعل كلمة الحقّ غالبةً على كلمة الباطل، فلا تظنّوا أنّكم ولقرابتكم منّي فقد انتهى عملكم هنا وأنّكم مهما عملتم من عملٍ فلا بأس، لا تظنّوا أنّكم بسبب انتسابكم لنبيّ آخر الزّمان فسوف تكون أعمالكم وأفعالكم مغفورةً وسوف يُغضّ الطّرف عنها، كّلا! إنّ الأمر ليس كذلك أبدًا!

كلّ شخصٍ مرهونٌ بعمله، وأنا رهينُ عملي، وأنتم كذلك رهناء أعمالكم أيضًا! «**إنّ لي عَمَلي ولَكُم عَمَلَكُم**»[1و2]، فإذا قمت أنا نفسي بمعصيةٍ للّه فسوف أسقط وأهوي في وادي الهلكة.

وقد أوصى أمير المؤمنين عليه السّلام أبناءه بنفس هذه الوصيّة، وكذلك جميع الأئمّة عليهم السّلام قد أوصوا أبناءهم وأقاربهم وأصحابهم والمقرّبين منهم بهذه الوصيّة.

فليست المسألة أنّه يُمكن للإنسان الانتفاع والتقدّم بمجرّد الانتساب والقرابة، إذ أنّ ذلك مخالفٌ لما وَصَلنا من السُنّة الإلهيّة التامّة.

ولو كان الأمر كذلك لكان اللّه ظالمًا، إنّ اللّه يتعامل مع جميع الموجودات بنظرةٍ واحدةٍ، وإذا أردنا أن ننظر إلى هذه المواضيع ونعتقد بأنّ مجرّد الانتساب من دون العمل موجِبٌ لرفعة المقام والمنزلة، وموجبٌ للحركة والوصول، فمن الواضح بأنّ هذا الأمر سوف يكون خاطئًا مئة بالمئة.

حقيقة السلوك إلى الله وما ينبغي للسالك عمله

أوّلًا: العمل

إنّ السلوك عبارة عن العمل! وسلوك طريق اللّه يكون بالعمل! والسالك هو الذي يضع قدمه بصدقٍ في الطريق؛ وأهمّ ما يقوم به هو توطين النفس، إذ ينبغي له ومنذ الوهلة الأولى أن يشدّ حزامه ويحفظ نفسه ـ بحول اللّه وقوّته ـ من جميع الآفات والعاهات التي في هذا الطريق.

---

(١) ***بحار الأنوار***، ج ٢١، ص ١١١.

(٢) لمزيدٍ من الاطلاع على هذه الخطبة الشريفة راجع: ***معرفة المعاد***، ج ٣، ص ١٦٧؛ ج ١٠، ص ٢٤١؛ ***ولاية الفقيه في حكومة الإسلام***، ج ١، ص ٩٨. (م).

كان المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ يأمر تلامذته بأن لا يتناولوا الطعام للتفكُّه!

وفي إحدى المرّات كان قد أعطى آية اللَه الخوئي ـ أبقاه اللَه إن شاء اللَه[1] ـ برنامجًا سلوكيًّا (لأنّه كان يأخذ برنامجًا سلوكيًّا من السيّد القاضي مدّةً من الزمن)، فقال له: لا تأكل الطعام تفكّها وتفنّنًا! وقد فكّر: أنّه ما العمل الآن؟ ففي النهاية لا بدّ أن نأكل الطعام ونأكل الأرز والمرَق، ومن أجل عدم تناول الطعام بهدف التفكّه والتفنّن في الأصناف، علينا أن نأكل الأرز والمرق كلًّا على حِدَةٍ؛ فنكون بذلك قد قوّينا أبداننا من جهةٍ وخففّنا جانب التفكّه والتلذّذ وأمثال ذلك من جهة أخرى.

وبالطبع إنَّ الإفراط في هذه المسألة غير جيّدٍ أيضًا، فإنّه: «**خَيرُ الأمور أوسَطُها**»[2].

وقد أوصى الأولياء أن يأكل الإنسان اللّحم مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع، وليس من الجيّد تناوله أكثر من ذلك، لأنّ ذلك يُجهد فكر الإنسان فلا يقوى على العمل، وحينما يتعب الفكر تتعب الروح، وبذلك سيبقى في مكانه، فيتعطّل السيف الذي يجب أن يُستعمل في سبيل اللَه ويهوي أرضًا ويصدأ ويضعُف شيئًا فشيئًا؛ وحينئذٍ سيتبدّل ذلك السيف القاطع إلى قطعة حديدٍ صدئةٍ لا فائدة منها.

ثانيًا: الرياضة الروحيّة

ثانيًا: وهو الأهم من ذلك كلّه، **الرياضة الروحيّة**، بحيث تكون نفس الإنسان وروحه طوع أمره، فيَسُوسُها ويؤدّبها، كي لا تدخله في أيّ صراطٍ! ولا يدخل نفسه في كلّ المشتهيات النفسانيّة، فالمجالس والمحافل والثرثرة والكلام الكثير جميعها مضرّةٌ، وتهوي بالإنسان وتسقطه تمامًا، وكذلك السياحة والأسفار التي ليست في مكانها تُتعب الإنسان.

كان المرحوم القاضي يقول (وكذلك سائر الأعاظم): إنّ السفر مضرٌّ للسالك من الأساس، ويجب أن يُكتفى بالحدّ الأدنى والضروريّ منه؛ وإلّا فإنّه سوف يفقد في تلك

(١) ألقيت هذه المحاضرة في زمان حياة السيّد أبو القاسم الخوئي رحمه اللَه. (م)

(٢) ***الكافي***، ج ١، ص ٥٤٠.

المدّة التي يُسافر فيها سكونه وطمأنينته شاء أم أبى، مضافًا إلى أنّه لن يكتسب شيئًا في فترة سفره، ولن يتقدّم ويتكامل، وحينما يرجع من سفره يجب أن يبذل جهدًا جديدًا مدّةً من الزمن حتى يُرجِع تلك الحالات التي فقدها.

ثالثاً: الصمت

الثالث: **الصمت** وعدم التكلّم بكلامٍ زائدٍ لا فائدةَ منه، بل إنّ تجنّب الكلام العادي أيضًا هو من الدساتير السلوكيّة الحتميّة للسالك.

ينبغي على السالك أن لا يتكلّم، فعليه أن لا يقول مثلًا: فلأجلس أنا ورفيقي، ولنتحدّث نحن الاثنان عن هذا الأمر وذاك الأمر، وعن الأرض والسماء والشرق والغرب والسياسة ومن هنا ومن هناك، وبما أنّنا رفيقان نمتلك نهجًا واحدًا ومسلكًا واحدًا، فإذن لا ضرر في ذلك، لا أبدًا! بل مُضرٌّ جدّاً! فهذا يُسقط السالك سقوطًا تامّاً ويُفْنيه من حيث لا يَشعُر!

كان آية اللَه الحاجّ الشيخ محمّد تقي بهجت الفومني (وهو الآن بحمد اللَه على قيد الحياة ويسكن في قم المقدّسة)[1] من تلامذة المرحوم القاضي، وكان له في فترة شبابه حجرةٌ في مدرسة «السيّد» ـ والظاهر أنه سكن في تلك المدرسة سبع سنين ـ وقد اشتغل فيها بالمراقبة والصمت إلى درجةِ أن طلاب تلك المدرسة لم يكونوا يرونه!

كان الحاج الشيخ عباس القوچاني رحمة اللَه عليه ـ الذي ارتحل إلى العالم الأبدي قبل سنةٍ وعدّة أشهر[2] ـ يقول: كان لي وللشيخ بهجت لكلّ منّا حجرة في مدرسة «السيّد»، وعندما تشرّف الشيخ محمّد تقي بهجت في محضر المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ وأخذ منه الدستورات والبرامج، كان كلّما أراد أن يخرج للدرس ويرجع إلى

(١) توفي سماحة الشيخ محمّد تقي بهجت، عصر يوم الأحد الموافق لـ ٢٢ جمادي الأوّل من عام ١٤٣٠ هـ في مدينة قم، وكان على قيد الحياة عند إلقاء هذه المحاضرة. (م)

(٢) توفي سماحة الشيخ عبّاس هاتف القوجاني في ٢٣ شعبان ١٤١٠هـ، ودفن في النجف الأشرف. (م)

المدرسة، وضع العباءة على رأسه؛ حتّى لا يتعامل معه أحدٌ في الشارع أصلًا، ولا يكلّمه ولا يشغله بالحديث والسلام.

وكانوا يقولون أيضًا: لقد كانت مراقبته شديدةً إلى درجة أنّه إذا أراد الرجوع إلى المدرسة والدخول إلى حُجْرته، كان يدخل من باب الدهْليز المسقوف الواقع خلف المدرسة بواسطة سُلّمٍ يوصِل إلى الغرفة العُلويّة، ولم يكن يدخل من صحْن المدرسة لكي لا يلتقي بأحدٍ، ولم يكن هذا الأمر ليومٍ أو يومين، بل كان ديدنه طوال سبع سنواتٍ كاملةٍ! وبالطبع سيحصّل ثمرات ذلك ونتائجه في نفسه.

وفي هذه السنوات الأخيرة في طهران، التقيتُ في يومٍ من الأيّام بأحد العلماء الذين كانت تربطني بهم علاقةٌ قديمةٌ، وكان من علماء تبريز الذين سكنوا في طهران، وكان له منصبٌ ومسؤوليّةٌ، وبالطبع كان على اطلاعٍ كاملٍ بعلاقتنا بالعلّامة الطباطبائي، فقال لي شاكيًا سماحة العلّامة [الطباطبائي]: رغم أنّنا من بلدٍ واحدٍ، وكان كلانا يدرس في النجف، إلّا أنّ العلّامة [الطباطبائي] وأخيه لم يُفسْحا المجال لنا للارتباط والتواصل معهما، وكانا يُطأطئان رأسيهما دائمًا، فلم يكونا لينظرا إلى هذا الجانب أو ذاك الجانب إذا أرادا الذهاب إلى الدرس أو العودة منه والعبور داخل السوق، بل كانا ينظران إلى الأسفل، وكأنّنا لسنا بشرًا أصلًا.

نعم! لقد قال لي ذلك من باب الشكاية أو التعريض مثلًا. حسنًا، ولكن ماذا يعرف هذا الشخص عن السبب الذي كان يدعو العلامة الطباطبائي وأخيه لعدم الكلام مع هذا وذاك، وهما من طلبة العلوم الدينيّة وكان سنّهما في حدود نيّفٍ وعشرين سنةً لا أكثر (حيث كان السيّد محمد حسن أصغر من أخيه العلامة بخمس سنواتٍ)؟ ولماذا لم يكونا ينظران إلى هذا الجانب أو ذاك؟ ولماذا لم يشغلا أنفسهما؟ مع أنّ نفس الانسان تحبّ أن تتلفّت إلى هذه الجهة أو تلك وأن تتكلّم وتختلط وغير ذلك.

لقد كان لدى هؤلاء وجعٌ وألمٌ، وكانوا يرون أنّه لا دواء له ولا علاج إلّا بهذه الطريقة، كما أنّهما لم يُقلّلا من احترام أحدٍ، بل احترامُ كلّ شخصٍ محفوظٌ في محلّه، ولكن هذا الأمر لا يستلزم أن ينظر الانسان ويتلفّت إلى هذا الجانب وتلك الجهة، وأن يتودّد لهذا أو ذاك، أو يُسلّم عليهم أو يتكلّم معهم، أو أن يحضر المجالس والمحافل، أو أن يُشارك في الجلسات والسهرات (والقعدات) والاجتماعات التي لا طائل منها.

الصمت هو أحد الدساتير الأساسيّة لهذا الطريق، وإذا لم يلتزم الإنسان بالصمت مطلقًا؛ فسوف يخسر جميع رأسماله ومكتسباته النفسيّة، فهذه النفس تبذل جهدًا؛ تذكرُ ذِكرًا، وتتعبّد بعبادةٍ، فمثلًا: يقوم الإنسان بإحياء اللّيل إلى الصباح، فتكتسب نفسه مكاسب على إثر ذلك، فإذا سكت الانسان ستبقى مكتسباته محفوظةً، وهذه المكتسبات تحفظ نفسه هكذا، وتبقى مع السكينة والطمأنينة وتسعى نحو تحصيل مكتسباتٍ جديدةٍ، وأمّا إذا لم يسكت، فسوف تضطرب نفسه وسيمتزج جميع الوسخ والقذارة في نفسه مرّتين، وسوف يتعكّر الماء الصافي لنفسه وروحه مرّتين، وهو لن يتنبّه في الظاهر أيضًا، وسيقول: ماذا فعلنا بحيث لم نترقَّ؟ ماذا فعلنا بحيث لم نتكامل؟ إنّ السبب في ذلك هو أنّنا أهدرنا ما اكتسبناه في مكانٍ آخر، مثل المخْزن الذي له ثقبان: ثقبٌ يدخل الماء منه، وآخر يخرج منه الماء أيضًا؛ حسنًا، فلو أُدخِل الماء بهذه النحو إلى المخزن طوال العمر، فلن يبقى في داخله شيء أبدًا.

جان همه روز از لگد کوب خیال وز زیان و سود و از خوف زوال

نی صفا می‌ماندش نی لطف و فرّ نی به سوی آسمان راه سفر[1]

[يقول: تدور الروح كلّ يومٍ في الخيال فلا يبقى لها لطفٌ أو صفاء، وتخشى الضرّ مع خوف الزوال فلا يغدو بإمكانها السفر نحو السماء].

(١) ***المثنوي المعنوي***، الدفتر الأوّل.

رابعًا: حضور القلب في الصلاة

الرابع: **حضور القلب في الصلاة واجبٌ ولازمٌ**. إذا لم يكن للانسان حضور قلبٍ في الصلاة، فإنّ صلاته لن ترتفع إلّا بذلك المقدار من عدم الحضور والتوجّه ولن ترتفع أكثر من ذلك.

وقد ورد في الرواية أنّ الملائكة ترفع صلاة الإنسان بذلك المقدار الذي يكون فيها حضورٌ للقلب، ولا يرفعون ذلك المقدار الذي لا يكون له حضور قلب فيه، وعندما ترفع الملائكة صلاة الإنسان وتصل إلى السماء الأولى فيقال: أرجعوا هذه الصلاة واضربوها بوجه صاحبها؛ لأنّه لم يكن متوجّهًا إلينا أثناء صلاته، وقد جعل لنا شريكًا آخر أثناء صلاته[1]. ويقول اللَه: أنا خير شريك، ولذا سأمنح سهمي إلى شريكي،[2] إنّنا لا نحتاج إلى هذه الصلاة.

كثيرًا ما نرى إنسانًا كثير العمل في الخارج، لكنّ نتيجة عمله قليلةٌ، والسبب هو ما ذكرنا من أنّه ينبغي على الانسان مراعاة هذه المسائل.

بيان العلامة الطباطبائي للشرط الأساسي في تأثير الأعمال

سألتُ العلّامة الطباطبائي يومًا: «في أيّة حالةٍ يكون العمل الكذائي مؤثّرًا؛ أو كيف يكون أكثر تأثيرًا؟ فأجاب: «بالمراقبة! بالمراقبة!» ثم فسّر ذلك قائلًا: هل تعرف ما معنى المراقبة؟ إنّ المراقبة تعني:

صَمت و جوع و سهر و عزلت و ذكرى به دوام

ناتمامان جهان را كند اين پنج تمام

[يقول: صمتٌ وجوعٌ وسَهَرٌ وعُزلةٌ ودوام الذِّكر؛ هذه الخمسة ستجعل غير الكاملين في العالم كاملين].

---

(١) الظاهر أنّ سماحته يُشير إلى الرواية التي وردت في كتاب، ***فلاح السائل ونجاح المسائل***، للسيّد ابن طاووس، ص ١٢١. (م)

(٢) ***الكافي***، ج ٢، ص ٢٩٥.

يعني: العمل بهذه الأمور لازمٌ حتمًا لتتحقّق المراقبة، وهي عبارةٌ عن ما يلي:

١. **الصمت**: أي السكوت.

٢. **الجوع**: والجوع هنا يعني: تنظيم الطعام، وتجنّب الإفراط وأمثال ذلك، ويعني: الصوم الذي هو من الواضح حدّه الأعلى والأكمل، بشرط أن لا يتدارك ما فاته من الطعام عند الإفطار أو السَحَر، فلا ينبغي أن يمتلئ ويُتْخم كي لا تزول جميع آثار الصوم.

٣. **السهر**: وهو الاستيقاظ آخر اللّيل، فإنّ السالك الذي لا يستيقظ آخر اللّيل وبين الطلوعين، لن ينال أصلًا أيّاً من المقامات حتّى لو جاهد نفسه وأتعبها ألف سنة؛ فإنّه لن يستفيد شيئًا، فهذا دستورٌ أساسيٌّ!

٤. **العزلة**: وهي تعني: الابتعاد عن أهل الدنيا وعن أهوائهم وآرائهم، وعن الأشخاص الذين همّهم تحصيل المال والجاه والاعتبار، فحتّى لو كانوا مسلمين ومن أهل الصلاة، إلّا أنّهم يفتقدون حرقة الدين وألم [فراق] اللّه، بل همُّهم هو هذه المسائل المعيشيّة والاجتماعيّة وما شابه ذلك، فإنّ التعامل مع هؤلاء يُتعب الانسان، ويصيبه بالكسل، ويذهب بروحه.

٥. **دوام الذِكْر**: ومعناه: أنّ على الانسان أن يذكر اللّه تعالى في قلبه على الدوام، وأن ينشغل فكره به تعالى، وأن يكون متوجّهًا إليه في كل آنٍ آنٍ من ساعاته، كم مضى من عمري؟ ولا أعلم كم سيبقى منه أو متى سينقضي؟ كان هناك أشخاصٌ مثلنا وقد تحرّكوا وساروا ووصلوا، كما أنّ هناك العديد من الأشخاص الذين غرقت أقدامهم في الطين وعلقوا، وقضوا حياتهم بـ «سوف» و«ليت» و«لعلّ»، حتّى انقضى عمرهم وارتحلوا في نهاية المطاف بيَدٍ خاليةٍ.

أهمّيّة المراقبة

وهذه المراقبة ـ التي هي عبارةٌ عن هذه الأمور ـ لها حكم الوقاية بالنسبة للمريض الذي يخضع للعلاج من قبل الطبيب؛ حيث ذلك الدواء الذي يريد أن يُعطيه إيّاه، أو

العمليّة الجراحيّة التي سيقوم بها، يتوقّف على امتناع المريض عن تناول الطعام قبل العمليّة مثلاً، فلو تناول قليلًا من الطعام أو كان في معدته ماءٌ؛ فقد يختنق بسبب التخدير، ولذا يقول له الطبيب: يجب أن لا تأكل شيئًا! ويضعون فوق سريره عبارة (يجب أن يكون على الريق في الصباح)! يجب أن لا يأكل شيئًا! وفي هكذا ظروف، لا يمكن للمريض أن يقول: فلأشرب جرعةً من الماء أو لأقوم بالأمر الفلاني، وإن شاء الله لن يكتشفوا ذلك.

إنّهم إذا لم يمنعوا الإنسان ولم يكبّلوا يديه، فبإمكانه أن يقوم هو بنفسه ويشرب الماء، ولكنّ شرب هذا الماء سيهدّد حياته بالموت، ويكون بذلك قد أوقع نفسه في الخطر، فإذا اطمأنّ الإنسان بأنّ هذا الطبيب يقول الصدق ويقول الحقّ، وبأنّ هذا الجهاز العامل وهذا المستشفى قائمان على قانونٍ إجرائيٍّ وعلى نظامٍ صحيحٍ؛ فلابُدّ لكلّ مَن يدخل إليه أن يلتزم بهذا النظام شاء أم أبى، وذلك كي يتحقّق الهدف والنتيجة المرجوّة من هذا المستشفى وهو خروج المريض منه سالمًا معافى، وإلّا فلن يتعافى.

إنّ الصمت يجمع أفكار الإنسان ويُمركزها، أمّا الكلام فيشتّتها، وهذان طريقان متعاكسان، فمن باب المثال: لو أراد الإنسان أن يتجّه ناحية المشرق فعليه أن يختار السكوت، أمّا لو لم يختر السكوت فكأنّه قد تحرّك باتّجاه المغرب.

حينما يسكت الانسان تتمركز أفكاره في نفسه؛ فيتجمّع شيئًا فشيئًا ذلك الهدف والمطلوب الذي يظهر في الإنسان بصورٍ متفرّقةٍ ومتكسّرةٍ وكثيرةٍ، فبسبب طمأنينة النفس الحاصلة من الصمت ستزول تلك التكسّرات والأمواج؛ وسوف يُشاهد الإنسان النفس، وبأنّ هذا الماء الذي في النفس قد هدأ وركد وصمت، وسوف تزهر فيه صورة القمر والشمس.

أمّا إذا لم يراع الإنسان الصمت، وألقى ببصره إلى كلّ مكان، وفتح فمه بالكلام في كلّ شيء، وأوصل من خلال نافذة أذنه كلّ كلام يطرق سمْعه، فإنّ هذا الذهن سيبقى

متفرّقًا ومشتّتًا في هذا العالم، ينظر إلى تجلّيات الله في كلّ موجودٍ، إلّا أنّه أعمى لا يراها، بل يراها بشكلٍ متكسّرٍ وممتزجٍ ﴿**يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ**﴾[1]. ويبقى إلى آخر عمره يعيش في حالة التفرّق هذه، ويستمتع باسم السلوك والعرفان وحسب! ولن يكتسب شيئًا وسيرتحل مُتحسّرًا؛ لأن نفسه لم تتقدّم خطوةً في سبيل التكامل، وقد اكتفى باللفظ بدلًا من العمل، وبسماع لفظ العسل والحلوى وحفظهما بدلًا من أكْلهما، والاكتفاء بأخذ نسخة العلاج عند الرجوع إلى الطبيب ووضعها في الجيب بدلًا من الرقود في المستشفى وتلقّي العلاج هناك، وعدم الوصول إلى أيّ مكانٍ؛ بل لن يقتصر الأمر على عدم الوصول إلى أيّ مكان وإنّما ستكون العقبات التي ستعترض الإنسان خطيرةً وليست مزحةً!

في مرّةٍ من المرّات قُلتُ لنفسي: مثلًا إنّ هذه الآيات القرآنيّة تُهدّد بالعذاب، فهل واقعًا سيعذّب الله العليّ الأعلى هذا المقدار من البشر، وسيُفنيهم ويخلّدهم في جهنّم؟! ثمّ تبيّن فيما بعد أنّ هذا المقدار الذي بيّنه قليلٌ أصلًا! ولقد أشار الأنبياء والأولياء والأئمّة والقرآن إلى هذه المسائل إشارةً، ولكنّ المسائل أعلى بكثير من ذلك!

وحقّاً ما يقوله رسول الله: «**نَحنُ مَعاشِرَ الأنبياءِ أُمِرنا أن نُكلِّمَ النّاسَ عَلَى قَدرِ عُقولِهِم**»[2]، أي: إنّنا مأمورون أنْ نُبيّن للنّاس على قدر مدركاتهم وفهمهم، ولا يمكننا أنْ نتكلّم أكثر ذلك.

---

(١) سورة يوسف (١٢)، الآية ٣٩.

(٢) جاء في هامش كتاب ***معرفة المعاد***، ج ٤، ص ٨٥، ما يلي: «***أصول الكافي***» ج ١، ص ٢٣؛ و«***روضة الكافي***»، ج ٨، ص ٢٦٨. وأورده في «***تحف العقول***» ص ٣٦، وفي «***بحار الأنوار***» الطبعة الكمباني، المجلّد ١٧ (***الروضة***)، ص ٤١ والمجلّد ٧٧، ص ١٤٠ من الطبعة الحروفيّة، عن «*تحف العقول*» بلفظ: «قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: **إنّا مَعاشِرَ الأنبياءِ أُمِرنا أن نُكلِّمَ النّاسَ عَلَى قَدرِ عُقولِهِم**». وروى البرقيّ في «***المحاسن***» ص ١٦٥ بسنده عن سليمان بن جعفر بن إبراهيم الجعفريّ مرفوعًا، قال: «قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: **إنّا مَعاشِرَ الأنبياءِ نُكلِّمُ النّاسَ عَلَى قَدرِ عُقولِهِم**».

فبمقدار الخلايا الموجودة في دماغ الإنسان، وبمقدار ما يحتويه بدن الإنسان من الخلايا، وبمقدار جميع جهات الاستعداد والقابليّة والقوّة التي لدى الإنسان، ينبغي للإنسان أنْ يسير نحو التكامل بذلك المقدار عينه وأن يحوّلها بأجمعها إلى فعليّةٍ محضةٍ! حسنًا، لكنّ الانسان لا يقوم بذلك، بل يتركها بأجمعها، ويتحرّك باتّجاهٍ آخر، وحينها سيذهب من الدنيا ناقصًا؛ مثل الفاكهة الفجّة التي يريد قطفها، لكنّها لا تنفصل عن الشجرة، فيحصل جرحٌ في الشجرة وتخرب، وتخرب الفاكهة أيضًا؛ والفاكهة الفجّة غير الناضجة لا تقدّم بين يدي السلطان، بل يرمونها في البساتين لتتحوّل إلى سماد، أو يطعمونها للحمار والبَغْل؛ بعد ذلك تُصبح عاقبة الانسان في دار الدنيا أنّه يُصبح طعْمةً للشياطين، وواقعًا يُصبح طعمةً للشياطين! ذلك الإنسان الذي يجب أن يصبح أعلى من الملائكة، يصير طعمةً للشياطين! وعندها تكون الحسرة كبيرةً! والندامة كبيرة! ولا مجال للعودة والرجوع! وسيقف الشيطان فقط، وسيقول [كما جاء في القرآن الكريم]:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

أنا لم أجبركم على الفعل، وكلّ ما فعلته هو أنّني دعوتكم فقط، فلماذا استجبتم لي ولم تستجيبوا لدعوة اللَه؟! ما أن لعدم الكلام مع هذا وذاشوفشا بقادرٍ على مساعدتكم ونجاتكم، ولا أنتم قادرون على مساعدتي، فكلانا مبتلى، فأنا مبتلى بنفسي وأنتم مبتلون بأنفسكم؛ فلا تلجؤوا إليّ بذريعة أنّني خدعتكم في الدنيا وسوّلت لكم، أن تعال واحمل وزْرنا مع وزرك أيضًا وارفع المسؤوليّة عن عُهْدتنا.

يجب على المؤمن أن يبقى ساكتًا مطلقًا عن كلّ ما فيه ضرر؛ إلّا في الأمور التي تمثّل أمرًا بالمعروف، أو نهيًا عن المنكر، أو ذكرًا للَه، أو مباحثةً ـ على أن تكون المباحثة

(١) سورة إبراهيم (١٤)، مقطع من الآية ٢٢.

لِلَّه وفي اللَـه، لا الكثير من الجدل والمراء، وإلّا ينبغي الاستمرار في المباحثة طالما كانت المباحثة موصلةً إلى حقيقة الأمر ـ ويجب أن يكون وقورًا!

أهميّة الالتزام برواية عنوان البصري في السلوك

كان المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ يأمر طلّابه أن يكتبوا رواية عنوان البصري وأن يضعوها دائمًا في جيبهم، وأن يُطالعوها مرّةً أو مرّتين في الأسبوع.

وقد طلب هذا العبد من بعض الرفقاء أن يكتبوها ويضعوها في جيْبهم، فمن يعرف العربيّة فبها، ومن لا يعرف العربيّة مثلًا، فعلى الأقلّ عليه أن يكتب ترجمتها ويضعها في دفتره الصغير داخل جيبه وعليه أن يُطالعها يومًا أو يومين في الأسبوع.

عندما ذهب هذا العبد إلى النجف، أُمرتُ أن أعمل برواية عنوان البصري، وأنّه ينبغي على الإنسان أن يضعها في جيْبه، في تلك الأيّام كان عندي كتابٌ صغيرٌ للجَيْب، وأذكر أنّني لم يكن لديّ آنذاك *بحار الأنوار* لأنقل منه الرواية، فذهبتُ إلى حسينيّة أهل شوشتر حيث كان فيها مكتبةٌ عامّةٌ معروفةٌ في النجف، فأخذتُ المجلّد الأوّل من *بحار الأنوار* من مسؤول المكتبة، وعثرتُ على هذه الرواية وكتبتها. والآن من بين دفاتر الجيب الصغيرة التي لديّ، هناك دفترٌ صغيرٌ يعود إلى تلك الأيّام وهذه الرواية مكتوبةٌ في أوّله.[1]

فالغرض من الكلام هو أنّ على الانسان أن يسعى ويهتمّ بالمسائل، ومن دون متابعتها فلن يصل إلى أيّ مكانٍ، فالإنسان يعمل كثيرًا ويتعب، ولكن يوجد شروط لكي تحصل النتيجة، فلكي يضيء الضوء ينبغي أن تتوفّر جميع سلسلة الأسباب من وجود مصنع الكهرباء، وشبكة الأسلاك، والعدّاد، والمنظّم، والمخْزن، والمحوّلات، كلّ ذلك لكي تصل إلينا الكهرباء؛ أمّا لو توفّرت جميع هذه الأسباب إلّا أنّنا لم نضغط قليلًا على السِلْك

(١) ***مطلع أنوار*** (فارسي)، ج ٤، ص ١٥٣؛ ***جُنگ ٣***، ص ٢١ إلى ٢٤؛ ***الروح المجرّد***، ص ١٩٢.

الذي بين أيدينا ولم نوصلْه؛ فإنّ جميع أتعابنا ستذهب هدرًا؛ لذا يجب أن نراعي هذا الأمر أيضًا!

الخسران هو عاقبة ترك العمل

إنّنا نرى من بين طلاب المرحوم القاضي، أنّ الأشخاص الذين اهتمّوا وراعوا، حصّلوا واكتسبوا، أمّا الذين لم يُراعوا فلم يكتسبوا شيئًا. فينبغي أن لا نقول بأنّ جميع من كان وصل إلى محضر المرحوم القاضي قد نال الفلاح؛ كلّا، لقد عاد بعضهم إلى إيران، وذهبوا إلى هذه المدينة وتلك، وصاروا من أئمّة الجماعات ومن أهل السياسة، وكانوا يركضون خلف تحصيل الوكالة، وأن يُعيَّنوا نوّابًا في مجلس [الأمّة] في تلك الأزمان، وغيرها من الأمور، وكلّ ذلك بعنوان خدمة الإسلام. ولم يكن المرحوم القاضي راضيًا عنهم، وكانت أخبارهم وأفعالهم تصل إليه.

لقد ذهب أحد طلاب المرحوم القاضي إلى «آذربيجان»، وبعد سنةٍ جاء شخص من «آذربيجان» إلى محضر سماحته، فسأله عن ذلك الطالب، فقال له: الحمد للّه، لقد سلك مسْلكًا وأصبح من الوجهاء والناس تحبّه. والحاصل، لقد تأثّر المرحوم القاضي لذلك كثيرًا، وقال: هذه المعرفة والشهرة ـ أي: ذياع صيت الإنسان بين الناس واشتهاره ـ لهي آفّةٌ عظيمةٌ! يعني: عندما يُعرف الإنسان بين الناس، فإنّهم يقصدونه، ولكلّ واحدٍ منهم مطلبٌ، ومطالبهم في الغالب لا تتعدّى أمور المعاش والخبز والماء واللّحم وما شابه ذلك، ومن ناحيةٍ أخرى، هذا الشخص ليس كاملًا ولا واصلًا إلى سِدْرَة المُنتهى ولا متربّعًا عليها، وهو غارقٌ في جميع هذه الكثرات ومنشغلٌ بها، وبالتالي سيخسر روحه، وسيبقى إلى آخر عمْره بين طلب فلان، وطلب فلان، وهذا يُسلّم عليه وذاك يُطلق الصلوات، وهذا يُقبّل يده وذاك يُقبّل رجله، أمّا الذي اجتنب الشهرة؛ فعلى الأقل يستطيع أن يستجمع نفسه وقواه، وأن يتأمّل في مكنوناتها، ومع رعاية الصمت الذي تكلّمنا عنه سيصل في النهاية إلى مقامٍ ومنزلةٍ.

لقد قال لي الميرزا حسن النوري رحمة اللَه عليه (وقد توفي قريبًا في حادث سيْر وانتقل إلى رحمة اللَه تعالى): في يومٍ من الأيّام كنتُ في محضر آية اللَه البروجردي ـ رحمة اللَه عليه ـ فقال لي سماحته:

«يا ميرزا حسن، طالما كنتُ في "بروجرد" كُنتُ لنفسي، وحينما جئتُ إلى "قم" لم أعد ملكًا لنفسي، بل صرتُ للناس».

هل التفتم؟ لقد قال كلامًا صحيحًا.

نجاح مدرسة السيّد عليّ القاضي في الترقّي السلوكي

نعم! وعلى كلّ تقديرٍ، لقد ربّى المرحوم القاضي تلاميذ كانوا مؤدّبين وذوي وقارٍ وكانوا صبورين شكورين وعادلين إلى درجة أنّ الحاجّ السيّد عبد الهادي الشيرازي رحمة اللَه عليه ـ الذي كان من مراجع النجف المبرّزين، وكان رجلًا تقيًّا حقًّا ـ كان يعتبر كلّ تلميذٍ من تلامذة المرحوم القاضي معادلًا لشخصين، يعني: لو أتى إليه أحد تلامذة المرحوم القاضي وشهد في قضيّةٍ أو مرافعةٍ معيّنةٍ، كان يحسب شهادته بيّنةً تامّةً ويكتفي بها دون الحاجة إلى إحضار شاهدين عادلين.

لقد سمعنا كرارًا أنهم كانوا يحسبون كلّ واحدٍ من تلامذة المرحوم القاضي بشخصين، لماذا؟ ذلك لأنّهم كانوا مواظبين جميعًا، وكانوا مراقبين لأعمالهم، وكانوا يدرسون بشكلٍ جيّدٍ، فجميع تلامذة المرحوم القاضي كانوا طلبةً ومحصّلين، وكانوا عدولًا بأجمعهم، وجميعهم من أهل المراقبة، وذلك إلى درجة أنّهم لم يكونوا يذهبون إلى شطّ الكوفة للسباحة! فرغم أنّ السباحة ليست محرّمةً، إلّا أنّ السالك المسكين والمبتلى بألف مرضٍ وألمٍ، لا مجال لديه ولا مُهْجة ليذهب إلى جانب الشطّ للسباحة ولا أن يشدّ السماور والبساط والزاد على ظهره حتّى يعبر النهر من هذا الجانب إلى آخر دون أنْ يتبلّل السماور والبساط وسائر اللوازم، ثمّ يصل إلى تلك الضفّة من الشطّ، ثمّ يجلس ويفرح ويمضي النّهار من الصباح حتّى الغروب، ثمّ يرجع ويستعدّ لدرس السبت أو ليلة

السبت، فحتّى لو كانت هذه كلّها نزهةً وليست معصيةً، أصلًا لا أحد يتكلّم عن المعصية، ولكن لا يبقى لهذا السالك مجالٌ للنزهة؛ لأنهم كانوا يصرفون أوقاتهم في الدرس والبحث والمراقبة والمحاسبة والسهر في مسجد الكوفة ومسجد السهلة، فيضيق عليهم الوقت.

ونفس المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ كان لديه أربع نساء في أربعة منازل، حيث كان لكلّ واحدةٍ من هؤلاء النسوة منزلٌ، ولكن نفس المرحوم القاضي لم يكن يمتلك شيئًا أبدًا أبدًا! ومع ذلك كان سماحته يبقى بمفرده في كثيرٍ من الليالي في حجرةٍ من حجر مسجد الكوفة ـ وكان سماحته ذا ثمانين عامًا أو بين السبعين والثمانين، حيث كانت وفاته في سنّ الواحد والثمانين ـ وكان يبقى مشغولًا بالعبادة والتهجّد في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة الواقعان في وسط الصحراء، وحيدًا غريبًا في مسجدٍ لا ضوء فيه ولا أحد، إذ لم يكن يتواجد في تلك الليالي ـ إلّا في بعضها ـ أحدٌ أبدًا ولا حتّى شخصٌ واحدٌ. حسناً، ما هو عمل هؤلاء؟ هل كانوا عاطلين عن العمل؟!

لزوم العزلة والخلوة في الطريق إلى الله

كان نبيّ آخر الزمان يمشي وحيدًا فريدًا، فكان يذهب من مكّة إلى أعلى جبل غار حراء، ويبقى هناك يومًا أو يومين أو أسبوعًا أو أسبوعين، وفي بعض الأحيان كان يبقى شهرًا، وكانت السيّدة خديجة تطوي ذلك الطريق الصعب نحوه، وكانت تحضر له الطعام أحيانًا، فلماذا كلّ ذلك؟

ينبغي على الإنسان أنْ يُفكّر في هذا المجال، ليرى هل هذا عبارةٌ عن طريقٍ موصِلٍ، أم لا بل كان مجرّد قضاء وقتٍ للتنزّه وتمضية الوقت والتفكّر في آثار الطبيعة؟! كلا، ليس الأمر كذلك! فهذا لم يكن إلّا فرارًا من الازدحام والغوغاء، وعدم استماع صوت شياطين هذا العالم، والسكوت في المقابل وتمركز النفس.

إنّه نبيّ وهذا صحيحٌ، وهو نبيّ آخر الزمان وخاتم النبيّين، وقد اجتمعت فيه جميع الكمالات والصفات، ولكن هذا النبيّ الذي كان يتمتّع بهذه الصفات، كان يقوم بهذه الأعمال.

لم تكن نبوّة النبيّ منذ أزل الآزال بحيث أُعطِي جميع المدارج والمعارج [دفعةً واحدةً]، ليقول الله له تصنّعًا: قُم واعمل هذه الأعمال؛ لكي يتعلّم الناس من أيّ قسم من جبل حراء يُمكنهم الصعود!! كلّا، بل كلّ هذه المشقّات واللطمات إنّما كانت مقدّمةً للوصول إلى ذلك الهدف؛ والهدف هو حصيلة الإرادة الإلهيّة، وإرادة الله تعالى أزليّةٌ أيضًا؛ وبالتالي كُلًّا من النبوّة والولاية ليسا خارجين عن اختيار النبيّ وأمير المؤمنين والأئمّة، وجميع تلك الخطوات التي اجتازوها إنّما كانت عِلمًا وأدبًا وتربيةً، ويجب أنْ تكون خطواتهم المربّي والمعلّم لنا على الصراط.

نصائح عامّة للسير والسلوك إلى الله

ولو أنّنا عملنا بهذا الشكل فسوف نصل إلى المقصد، وإلّا فسنراوح مكاننا! إنّ إطلاق اسم السالك على أنفسنا لا يعالج وجعنا! بل يجب أنْ يسلّم الإنسان نفسه حقيقةً في مقام الولاية، ويجب أنْ تخضع روحه حقّاً؛ يجب على الإنسان أنْ يتجنّب الإكثار من الكلام والمزاح الزائد؛ فهذه الأمور تضيّع السالك وتفسده! وبالمقدار الذي يعمل به السالكون سوف يستجمعون أنفسهم ويَصِلون لمقصودهم، وإلّا سيتوقّفون.

حسنًا، بناء على هذا، ما الذي ينبغي على الإنسان أنْ يفعله يا سيّدي؟!

نحن هنا قد جلسنا ونقول ونردّد: عجيبٌ هذا الأمر يا سيّد! فهذا أمير المؤمنين وهو صاحب الولاية، وهذه هي خُطبُه العجيبة التي خطبها على مسامع أهل الكوفة، ولغتهم هي العربيّة جميعًا؛ فلماذا لا يسمع هؤلاء ولا يستجيبون؟ لماذا كان

أمير المؤمنين يُردّد قائلًا: لقد أدميتم قلبي؟! لماذا لا تفهمون كلامي؟ إنّ الإنسان ليتعجّب واقعًا! ولمَ العَجَب؟! بل العجب من خلاف ذلك!! إنّ الأمر كذلك! لقد نادى: مَن عمِل فقد ربح وكسب، ومَن لم يعمل فلن يكسب؛ وليس للّه تعالى حساباتٌ خاصّةٌ مع أحدٍ.

لقد أخبرتُ بعض الرفقاء: الآن وقد أصبحتُ في سنّ السابعة والستين من عمري وابيضّ شعر وجهي، وقد ارتحلتُ وعُدْتُ عدّة مرّات! فقد ارتحلتُ وعدتُ عدّة مرّاتٍ بسبب أمراضٍ مهلكةٍ، وحقيقةً كانت مهلكةً جدّاً، والآن لدينا عمرٌ قصيرٌ من جديدٍ، فالآن نحن تحت الحساب! وللّه حساباتٌ يُجريها علينا، لا يمكن أن تصّدقوا أصلًا! لا يُمكن أن تصدقوا! لو أخبرتكم فإنّكم لن تصدّقوا! فعندما نكون نحن أنفسنا تحت الحساب، وعندما نُحاسب على الحسنات التي قدمناها (لا على السيئات!)، إذ علينا أن نُقدّم كشف حسابٍ عنها، والحساب صعبٌ جدّاً أيضًا! فحينئذٍ كيف يُمكنني أن أتحمّل أثقالكم وأحمالكم؟! وأيّ أحمالٍ هي؟! أحمالٌ قبيحةٌ! أحمالُ الخطيئة!

أيّها السادة الطلّاب! ينبغي أن تكون زيارة الإمام وزيارة مكّة سيرًا على الأقدام أو بأقدامٍ عاريةٍ، فلا ينبغي أن تركبوا سيارات الأجرة، ولا إنفاق الكثير من المال، بل ينبغي أن تسيروا هذه الخطوات القليلة إلى الحرم احترامًا لحريم الإمام الرضا عليه السلام، فتذهبون سيرًا على الأقدام وتعودون سيرًا على الأقدام.

وأنا عندما انتقلتُ إلى مدينة مشهد المقدّسة، كنّا نبحث في البداية عن منزلٍ، وقلنا: نُريد منزلًا في موقعٍ بحيث يُمكننا أن نتشرّف كلّ يومٍ بالزيارة والعودة سيرًا على الأقدام؛ لأنّه من الجيد القرب من قبره الشريف وعلى الأخصّ السير إليه! ولكن ليس من الجيّد أن يركب الإنسان سيارة الأجرة ويذهب ويعود!

على الإنسان أن يتّجه للزيارة سيرًا على الأقدام، وعليه أن يذهب سيرًا على الأقدام لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، ينبغي أن يذهب إلى مكّة سيرًا، وبقدمين عاريتين! لأنّه

يوجد هناك مشاهد مكرّمة ومشاهد معظّمة، وقبر الإمام ليس بأقلّ من الكعبة؛ بل هو حقيقة الكعبة وروحها! وعلى الإنسان أن يراعي هذه الأمور.

لكن بالطبع، لا ينبغي للإنسان أن يلتفت إلى هذه الجهة وتلك؛ فعلى طلّاب العلوم الدينيّة أن يحنوا رؤوسهم خلال سيرهم؛ ولكن لا يحنيه بحيث يقولون عنه: إنَّ فلان متكبّرٌ، ولا يهتمّ إلّا بنفسه ولا يعتني للآخرين؛ لا، هذا غير صحيحٍ أيضًا؛ ومن الأساس التصنّع ليس أمرًا صحيحًا! والسالك المتصنّع لا ينفع أبدًا.

يجب أن يكون نفس عمل السالك سلوكًا، وعليه أن يشغل قلبه كثيرًا بتلك الأمور وبضالته التي يبحث عنها، بحيث لا يكون هناك مجالٌ للتفكير والتصنع والالتفات إلى هذه الجهة وتلك الجهة، ولا الانشغال والكلام الفاسق والمشاحنات ولا برفع الصوت في المجالس وأمثال ذلك.

أساسًا يجب أن يكون المؤمن وقورًا! وعندما يرى الناس هذا الإنسان، فإنّ نفس عمله يكون معرّفًا عنه، «**في المَكاره صَبورٌ**»[1]، يجب أن يكون السالك وقورًا وصبورًا قدر الإمكان!

وقورٌ، يعني: أن يكون هادئًا، أسلوبه محكمٌ ومقبولٌ!

صبورٌ، يعني: ألّا تهزّه الأمور التي تجري عليه؛ وليس معناه أنّه حينما يُحضّرون له طعامًا لذيذًا، فإنّه يصبر إلى حين إعداد الطعام، فلا معنى للصبر في تناول الطعام اللذيذ؛ بل معنى الصبر هو أن يصبر إذا لم يصله الطعام اللذيذ، وأن يصبر على المزعجات، وأن يصبر إذا سمع كلامًا قبيحًا مِن شخصٍ ما؛ أن يتحمّل بسعة صدره إذا لم يسمع كلامًا جيّدًا من الأبّ والأمّ والأخت والأصحاب، أو سمع كلامًا غير صحيحٍ.

وعليه أن يؤثر الأصدقاء في اللَه على نفسه، أي: يُقدّمهم على نفسه، ولا يحسب حسابًا لهذا الإيثار أيضًا؛ [فلا ينبغي أن نقول في أنفسنا:] الآن في ذلك اليوم حينما كنتُ

(١) ***الكافي***، ج ٢، ص ٢٣١.

في العمل الفلاني، تنازلتُ عن حقّي له، حيث أراد فلان أن يصعد الباص فسمحنا له أن يصعد إليه قبلنا، فلا يحتسب أصلًا أيّ عملٍ من أعمال الخير التي فعلها للأصدقاء، بل عليه أن يعتبر نفسه مقصّرًا أيضًا؛ وهذا الأمر هو الذي يجعله يتقدّم؛ أي: إنَّ اللَه عالم السرّ والخفيّات يُكافئه ويجازيه طبقًا لتلك الأعمال التي قام بها، فثوابه وجزاؤه فوريٌّ يُعطى له في نفس ذلك الوقت، وسيستلذّ بطعم مناجاة اللَه في نفس ذلك الوقت.

كان أوّل دستورٍ من المرحوم القاضي ـ رحمة اللَه عليه ـ لتلاميذه هو **صلاة الليل والنوافل**! والآن هل يُمكن أن يتصوّر الإنسان أن يكون هناك طالبُ علمٍ سالكٍ ولا يُصلّي صلاة الليل أصلًا؟! ويقول: حسنًا، لقد عبرنا هذه المنازل، أويقول: نحن مشغولون بالدرس والتحصيل، وأهميّة الدرس أعلى من هذه القضايا، أو يقول: كنّا نشعر بالكسل هذه الليلة فلم نستيقظ، وفي ليلة الغد كذا وكذا... .

لو تجاوزنا السلوك جانبًا، فسنجد أنّ المؤمنين العاديّين الصلحاء لم يتركوا صلاة الليل طوال عمرهم؛ والآن نرى بعض الناس ممّن هم ليسوا من أهل السير، ولا من أهل السلوك، وليس لديهم آلام، لكنّهم أفرادٌ جيّدون ويُراعون صلاة الليل؛ إنّ هذا الأمر مهمٌ جدّاً! وعند ذلك كيف يُمكن أن يترك السالك صلاة الليل؟! حسنًا، [السلوك وترك صلاة الليل] لا ينسجمان، لا ينسجمان!

وإذا تأمّل الإنسان جيّدًا، فسوف يرى أنَّ وقته يمضي مثل جميع هؤلاء، وعلّة أنّنا نرى عدم تمكُّننا من القيام بهذا العمل، أو إذا قمنا بهذا العمل فلن نتمكّن من أداء الآخر، هو أنّنا مشغولون في كافّة أوقاتنا بهذه الجهة وتلك الجهة، فيتلف وقت الإنسان من أجل مدّ سفرة الطعام والجلوس وتناول الطعام وإعداد مقدّمات سفرة الطعام؛ فدع النرجيلة جانبًا، واترك اللقاءات الكثيرة، وسترى أنَّ وقت الإنسان سيزيد.

يقولون: إنّ المرحوم الشيخ الأنصاري ـ رحمة اللَه عليه ـ كان يهتمّ جدّاً بأنْ يُصلّيَ طلّابه صلاة الليل؛ وكان البعض يُقدّم الأعذار، وأنّه: يا سماحة الشيخ! لدينا دراسة في

المساء، دراستنا ثقيلةٌ وإذا صلينا صلاة الليل فلن نتمكّن من إتمام الدراسة، ولذلك لا نتمكّن من الصلاة، وإلّا إذا صلّيناها فلن نتمكن من الدراسة بالشكل المطلوب.

فقال الشيخ المرحوم له: تشرب غرشَة (أي: النرجيلة)؟ ـ وكانت النرجيلة منتشرةً في ذلك الوقت، وكان جميع الناس يدخّنون النرجيلة ـ تشرب غرشَة؟ هل تُدخن النرجيلة؟ قال: نعم؛ فقال: كم تطول مدّة تدخينك لنرجيلتك؟ فقال: ربع ساعة تقريبًا، وفي الأربعة وعشرين ساعة أدخّن عدّة غرشات وكلّ واحدةٍ تدوم ما لا يقل عن الربع ساعة.

فقال لهم الشيخ: افرضوا أنَّ حكم الصلاة يساوي نرجيلةً واحدةً! غرشةً واحدةً! ما يكفي لتدخين نرجيلةٍ واحدةٍ! لا نتوقّع منكم أكثر من أن تنهضوا وتصلّوا لمدّة ربع ساعة كلّ صلاة الليل ثمّ عودوا إلى النوم؛ ولكن من له اهتمام بالنرجيلة، ويُدخّن على الأقل النرجيلة مرتين أو ثلاث مرّات مع كلّ ما لديه من دراسات صعبة وعميقة في ليله ونهاره، وكلّ نرجيلة تطول لمدّة ربع ساعة؛ فهذا لن يصل إلى مكان؛ على هذا الشخص أن يصلّي صلاة الليل مكان واحدةٍ من النرجيلات بحدٍّ أدنى.

لزوم زيارة الأولياء الإلهيّين والتوسل بهم والجديّة في العمل

إنّ الزيارة مع الأدب هو أمرٌ حسنٌ جدّاً، ولا بدّ للإنسان من التوسّل على الدوام، ولا بدّ من الجديّة في العمل جدّاً جدّاً، وينبغي للرفقاء أن يكونوا صميميّين مع بعضهم، وأن يكونوا عطوفين وحميمين جدّاً، وأن يسعوا في مشاكل بعضهم، وأن يؤثروا بعضهم البعض على أنفسهم، بحيث إذا نظر إلى فعلهم وتصرّفاتهم الأشخاصُ الذين لا معرفة لهم بالإسلام ولا بالقرآن ولا بالسلوك ولا يعرفون معنى العرفان، فإنّهم يُدركون مِن خلال رؤيتهم بأنّ هذا هو حقيقة الإسلام والنبوّة والولاية.

السلوك يعني: اتّباع الصراط المستقيم لأمير المؤمنين عليه السلام، لا أن يُقال (لا قدر الله): هؤلاء [أي أهل السلوك] هم هكذا أيضًا! فما الفرق بينهم وبين الآخرين؟!

يصرخون ويفتعلون الضجّة ويتحدّثون في أمورٍ فارغةٍ ويستهزئون، وهم في ذلك أكثر من الآخرين! من الجيّد أن يتجنّب الإنسان هذه الأمور من الأساس، فكلّها خدعةٌ، وستبدو في الآخرة باطلةً، وسيبدو أنّه ليس هناك شيءٌ وراءها، حسنًا، إذا كان عمل الإنسان على هذا النحو فإنّها خدعةٌ واقعًا؛ لأنَّ اللَه لا يجزي الإنسان على الاسم ولا على الرسم؛ بل يلتفت إلى المُسمّى والحقيقة، وكلّ من يأتي يَصِل، ومن لا يأتي لا يَصِل.

لقد قال رسول اللَه من أعلى جبل الصفا: «**يا بني عبد المطّلب! إنَّ لي عَمَلي ولَكُم عَمَلَكُم**».[1] فذلك الشخص الذي يأتي من تلك المدينة البعيدة ويُنصِت ويعمل ويطيع، سوف يذهب ويحصل على النتيجة وسوف يصل إلى مقاماتٍ بحيث ينظر في قلبه إلى الكون والمكان والسماء والأرض من خلال نظرة الربط، الربط المحض، وستتجلّى حقيقة التوحيد له، وستتحقّق له العديد من الأدعية التي نقرأها بمعنى الحمل الشائع الصناعي، وسيعرف سرّها بنور التوحيد.

وتكامله يعود إلى هذا السبب، وهو أنّه التزم بالطريق ومضى، أمّا نحن فما زلنا في البيت وأيدينا خالية! وهذا الأمر مؤسفٌ جدّاً! وسنواجه من التأسّفات السيّئة جدّاً جدّاً فيما بعد!! لأنَّ كلّ خليةٍ في بدننا هي من أجل التكامل، وكلّ خليّةٍ في عقلنا هي من أجل التكامل، وكلّ كلامٍ ننطق به، وكلّ حديث نتفوّه به، وكلّ حركةٍ نقوم بها، وكل فكرةٍ تخطر لنا. كلّ نسيجٍ في بدننا يحترق ويزول ولا بدّ أن يحلّ مكانه بَدَل ما تَحَلَّل، وإلّا فلن يتحقّق منّا أيّ فعلٍ ونشاط؛ وإذا احترقت جميع هذه الخلايا فيجب أن تكون في طريق التكامل ويجب أن يكون هناك بَدَلٌ لما تَحَلَّل في سبيل الحياة.

يرى الإنسان أنّ هذه الأمور ستزول بأجمعها وستحترق، ويرى أنّ الشخص عالقٌ في المستنقع وفي عفنِ الأفكار الشيطانيّة، وأنّه عالقٌ ـ لا سمح اللَه ـ في أحضان الشيطان ولكنّه يتخيّل أنّه: كلّا، لقد عبر الجسر!

(١) ***صفات الشيعة***، ص ٦؛ و***بحار الأنوار***، ج ٨، ص ٣٥٩.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] (قل يا أيّها النبي! هل أننبئكم بمن أيديهم خاليةٌ أكثر من جميع الناس؟ إنّهم أولئك الأشخاص الذي اعتمدوا في جميع نشاطاتهم على هذه الأفكار والظنون الدنيويّة والاعتباريّة وتحصيل المصالح اليوميّة التي لا تستند على شيءٍ؛ لقد قضوا أعمارهم وهم عالقون في هذه الأفكار والخيالات، وهم يسعون وراء هذه الحياة الوضيعة والدنيّة، ويُخيّل إليهم أنَّ عملهم أفضل من سواهم، أو على الأقل يتخيّلون بأنَّ أفعالهم أفعالٌ حسنةٌ؛ هؤلاء هم الأقلّ نصيبًا من بقيّة البشر).

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ إنّهم هؤلاء الأشخاص الذين ضلّ سعيهم وجهدهم وعملهم في هذه الدنيا الوضيعة، وأضاعوا أنفسهم هنا؛ ولن يستطيعوا المضيّ والتقدّم، وسيقفل طريق التكامل هنا، لقد أضاعوا وجودهم هنا؛ أي: إنّهم أضاعوا حقيقة وجودهم فلا تكامل هناك، وقد دفنوا في هذه المقبرة.

اللَهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّد

* * *

(١) سورة الكهف (١٨)، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

فِهْرِسُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ

القرآن الكريم: المدينة المنوّرة (خط عثمان طه).
نهج البلاغة: مع شـرح الشيخ محمّد عبده، ٤ مجلّدات، دارالمعرفة للطباعة والنشـر، بيروت.

* * *

إرشاد القلوب: الشيخ أبي محمّد الحسن بن محمّد الديلمي، ٢ ج، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٢ هـ.

الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السنة: السيّد رضيّ الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس،المحقّق: جواد القيومي الأصفهاني، ٣ ج، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ.

بحار الأنوار: العلاّمة الشيخ محمّد باقر المجلسي، طبع دارالكتب الإسلاميّة (مرتضى آخوندى) طهران ١١٠ ج، طبع الوفاء بيروت.

البلد الأمين: الشيخ إبراهيم الكفعمي، مكتبة الصدوق، طبعة حجريّة، طهران.

تحف العقول عن آل الرسول صلّى اللَه عليهم: الشيخ أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفّاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

توحيد علمى و عينى در مكاتيب حكمى و عرفانى: حضرت علاّمه آية اللَه العظمى حاج سيّد محمّد حسين حسينى طهرانى، انتشارات حكمت، چاپ اول، ١٤١٠ هـ. ق.

جامع السعادات: الملّا محمّد مهدي النراقي، ٣ ج، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.

ديوان ابن الفارض: الشيخ أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن بن المرشد بن علي الحموي المشهور بابن الفارض، انتشارات الشريف الرضي، ١٤١١ هـ.

ديوان الحاجّ الميرزا حبيب الله الخراساني.

ديوان حافظ الشيرازي: مولانا شمس‌الدّين محمّد حافظ الشيرازي، تصحيح واهتمام حسين پژمان، نشـر: كتابفروشى فروغى.

ديوان هاتف اصفهاني.

سنن النبي (صلّى الله عليه وآله): العلّامة آية الله السيّد محمّد حسين الطباطبائي، تحقيق: محمّد هادي فقهي، انتشارات مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٣، ١٤٢٧ هـ .

السيرة الحلبيّة: عليّ بن بُرهان الدين الحلبي الشافعي، المكتبة الإسلاميّة، بيروت ـ لبنان، دار إحياء التراث العربي.

الشمس الساطعة: سماحة العلّامة آية الله العظمى الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني، الناشـر: دار المحجّة البيضاء، الطبعة الأولى.

عوالي اللئالي العزيزيّة في الأحاديث الدينيّة: محمّد بن علي بن إبراهيم الأحسائي المعروف بابن أبي جمهور، قدّم له آية الله السيّد شهاب الدين النجفي المرعشي، تحقيق:الشيخ الحاجّ آقا مجتبى العراقي، ٤ ج، مطبعة سيّد الشهداء ـ قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ .

عيون أخبار الرضا عليه السلام: أبو جعفر الصدوق، محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، اعتنى بتصحيحه وتذييله السيّد مهدي الحسيني اللاجوردي، ٢ ج، انتشارات جهان ـ طهران.

غرر الحكم ودرر الكلم: عبد الواحد بن محمّد التميمي الآمدي، انتشارات دفتر تبليغات قم، سنة ١٣٦٦ ش.

قوت القلوب: أبو طالب المكّي.

الكافي:أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاري، ٨ ج، دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨ هـ .

الكشكول : الشيخ البهائي، ٣ج ، دار الأعلمي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٣ هـ.

كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٤٠٩ هـ.

گلستان سعدی.

مثنوی معنوی: مولانا جلال الدّين محمّد بن محمّد بن الحسين البلخی الرومی، بخط ميرخانی.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢ هـ.

مجموعة ورّام: ورّام بن أبي فراس، ٢ ج، انتشارات مكتبة الفقه ـ قم.

المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء: محمّد بن المرتضى المدعوّ بالمولى محسن الكاشاني، صحّحه وعلّق عليه علي أكبر الغفّاري، طبع دفتر انتشارات اسلامی، المرتبط بجامعة المدرسين في الحوزة العلميّة قم، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ.

مصباح المتهجّد: أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.

مطلع انوار (دوره مُهذّب و محقّق مكتوبات خطی، مُراسلات و مواعظ): علاّمه آية اللَه حاج سيّد محمّد حسين حسينی طهرانی، مقدمه و تعليقات: آية اللَه حاج سيّد محمّد محسن حسينی طهرانی، ١٤ ج، انتشارات مكتب وحی، چاپ اوّل ١٤٣١.

معرفة اللَه: سماحة العلاّمة آية اللَه العظمى الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني، ٣ أجزاء، الناشر: دار المحجّة البيضاء، ١٤٢٠ هـ، الطبعة الأولى.

معرفة الإمام: سماحة العلاّمة آية اللَه العظمى الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني، ١٨جزء، الناشر: دار المحجّة البيضاء، ١٤١٦ هـ، الطبعة الأولى.

معرفة المعاد: سماحة العلاّمة آية اللَه العظمى الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني، ١٠جزء، الناشر: دار المحجّة البيضاء، ١٤١٧ هـ، الطبعة الأولى.

مكارم الأخلاق: الطبرسي، ١ ج، منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة ١٣٩٢ هـ.

مكاشفة القلوب: أبو حامد الغزالي.

من لايحضره الفقيه: الشيخ الصّدوق أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر غفاري، منشورات جامعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، الطبعة الثانية.

مناقب آل أبي‌طالب: أبو جعفر رشيد الدّين محمّد بن على بن شهر آشوب السـروي المازندراني، طبع مؤسسة انتشارات علامة، قم، ٤ مجلّدات.

نور ملكوت القرآن: العلّامة آية اللَه الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني، تعريب: حسن إبراهيم، دار المحجّة البيضاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠.

وسائل الشّيعة: الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق ونشـر مؤسسة آل البيت عليهم السّلام لإحياء التراث، قم المشـرفة، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩ هـ. ق. ٣٠ مجلّدًا.

ولاية الفقيه في حكومة الإسلام: سماحة العلّامة آية اللَه العظمى الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني، ٤ أجزاء، الناشـر: دار المحجّة البيضاء، ١٤١٨ هـ، الطبعة الأولى.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

دَوْرَةُ عُلومِ وَمَبَاني الإِسْلَامِ وَالتَّشَيُّعِ

تعريفٌ إجماليّ بالكتب والآثار المنشورة

الكتب والآثار المنشورة لسماحة العلّامة آية اللَه الحاجّ السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني ونجله آية اللَه الحاجّ السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ رضوان اللَه عليهما بواسطة دار مكتب وحي للنشر:

١ـ شرح وتفسير (القرآن والحديث)

١. **أنوار ملكوت (أنوار الملكوت)**: وهو من مؤلّفات سماحة العلّامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة حول: نور ملكوت الصوم، الصلاة، المسجد، القرآن، الدعاء، قدّم له وراجعه وشرح بعض مواضعه نجل العلامة سماحة السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّه.

٢. مقدّمة وتصحيح **رسالة المودّة:** وتبحث هذه الرسالة في تفسير آية المودّة مع عرض للآراء المختلفة حول حقيقة ذوي القربى، والردّ عليها مع بيان الرأي الصحيح بالأدلّة المتقنة، كما تمّ التعرّض فيها لبعض الأحداث التي حصلت بعد ارتحال الرسول الأكرم صلّى اللَه عليه وآله وسلّم حتّى شهادة الصديقة فاطمة الزهراء سلام اللَه عليها. (متوفّر بالعربيّة)

٣. مقدّمة وتصحيح **تفسير آية النور:** من آثار سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه سرّه.

٤. **شرح فقراتٍ من دعاء الافتتاح**: من آثار سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه سرّه.

٥. **شرح فقراتٍ من دعاء أبي حمزة الثمالي**: من آثار سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه سرّه.

٦. **حيات جاويد (السعادة الأبديّة):** شرح إجمالي لوصيّة أمير المؤمنين للإمام الحسن المجتبى عليهما السلام في حاضرين لسماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الحسيني الطهراني قدّس سرّه.

٧. **حديث عنوان البصري:** شرح رواية عنوان البصري، مستخرج من الشرح الصوتي لسماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّه.

٢ـ الأخلاق

١. «**سبيل الفلاح**» رسالةٌ في السير والسلوك: من آثار سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ، مع مقدّمة وتصحيح نجله السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّهما. (الكتاب الحاضر)

١. **السالك البصير:** محاضرات للعلّامة الطهراني حول موضوع العلم والعلماء، مع مقدّمة وتصحيح نجله سماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّهما.

٢. **مباني الأخلاق في الآيات والروايات:** من آثار سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة.

٣ـ الفلسفة والعرفان والكلام

١. **أسرار الملكوت**: ٣ أجزاء. (متوفّرة جميعًا بالعربيّة)

٢. **حريم قدس (حريم القدس)**: مقالةٌ في السير والسلوك. (متوفّر بالعربيّة)

٣. **افق وحي (أفق الوحي):** نقدٌ وردٌ على نظرية الدكتور عبد الكريم سروش حول الوحي لسماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّه.

٤. **سـر الفتوح ناظر بر پرواز روح (سـر الفتوح الناظر على كتاب عروج الروح)**: من آثار سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة، قدّم له وعلّق عليه نجله السيّد محمّد محسن الطهراني قُدّس سرّه.

٥. **مباني التشيع**: وهو حاصل ٨ مجالس لسماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة حول المسائل الاعتقاديّة من قبيل الجبر والاختيار والخير والشر و... .

٦. **گلشن أسـرار (روضة الأسـرار)**: شـرح على الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة للملا صدرا.

٧. **سيرة الصالحين**: عبارة عن ١٦ جلسة منقّحة ومحقّقة من بيانات سماحة آية اللَه السيّد محمد محسن الحسيني الطهراني قدّس سرّه حول حجيّة فعل وكلام الأولياء الإلهيّين ومنجزيّته.

٤ـ الفقه والأصول

١. **رسالة في وجوب صلاة الجمعة تعييناً**: لسماحة العلامة آية اللَه السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ مع تعليقةٍ لنجله آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّهما. (أصلها بالعربية).

٢. **الدرّ النضيد في الاجتهاد والتقليد**: تقريرات العلامة الطهراني قدّس سـره لبحث آية اللَه الشيخ حسين الحلّي في الاجتهاد والتقليد، وقد أضاف نجله سماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّه تعليقات قيّمة على البحث، مضافًا إلى مقدّمة وخاتمة للكتاب. (متوفّر بالعربيّة)

٣. **رسالة طهارة الإنسان**: دراسة فقهيّة تخصّصية لإثبات طهارة مطلق الإنسان ذاتاً. (متوفّر بالعربيّة)

٤. **اجماع از منظر نقد و نظر (رسالةٌ في عدم حجيّة الإجماع)**: وهي رسالة تتضمّن بحثاً أصولياً في إثبات عدم حجيّة الإجماع مطلقاً.

٥. **النيروز في الجاهلية والإسلام**: تحقيق حول النيروز وآدابه قبل الإسلام وبعده.

٦. **رسالةٌ حول العمرة المفردة**: لسماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّه.

٧. **الفقاهة في التشيّع**: لسماحة آية اللَه السيّد محمّد محسن الطهراني قدّس سرّه.

٨. **القواعد الفقهيّة**: وتضمّ هذه المجموعة ٣ أجزاء، حيث خُصّص أوّل جزئين لقاعدة لا ضرر ولا حرج، في حين يشتمل الجزء الثالث على كلٍّ من قواعد اليد، ولا تعاد، والتجاوز والفراغ ... .

٩. **المباحث الفقهيّة**: وهو عبارةٌ عن بيانات سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه سره للمسائل الفقهيّة الابتلائيّة المختلفة وذلك عُقيب الصلاة لروّاد المسجد.

٥ـ التاريخ والمجتمع

١. الأربعين في التراث الشيعي. (متوفّر بالعربيّة)

٢. **مناقب أهل البيت عليهم السلام**: عبارة ٨ محاضرات لسماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة تعرّض فيها لمناقب أهل البيت عليهم السلام، وبالخصوص أمير المؤمنين والإمام الهادي عليهما السلام.

٣. **سيرٌ في تاريخ النبيّ الأكرم صلوات اللَه عليه وآله**: مجموعة محاضرات لآية اللَه السيّد محمّد محسن الحسيني الطهراني قدّس سرّه.

٦ـ التراجم

١. **الشمس المنيرة**: عرض إجمالي للشخصيّة العلميّة والأخلاقيّة لسماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة. (متوفّر بالعربيّة)

٢. **مهر تابناك (الشمس الزاهرة)** : حول حياة الميرزا علي القاضي رضوان اللَه عليه.

٣. **نفحات الأنس:** في بيان شخصيّة العارف الكامل الحاجّ السيّد هاشم الحداد رضوان اللَه عليه.

٧ـ الدورة المحقّقة والمهذّبة من المكتوبات الخطّية والمراسلات والمواعظ

- **مطلع أنوار** (مطلع الأنوار): وهذه المجموعة القيّمة هي حاصل مخطوطات وثمرة عمر سماحة العلامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة، وقد جمعت تحت عنوان المكتوبات والمراسلات والمواعظ في أربعة عشر مجلّداً، مع مقدّمة وتصحيح وتعليقات قيّمة لولده سماحة آية اللَه الحاج السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ حفظه اللَه، وأهمّ أبحاثها:

الجزء الأول: المراسلات، اللقاءات والحياة الشخصيّة للمؤلّف المحترم (المرحوم العلّامة) بقلمه هو، قصص وحكايات أخلاقيّة وعرفانيّة وتاريخيّة واجتماعيّة.

الجزء الثاني: مختصر لتراجم أساتذة المؤلّف في الأخلاق والعرفان.

الجزء الثالث: تراجم لعدد من العظماء والعلماء والشخصيّات المؤثّرة.

الجزء الرابع: العبادات والأدعية والأخلاق.

الجزء الخامس: الأبحاث الفلسفيّة والعرفانيّة، علوم الهيئة والنجوم، الأدب والبلاغة.

الجزء السادس: إجازات المؤلّف في الرواية والاجتهاد، الأبحاث التفسيريّة والروائيّة.

الجزء السابع: الأبحاث الفقهيّة والأبحاث الأصوليّة.

الجزء الثامن: الأبحاث الكلاميّة (المبدأ والمعاد، المساوئ).

الجزء التاسع: الأبحاث الكلاميّة (حول أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام)

الجزء العاشر: ملاحظات ومنتخبات من الكتب التاريخيّة والاجتماعيّة.

الجزء الحادي عشر: الأبحاث الرجاليّة، متفرّقات (طب، لطائف...)

الجزءان الثاني عشر والثالث عشر: خلاصة مواعظ المؤلّف في شهر رمضان المبارك لعامي ١٣٦٩ و ١٣٧٠ هـ.

الجزء الرابع عشر: الفهارس العامة لهذه الموسوعة (الآيات والروايات والشعر والأعلام...)

* * *

البرامج الحاسوبيّة

- **إكسير السعادة** (النسخة الأولى والثانية): وتشمل هذه المجموعة على الآثار العلميّة والمعرفيّة لسماحة العلّامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة، وأكثر مؤلّفات أستاذه العلميّ ومربّيه السلوكيّ سماحة العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رضوان اللَه عليهما، ومجموعة مؤلّفات ومحاضرات سماحة آية اللَه الحاج السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ مدّ ظلّه العالي في شرح حديث عنوان البصريّ ودعاء أبي حمزة وسائر المعارف الإسلاميّة. (متوفّر بالعربيّة)

- **موقع مدرسة الوحي الإلكتروني:** وهو عبارة عن موقع إلكتروني يحتوي على الآثار العلميّة والمعرفيّة لسماحة العلّامة آية اللَه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ قدّس اللَه نفسه الزكيّة، وتفسير الميزان لأستاذه العلميّ ومربّيه السلوكيّ سماحة العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رضوان اللَه عليهما، ومجموعة مؤلّفات سماحة آية اللَه الحاج السيّد محمّد محسن الحسينيّ الطهرانيّ رضوان اللَه عليه، وذلك بشكل مكتوب ومسموع ومرئي، مع إمكانيّة تنزيل نسخ مجانيّة من جميع المحتويات، بالإضافة إلى إمكانية البحث في النصوص.

عنوان الموقع:

https://madrasatalwahy.org

* * *

عَلامَةُ صِحّةِ الطَّرِيقِ هُوَ أَنْ يَزْدادَ
اهتِمامُ الإنسانِ بِذلِكَ العالَمِ أكْثَرَ
وَأنْ يَتَخلّى عَنْ هذا العالَمِ دائِماً، وَأنْ
يَسْتَعِدَّ الإنسانُ قَبْلَ أنْ يَحِلَّ المَوْتُ
يَعْنِي أن يَتَحَرَّكَ نَحْوَ عالَمِ المُجَرَّداتِ
وَأنْ يَتَحَرَّكَ نَحْوَ عالَمِ القُدْسِ
وَعالَمِ الخُلُوصِ.

مقطع من الكتاب